البؤساء

(الجزآن : الأول والثانى)

تأليف : فيكتور هيجو
ترجمة : محمد حافظ إبراهيم



المحتـــويات

إهداء إلى الأستاذ الإمام

إنك موئل البائس ، ومرجع اليأس .. وهذا الكتاب - أيدك الله - قد ألم بعيش البائسين، وحياة اليائسين. وضعه صاحبه تذكرة لولاة الأمور، وسماه: كتاب «البؤساء»، وجعله بيتا لهذه الكلمة الجامعة ، وتلك الحكمة البالغة : (الرحمة فوق العدل) ..

وقد عنيت بتعريبه ، لما بين عيشي وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب ، وتصرفت فيه بعض التصرف ، واختصرت بعض الاختصار ، ورأيت أن أرفعه إلى مقامك الأسنى ورأيك الأعلى ، لأجمع فى ذلك بين خلال ثلاث : أولاها التيمن باسمك والتشرف بالانتماء إليك ، وثانيتها ارتياح النفس وسرور اليراع برفع ذلك الكتاب إلى الرجل الذى يعرف مهر الكلام ، ومقدار كد الأفهام ، وثالثتها امتداد الصلة بين الحكمة الغربية والحكمة الشرقية بإهداء ما وضعه حكيم المغرب إلى حكيم المشرق ..

فليتقدم سيدى إلى فتاه بقبوله ، والله المسئول أن يحفظه للدنيا والدين ، وأن يساعدنى على إتمام تعريبه للقارئين .

كلمة فى التعريب

هذا كتاب «البؤساء» ، وهو خير ما أخرج للناس فى هذا العهد ، وضعه صاحبه وهو بائس ، وعرّبه معرّبه وهو بائس فجاء الأصل والتعريب كالحسناء وخيالها فى المرآة ، وضعه نابغة شعراء الغرب وهو فى منفاه ، وعربه كاتب هذه الأسطر وهو فى بلواه ..

ولولا أننى أشرف بالكأس التى كان يشرب بها ذلك الرجل العظيم ، لما وصل مبلغ علمى إلى مبلغ علمه ، ولما سبح يراعى فى قطرة من سيول قلمه . ولو أن لى قلما من أعواد أشجار الجنة ، وصحيفة من صحف إبراهيم وموسى ، وقد تلقتنى البلاغة من كل جهة بفضلها ، فسموت إلى لباب مصاصها ، وأخذت منها حاجتى ، لما حدثتنى النفس بتعريب ذلك الكتاب ، لولا اتحادنا فى الألم وتشابهنا فى الشقاء ..

فلقد كنت أنظر فيه نظرة المنجم فى الميقات ، وأستوزع الله بيان تلك المعجزات ، حتى إذا نفذ الفكر إلى ما وراء سطوره ، واهتدى الخاطر إلى مكامن حكمه ، دعوت أم اللغات ، وعملت على التوفيق بين هذه الغادة الشرقية وتلك الفتاة الغربية ، عمدت إلى مد صلة النسب بين الغادتين اللتين انتهت إليهما بلاغة العرب وبلاغة الإفرنج ، فإذا شمست أحداهما وازورّ جانبها ، أغريت بها سلطان العقل ، فلا يزال بها يروضها كما يروض الراكب المطية الصعبة ، حتى تسكن إلى أختها وترتاح إلى جوارها . ولم تزل تلك حالى : أدخل بينهما دخول المرود بين الجفن والجفن ، وأمشى بينهما مشية الحكيم فى الصلح بين القوم والقوم ، حتى ائتلف الذوقان وامتزج الروحان ، وضمت شمسيهما طفاوة ، واحتوت بدريهما هالة ، وخلعت الأولى على الثانية جلالها ، وأعارتها الثانية نضارتها وجمالها ، وأصبحت تلك المعانى الإفرنجية بعد أن صقلها اللسان المبين ، وجندرها الذوق الشرقى ، وهى تسكن فى هذه المعانى العربية .

ولم يقع للناطقين بالضاد حتى اليوم شيء من مؤلفات ذلك الحكيم ، وهم أحوج الناس إلى معرفة أسرار الحياة والانتفاع بمثل ذلك الفكر ، الذى كنت بينا أراه يسابح الأجرام فى أفلاكها إذا هو يدارج النمال فى مدابها ، وبينا ألمحه بين ذروة العلم وشرفة القصر ، إذا هو بين قاع البحر وعميق النهر .. فكم أفلت من هجيرة واختبأ فى خميلة ، فمن تلهب جمرة القيظ فى صميم القائلة ، إلى تراوح النجم فى الروضة ، ومن التردد بين زفير العاشق وحرقته ، إلى التمشى بين نفس الحبيب وريقته .

ولا يزال الكتاب فى كل أمة يلتمسون أن يعقل عنهم ما ألهموا أن يدخلوه فى مؤلفاتهم من الحكم والأمثال ، فيصدحون عنها الشرور بأقلامهم كما يصدح[1] المطر ، ويستهبطون الحكمة من سمائها فيسكنونها بين سطورهم ، وينشدون لذلك الأمثال فينثرونها فيما يتخيرونه من الأقاصيص التى تدعو إلى العظة ، وتصفح النفوس عن ركوب سبل الغواية .

ومن تلك الأقاصيص ذلك الكتاب الذى أعانى تعريبه اليوم، فلقد قص عليه صاحبه أحسن القصص ، فكان مثله فيه كما قال عن نفسه : مثل المنجم الذهبى لا تصل الأيدى إلى تبره حتى تكاد تحصى ثراه عدا .

وقد خار الله لى أن أعربه ، فاستعنته فأعاننى ، واستهديته فهدانى ، وسلخت اثنى عشر هلالا فى تعريب تلك الصفحات التى ترونها اليوم . وحاولت أن أصل بها تلك الرحم ، التى قطعتها يد الترجمة التجارية بيننا وبين أولئك الرجال ، الذين تجردوا لتعريب أساطير الأولين فوفوها قسطها من الإتقان ، وألبسوها من البهجة لباسًا ترضاه اللغة ويرضاه أبناؤها .

---

(١) أخرجها مثلا. وكان من وساوس العرب – إذا خشوا سقوط المطر – أن يعمد أحدهم إلى خيمته أو عطفه ، فيرسم حولها دائرة ويتلو رقية يعلمها ، رجاء أن يخطئ المطر فى سقوطه ما يكون ضمن تلك الدائرة . وقد كانت هذه الصدحة مما استعان به المتنبى على تأييد دعواه فى النبوة .

أرأيتك أيها الناظر فى كتاب كليلة ودمنة ؟ أكان يقوم وأنت تذوق حلو تركيبه ، وتستمرئ لذة أسلوبه ، أن عبد الله ابن المقفع قد عرّبه عن الفارسية ، لو لم يصل خبر ذلك إليك ؟ فسقيا لتلك الأقلام التى عربت فأعربت ، وسطرت فأعجبت وواها لهذه اللغة التى أصبحت بين أعجمى ينادى بوأدها ، وعربى يعمل على كيدها ..

ومن نظر فى بطون تلك الكتب التى تترجم اليوم ، رأى هذه الغادة الشرقية وهى على فراش موتها تندب خدرا قد ابتذلته الأقلام ، وسترا قد هتكته الأوهام ، وقد فتحوا لها فى بطون هذه الكتب قبورا ، وخاطوا لها من تلك الصحف أكفانا ، وهيأوا من هذه الأقلام أعواداً ، وما هو إلا أن يثنى ذلك الغربى بدعوته حتى يسرع إلى جنازتها أهلها وذوو قرابتها ..

اللهم أنت تعلم أننا نعلم موضع الداء وفينا الطبيب الماهر ، ونسمع ذلك النداء ومنا المعين الناصر ، اللهم إن هذا خـذلان منك فأدركنـا برحمتـك وهيئ لنا من أمرنا رشدا ..

أيكون بين أبناء اللسان العربى مثل من أرى اليوم من فحول البلاغة وملوك الكلام، وأنا لا أعرف من هذه الزهور قديمها وحديثها غير أسماء معدودات ، ولا أكاد أجيد وصف قصر من القصور أو آلة من الآلات ، ومخترع من المخترعات إلا ما وقع تحت نظر العرب فى تلك الجزيرة الجرداء ، وما سمت إليه حضارتهم فى عهد الدولة الأندلسية ؟

أى رجل كان صاحب كتاب البؤساء ، وأى غيث سقاه ، وجو حواه ، حتى أدخل فى لغته من الكلمات ما يخطئه العد ، ووقف فى وجوه المعارضين فيها وقفة البسفور فى وجوه الطامعين فى هذه الدولة حتى انقلبوا عنه خاسرين ؟ أوليس رجالنا بقادرين على أن يأتوا متساندين بمثل ما أتى به ذلك الرجل وهو وحيد ؟

تباركت أسماؤك اللهم .. أيدعى **البعير – وهو ذلك** المركب الخشن – بهذه الأسماء التى تضيق عنها بطون الكتب وهذه مراكب البخار والكهرباء لا نكاد نجد لأسمائها

مرادفا فى هذه اللغة ؟ فما عسى أن تكون حالنا بجانب ذلك العربى الذى يقول فى وصف عيشه :

الأبيضان أبردا عظامى   المساء والفت بلا إدام[1]

وهو فوق راحلة طالع على قتب يكاد يدمى عجانه تحت شمس لا تكاد تأكل ظلها فى مفازة .

تمشى الرياح بها حيرى مولهة   حسرى تلوذ بأطراف الجلاميد

إذا أردته على أن يصف تلك الراحلة العجفاء فأرهف بالقول وسرد من الوصف ما يبلغ حد الإعجاز ، وأردتنا على أن نصف ونحن نستطيب من صنوف الطعام ما يضيق به صدر الخوان ، ونتبوأ أريكة «الأوتومبيل» تحت ذلك الظل الظليل ، فى مخارف[2] ضفاف النيل على فراش وثير ، ومتكأ من حرير ، بين نسيم عليل ، وماء سلسبيل ، ذلك المركب الذلول الذى لا تلحق به صافنات الخيول ، فوقفنا أمامك موقف الحائر لا نعرف له اسما يدل على مسماه ، ولا مرادفا فى اللغة يؤدى معناه ؟

فخذوا أيها القادرون على الإصلاح بيد اللغة ، وانظروا كم أدخل فيها آباؤكم الأولون من كلمة فارسية .

وهذا كتاب الله بين أيديكم يأذن لكم بما ندعوكم إليه . وهذا باب الاشتقاق وباب النحت لا يزالان بحمد الله مفتوحين لم يصبهما ما أصاب باب الاجتهاد فادخلوا منهما آمنين .

---

(١) تقول العرب : الأبيضان عن الماء والفت ، والأحمران عن اللحم والخمر .

(٢) جمع مخرف وهو المتنزه .

كلمة للمعرّب في المؤلف

ولد «هيجو» والقرن الغابر صبي في مهده لم يدرج من حجر أمه ، ولم يفرق بين أمسه ويومه ، فاصطحبا طفلين ثم افترقا ، وضرب الدهر بينهما بضرباته فالتقيا شيخين فانيين فإذا الأول سيد القرون ، وإذا الثاني نادرة البطون ، هذا يمشي على قدمين من ليل ونهار ، ويطير بجناحين من كهرباء وبخار ، وذلك يتوكأ على عصوين من عظة واعتبار ، ويرتدي بثوبين من حكمة واختبار ، وقد جلس الأول على سرير دولة الأيام ، وأخذ الثاني بصولجان دولة الأقلام ، فالتقت دولة العجب ، بدولة الأدب ، واجتمعت بدائع الاختراع ، ببدائع اليراع ، فاخضل ظل هاتين الدولتين ، وامتد من المغربين إلى المشرقين ، فظل الناس بين نعيم الحرية ونعيم المدنية .

سبحانك اللهم ، هل كانت تعقل هذه الذرات -- وهي في عالم السديم – أن سيرتقي بها الحال إلى العيش في هـذا النعيـم ؟ فتبارك الله الذي علّـم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم .

ولد هيجو واللغة الفرنسوية بمنزلة بين الضعف والحاجة، والقوم بين أسر التقليد ، وذل التقييد ، والأدب لم يبق منه إلا الذماء ، فأنبته أبوه نباتا حسنا ، فما كاد يشهد ستة عشر ربيعا حتى تحركت نفسه إلى معالجة الشعر فقرض قصيدة دار لها فلك البلاغة ، ورددها لسان الكون ، رفعها إلى المجمع العلمي فاهتزت جوانبه عجبا ، وكادت تطير أعضاؤه طربا ، ولولا أنه كشف عن سره ، وأوضح عن بيان عمره ، لأجزلوا ثوابه ، ورفعوا جنابه ، ولكنهم قارنوا بين شعره ، وعمره ، فاستنزروا أيامه واستغزروا بيانه ، فظنوا أنه يسخر منهم ، فلم يجيزوه ألا يسيرا . وهبت بعد ذلك رياح سعوده ، فأخذ بناصية القوافي ، وتنازل له سلطان الخيال فسبح في ملكوته ما شاء الفكر ،

وما زال يتنقل فى تلك العوالم الخيالية حتى نودى به أميرا على دولتى النظيم والنثير ، وشجر بينه وبين جماعة الشعراء الخلاف ، فرأوا الحفاظ والتمسيك للقديم ، ورأى غير ذلك ، فلم يزل بهم يصابرهم ويطاولهم حتى ظهر عليهم ، ورفع للشعر منارا أطلت منه الحقيقة بجلالها ، وأشرفت منه الطبيعة بجمالها .

ولما صدع قيود الشعر ، وأطلق سراحه من سجن التقييد وقد وقف إذ ذاك على أبواب الثلاثين من عمره ، نظر فإذا فن التمثيل يتضاءل تحت أستار الملاعب ، تضاؤل الحسناء تحت الأطمار ، لأخذ رجاله بأسباب التقليد ، وترسمهم أثر الرومان واليونان فيما وضعوه من الأقاصيص التى تمثل أدوار تلك الأزمان الغابرة ، ورأى أن الواضعين فيه لم يجيئوا بما ينقع الغلة ، فانبرى إلى منازلة أولئك المقلدين ، وقامت بينهما حرب عقدت عجاجها الأقلام ، وأدارت رحاها الأفهام فما زال يكر عليهم بجيوش البيان ، وكتائب البرهان ، حتى خضعوا لقلمه ، وساروا تحت علمه .

ولاحت بعد ذلك تباشير الإصلاح فى سماء الأدب ، وظهر كتابه الذى سماه نتردام دوبارى **Noter Dame de Paris** فطلع على الناس طلوع القمر على المدلج الحائر ، حشرت له فيه اللغة جنودها من الألفاظ والمعانى ، فاستعرضها صفا صفا ، وتفقدها حرفا حرفا ، ثم أبرزها إلى ميدان التحرير على أحسن تعبئة وأكمل نظام ، وقد وفق بين قلبها وجناحيها كما يوفق القائد الخبير .

ولما قضى من الأدب لبانته، وأخذ من الشعر حاجته ، هجر الشعر إلى السياسة ، وما هى إلا جولة من جولات الفكر حتى دعته السياسة إلى مواصلة الشعر ، ليوضح لها سبيل استهواء الأفئدة ، واستبطان الضمائر ، ويكون طليعتها فى اكتشاف ما يستكن فى قرارة النفس وخلجات الفؤاد .

وبلغ هيجو من السياسة كوكبها[١] ، فركب سفين الحرية عرض بحارها ، فما زالت توفى به من بحر إلى بحر ، وترمى به من عبر إلى عبر ، وهو على ظهرها يطالع

---

(١) كوكب الشىء معظمه .

فى أفق الدهاء صحيفة الرجاء، وقد وضع أمامه إبرة الأمل، وجعل وجهته قطب العمل ، حتى بلّغته شاطئ آماله ، وحمد مغبة أعماله .

وما كاد يتنسم الإفرنس نسيم الحرية حتى هبت ريح الاستبداد من رقادها ، وصفت من جوانب العرش المالك ، فاحتملت هيجو على أكتافها واندفعت به ، حتى إذا بلغت سماء بروكسل عاصمة البلجيك ألقت به هناك فى منفاه الجديد .

فنزل الرجل متماسكا لم يعتره الدهش ، ولم يتطرق إلى عزمه الخمول ، غادر باريس وقد أقسم أن لا يهبطها أو يهبط عرش الملك فيها ، وبرت يمينه .. فإنه لم يطأ أرضها حتى وطئتها بوادر خيل الألمان فى حرب السبعين .

ولبث هيجو فى منفاه، وكانت أيامه فيه أخصب أيام حياته فأسلس العنان لفكره ، وأوسع المجال لقلمه ، فوضع كتابه الذى سماه «نابليون الصغير» ، ونظم بعده كتاب «العقوبات» فنال فيه من نابليون الثالث ما لم ينله منه زوال ملكه ، وكان عليه أشد غضاضة من تسليم سيفه إلى يديد عدوه فى يوم خذلانه .

وجاء ذلك الكتاب مثال ما يملى الحق على القريحة ، وتوحى الموجدة إلى اليراع ، ووضع بعده كتاب «المشاهدات» وكتاب «البؤساء» الذى نعربه اليوم ، وكم له غيرها من مؤلفات جليلة ، ومنظومات بديعة ، منها ما صنعه فى صباه «كأوراق الخريف» «وأناشيد الشفق» ، ومنها ما وضعه بعد عودته إلى الوطن ككتاب «العام الأسود» ، ومات هيجو وهو نادرة الفلك ، وواحد عطارد .

كلمة للمؤلف فى البؤس

مثل البائس الذى سجلته يد المقادير فى سجل العناء ، وطوحت به فى ظلمات هذا الوجود ، فمضى يتخبط فى ديجور الحياة ، يؤمه النحس ، ويمشى على أثره الشقاء ، تلعب به الأيام لعب النكباء بالعود ويدب فى نفسه اليأس دبيب الآجال فى الأعمار ، كمثل الغريق ظفر به البحر الهائج فى يوم ريح صرصر عاتية ، فلبث معلقا فى خبط من الأرجل تحت شقى مقص الفناء ، يفتح له الوهم بين كل موجتين قبرا ، ويمد له الخوف بين كل قطرتين بحرا ، يطفو به القدر ويرسب به القضاء ، فتلتقفه الموجة بعد الموجة ، وتلتقمه اللجة بعد اللجة ، وقد درجه البحر فى كفن من الزبد ، وحمله على نعش من الماء فوق أعناق أمواج كالجبال ، تعلو به تارة إلى مجرى الأفلاك ، وتسفل به أخرى إلى مسبح الأسماك، حنق عليه الماء والهواء ، وزهدت فى وجوده الأرض والسماء ، وكلما هم بالاستسلام للموت أدركه الحرص على البقاء فجعل يجالد تلك الأمواج الثائرة ، ويصارع ذلك الجبار العنيد ، حتى إذا نزح التعب قواه ، طواه البحر فى جوفه طى السر فى الفؤاد : ذلك مثل البائس فى هذه الحياة الدنيا .

أما ذلك المجتمع الإنسانى فمثله كالسفين أخذت فى ذلك الخضم مجراها ، فانحطت عليها الأعاصير واصطلحت عليها الأنواء ، وألقت بها فى تلك اللجج التى تضل فيها الظنون والأوهام سبيل النجاة ، يدنو منها القضاء فيفرق ، ويسبح فيها الخيال فيغرق ، إذا تدجت فهى ليالى الشقاء ، وإذا ثارت فهى براكين الماء . ألقى بهذه الجارية تيار الماء والهواء ، إلى حيث هذا الغريق تصافحه رسل الحمام ، فجعل يدعوها إليه مرة بالنداء وأخرى بالإيماء ، لتستل حياته من يد الأجل . وكلما صاح ذهبت بصيحته هوج الرياح ، أو أشار قام بينه وبينها سد من الأمواج ، فهى لا تسمع نداءه ، ولا تنظر إيماءه ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين .

الجـــزء الأول

الفصل الأول

جـــان فالجـــان

أشرف على مدينة (دينى) رجل يضرب فى الأرض على قدميه فدخلها وقد مال ميزان[1] النهار واكتهل اليوم الأول من شهر أكتوبر سنة ١٨١٥ وكان قد ركب نعليه عامة يومه فما أدركها حتى أخذ منه الجهد وأعياه النصب وأمله طول الشقة[2] وحتى ملكه الجوع ونال منه الظمأ وجمع فى منظره بين تعب الحياة وتعب السفر فكانت النظرة إليه تدعو إلى الريبة فيه . لذلك ما نظره أحد من سكان تلك المدينة ومرت به خلجة شك فى أمره .

وكان ربعة فى الرجال بادنا[3] شديد الحول يضرب لونه إلى السمرة طويل شعر اللحية قصير شعر الرأس لقرب عهدها بالمقراض نيفت أعوامه على الأربعين ، عليه أسمال بالية وبيده عصا وقد احتقب[4] خرجا ملأه بحاجه ولباناته .

دخلها وهو أشعث أغبر ، وقد انتشرت على أديم وجهه طبقة نسجتها يد السفر من خيوط الشمس وطلتها بطلاء من العرق والغبار فسار فيها وقد أنكره كل من رآه – وكذلك ينكر ابن السبيل – وأخذ سمته إلى دار المشيخة ، فمضى[5] قدما فى إحدى

---

(١) مالت الشمس إلى الغرب .

(٢) السفر الطويل .

(٣) ذو البدن السمين .

(٤) أى حمل .

(٥) أى سار إلى الأمام .

سبلها ، حتى إذا قطعها عطف يسرة وعرج على تلك الدار ولبث فيها بعض ساعة ، وخرج فمر بجندى فحياه فصعر[1] الجندى خده وتثاقل فى رد تحيته ، فمضى الرجل فى طريقه ونظر الجندى يترسم[2] مواقع أقدامه ، حتى غاب عنه سواده .

ولعله كان قادما من الجنوب - فلقد طلع على تلك المدينة من ذلك السبيل الذى ركبه نابليون الأول قافلا من (كان) إلى (باريس) منذ سبعة أهلة - وكأنه منذ أصبح ما تبلغ[3] فما هو إلا أن أفلت من دار المشيخة حتى تيمم النزل ، فلما دلف[4] إلى حيث يطبخ ألفى رب النزل هناك ، فسأله رب النزل وقد أحس بقدومه وإن لم يمد إليه بصره: «ما سؤل الطارق؟» فقال الرجل : «أكلة ونومة» ، قال : «لك سؤلك» ثم التفت إليه فما كاد يأخذه نظره حتى أخذه الشك فيه فعطف قائلا : «أوتصل يدك إلى وفاء حق ما تطلب ؟» فضرب الرجل بيده إلى جيبه وأخرج كيسا فهزه حتى أسمعه وسوسة[5] ما بداخله ، وجلس إلى النار يصطليها - وقد كان مقرورا[6] وولى ظهره الباب . وجعل رب النزل يخالسه النظر فى الجيئة والذهوب ، والرجل غافل عنه ينكت الأرض بعود فى يده حتى كاد يأتى عليه[7] الجوع فصاح بصاحبه : «أما آن أن إكل وليس هنا من هو أحوج منى إلى الطعام وما لى بد من تناول ما أمسك به النفس ؟» فقال له رب النزل : «إنى ليحزننى أن تنصرف عنى وأنت طاو ، فلقد سبقك إلى شراء ما ترى قوم نزلوا بنا منذ اليوم ، وما منهم إلا من هو أحرص منك على الطعام» فقال الرجل : «لن أبرح الأرض حتى أصيب ما أتبلّغ به ، فلقد سايرت الشمس من شروقها إلى غروبها وقضيت يومى طاويا وما بلغت هذا المكان حتى أدمى السير قدمى ، ومن العجز أن أبتغى عنه حولا» . فقال له صاحبه وهو يحاوره : «لقد بالغت فى محاسنتك كى لا

---

(١) شمخ بأنفه وتكبر .

(٢) ترسم الأثر اقتفاه .

(٣) تبلغ أكل الخبز .

(٤) دلف مشى .

(٥) يقال وسوسة الحلى ووسوسة الدراهم صوتها .

(٦) المقرور الذى أصابه القر وهو البرد .

(٧) أتى عليه أى أهلكه .

أجبهك[1] بالرد ، وكرهت أن أجمع عليك بين مرارة الجوع وغضاضة المنع فأبيت إلا الإصرار فاغرب عنى أيها الرجل ولا تلحف[2] فى السؤال فأنا أعلم بك منك ولو شئت لزدتك فقد زهدنى فيك ما أقرأ عنك فى تلك الرقعة التى تراها بيدى وصاحبها لا تغيب عنه وساوس صدرك وإنك لقريب العهد به ، ذلك رب الدار التى عرجت عليها حين أحلتك المدينة فاذهب غير معقب وحسبك ما سمعت يا جان فالجان» فعالج الرجل الكلام فاستعصى عليه لفرط الدهش ، فأهوى بيده إلى متاعه فاحتمله وخرج يتعثر فى ذيل الخيبة ، وركب الطريق الأكبر ومضى على وجهه يقتاده القضاء والقدر .

ولو أنه نظر وراءه لرأى بباب النزل قوما تكاد تنهبه أبصارهم ، وما منهم إلا من قاف[3] أثره بنظرة من الشك ولكن الرجل لم يلتفت فقلما يسكن البائس الحزين إلى تلك اللفتة التى تريه النحس على عقبيه ، فواصل السير وقد أنساه طريف الحزن تالد التعب ، ولكنه ما لبث أن تنبه فيه هاجع الجوع ، فأشفق أن يدهمه الظلام قبل أن يبلغ مكانا يعصمه من القرة[4] ويذود عنه الطوى ، فما زال يتيامن ويتياسر حتى لمح ضوءا فقصده فإذا هو على باب نزل حقير فوقف أمامه وهو يكبره ، الجوع يدفعه والخوف يمنعه ، حتى صحت عزيمته على الولوج فلما صار بصحن الدار وبصر به ربها ، صاح من الطارق ؟ فقال الرجل ، عابر يطلب قوتا وكنا ، ودخل حيث يسمع الصوت فوجد قوما جلوسا ينتظرون نضج الطعام ، وشم ريح القتار فكادت تثب أحشاؤه إلى القدر ، فقال له صاحبه : «دونك النار فاصطل ريثما ينضج الطعام» . فانتحى ناحيتها وجلس إليها ومد أمامها قدمين أدماهما التعب .

وما كاد يحتويه هذا المكان حتى احتوى الشك من فيه فقد نظروا رجلا ترتسم على وجهه آلام الحياة مطرقا حزينا إذا أمررت عليه النظر إمرارا رأيت فيه سهولة السطيع ، وإذا أدمنته فيه تبينت فيه الجفاء .

---

(١) جبهه بالرد واجهه به .

(٢) ألحف فى السؤال أى ألح .

(٣) قاف بمعنى اقتفى .

(٤) القرة البرد .

وكان بين أولئك الجلوس رجل قد بصر به ضحوة النهار وقد ركب الطريق بين (براسكاس واسكابلون) فرابه أمره حين دنا منه وهو فارس فطلب إليه ذلك البائس أن يردفه لينفس عنه كرب السير فكان جوابه أن استحث جواده هربا من شر تلك الطلعة وقد أراد الله أن يكون ذلك الفارس بين أولئك القوم الذين كانوا بباب النزل الأول وقوفا يشيعون ذلك الطريد بنظرات تقعد همة (الفوتوغرافيا) عن تصوير ما فيها من الاستخفاف والازدراء وبين أولئك الجلوس الذين رابهم أمره في النزل الثاني ، فأومأ إلى رب النزل فلما دنا منه همس في أذنه بكلمات ملأته نفورا من ذلك القادم فانفتل إليه ، وقال له : «ما كان أخلقك بالتحول عن هذا المكان» فأجابه الرجل : «أو قد علمت بحادثة ذلك النزل ؟» قال : «نعم وسنشفعها بأختها» فاستقبل الرجل الباب ولما صار بالطريق إذا هو بصبية يرجمونه بالمدر وقد تعقبوه منذ هبط المدينة ، فخشي أن يصيبه عنت منهم إن هو تغافل عنهم ، فأشار إليهم بعصاه يوهمهم بالأذى ، فنفروا عنه نفور القطا ، فانطلق حتى إذا صار أمام السجن خطر له أن يأوي إليه ليلته وقال لن أجمع على نفسي بين الجوع والسهاد ولقد أراني إلى الراحة أجوع مني إلى الطعام وهذا جو خليق أن يهلكني قره ولن أعدم أن أجد في هذا السجن مكانا يعصمني منه .

فلما تمكن منه هذا الخاطر طرق الباب فقال السجان : «من الطارق؟» قال : «غريب لا مندوحة له عن الالتجاء إلى السجن» قال: «ومتى كان السجن دارا للضيافة ؟ فإن كنت أمسيت وقد أعياك الأمر فهذا باب اقتراف الجرائم لا يزال مفتوحا وهو لا يلبث إن ولجت فيه أن يقتادك إلى هنا» فانصرف الرجل مخذولا وليس وراء ما به من البؤس غاية ، وتغلغل في المدينة فمر في طريق ضيق على عطفيه حديقتان عليهما سياج وفي وسط إحداهما دار صغيرة تعلو الأرض بطبقة ، بإحدى نوافذها سراج يضيء الليل فما هو إلا أن رآه حتى أسرع إليه فلما بلغه نظر من تلك النافذة فإذا رب الدار بين زوجه وولده وهو أهنأ ما يكون بالا ، فقال أستضيفهم فلعلي أن أصادف منهم جانبا رحيما ، ثم خفض من جزعه ونقر بأصبعه على زجاج النافذة نقرة الجبان ، فلم يسر إليهم الصوت ، فخلع عن منكبيه رداء الفزع ونقر نقرة مطمئنة ، فقالت المرأة لزوجها : «كأني أسمع نقراً على زجاج النافذة» فتسمعا جميعا فسرى إليهما الصوت فقام

الرجل إلى السراج فحمله واستقبل الباب ففتحه فأخذ بصره رجلا تذعر منه الأبالسة، فقال رب الدار : «من الذى أرى ؟» قال : «غريب يستضيفك ولك الحكم فى الأجر» ، فقال له وقد دب الشك فيه : «إن كنت ذا مال كما تزعم فهذه الفنادق فما منعك أن تغشاها ؟»، قال: «غشيتها فلم أجد فيها مكانا» فقال له وقد تملكه الشك : «إن ما تقول لشبيه بالباطل وليس هذا بإبان المواسم ، وإنى لأرى رجلا غير ميمون الطلعة ولقد راعنى منك ما يروع المرء من قاتله وكأنى أسمع صوته يقطر منه الدم وأكبر ظنى أنك ذلك الرجل» فقال له : «لا تعجل فى الحكم على ما ليس لك به علم ، فما أنا إلا ابن السبيل قطعت فى يومى اثنى عشر فرسخا وقد أجهدنى الكد وأنصب بدنى التعب وأخذ منى الطوى ، فهل لك فى أن تسعفنى بكسرة من الزاد ولك أجر المحسنين ، فإن لم تفعل ، فشربة من الماء ؟» فقال : «بل شربة من حميم» وأغلق فى وجهه الباب ، فوقف الرجل وقد كاد يأتى عليه اليأس لولا أن بصر فى ضوء الشفق بشىء شبيه بالكوخ فى وسط الحديقة المجاورة لذلك البيت فقال : «ما لهذا الكوخ بد من ساكن ولكنى آتيه فلعلى أجده خاليا فأفنى فيه دولة الظلام وأستجن[1] فيه من ذلك البلاء المتساقط» فقصده فإذا هو وجار[2] لكلب وقد غاب عنه صاحبه ، فانبطح فيه الرجل على وجهه واستحالت عليه الحركة لضيق المكان ، وكان متاعه لا يزال على ظهره ولم تقو يده على إزالته لفرط ما ناله من الأين والنصب ، فلبث قطعا من الليل وليس به حراك حتى إذا أمله حمل ما على ظهره عمد إلى نزعه فأخذ يعالجه بيده ، وإنه ليفعل ذلك إذ فاجأه رب الوجار ، فتسلل الرجل من مكانه وغادره لذلك القادم وأشفق أن يثير غضبه بتثاقله عن الخروج فينشب فيه أنيابه وهو فى ذلك المضيق لا يستطيع دفعا عن نفسه ، وخرج من البستان وهو أشد ما يكون جزعا من الحياة شريدا يطويه البرد وينشره الطوى ، تعذر عليه حتى الوصول إلى السجون وعزت عليه حتى مراقد الكلاب .

---

(١) استجن أى استتر .

(٢) الوجار الجحر .

فلما صار فى الطريق قال : «لقد قصدت الفنادق فذادونى عنها - فالتجأت إلى السجن فكذاك ، فاستضفت الناس فكذاك ، ولقد زهدت فىّ حتى الكلاب ، فليس لى إلا التحول عن هذه المدينة» .

ثم سار مقنع الرأس كاسف البال واستقبل الفضاء وكان ليله بهيما ضرير النجم شديد القر ساقط النواحى متهم الصباح فانطلق حتى إذا بلغ مزرعة حديثة العهد بالحصد رفع رأسه ومد بصره فإذا ظلمات يقصر فيها قاب العين ، وقد زاد فى ظلام الليل ما تلبد فى سمائه من تلك السحب الكثيفة فكانت السماء أشد ظلمة من الأرض . فانقلب الرجل على عقبيه وأم المدينة وكانت ذات سور وأبواب فرأى الأبواب وقد أغلقت فحاول التسور فأعياه الأمر ، فما زال يطوف بالسور حتى عثر على ثغرة فيه فانحدر منها إلى المدينة ، ومضى على وجهه تترامى به الطرقات وتتقاذف به الأزقة حتى مر ببيعة فوجد على بابها مقعداً من الحجر فسقط عليه لا يعى من فرط التعب واضطجع عليه . وما كاد يحتويه ذلك المضجع حتى خرجت من تلك البيعة امرأة صالحة فقالت له وقد رأته ممددا كالجذع : «ما خطبك أيها النائم ؟» فقال لها : «وهل يدعو ما أنا فيه إلى السؤال ألا ترين أنى أنام ؟» فقالت له وقد أخذتها رأفة عليه : «أتفترش الصخر ؟» قال : «مر بى تسعة عشر حولا ولا أفترش غير الأخشاب ، وأنا الليلة أفترش الصخور ولولا أننى صفر اليدين لاكتريت لى مكانا . على أننى طرقت الأبواب فلم أظفر بكريم» فقالت : «هل أدلك على بيت ما طرقه قبلك طارق وجبه بالرد ؟» ، وأشارت له إلى بيت صغير على كثب منه فأخذ الرجل سمته إليه .

* * *

وكان هذا البيت لعابد بمدينة (دينى) وقد أفرد له المؤلف فى صدر الكتاب باب قصره على ذكره ومناقبه ، ومبلغ ما فيه أن الرجل مسماح كريم عفيف الإزار طاهر المهد سريرته فى بياض صحيفته فعال للخير مناع للشر ، وكان يقطن هذا البيت مع أخت له على خلق كريم وهى امرأة نصف لا عجوز شمطاء ولا فتاة هيفاء وكانت لهما خادم من ذوات الأسنان تعد من العمر ستين عاما .

وبينا كان الرجل آخذا طريقه إلى ذلك البيت كانت الخادم تحدث مولاتها :

«لقد هبط المدينة رجل مريب ما رآه أحد إلا وذعر من رؤيته وقد مشى بحديثه الكبير والصغير فورد الأندية وولج الأخبية وأجمع الناس على وجوب التحرز منه حين نظروا فى وجهه سيما الفتك والشرور فلا ينجلى هذا الليل إلا عنّ حادث جلل وها هو يطوف تحت راية الليل فى الأزقة والطرقات حتى إذا عن له صيد أو آنس من أحد غرة وثب عليه فسلبه نفسه ومتاعه ولا آمن ونحن فى هذا البيت أن يصول علينا الذئب صولته ، ولا أظن تهاون العسس فى الأمور إلى هذا الحد إلا لما أمسكه حاكم البلد فى نفسه من الضغينة على رئيس الشرطة ، وما وقره رئيس الشرطة فى صدره من الموجدة على ذلك الحاكم يحاول كلاهما إلقاء تبعة الحوادث على صاحبه ، ولقد وجب على كل من له مسكة من العقل أن يقيم من نفسه حارسا على نفسه حتى تنحسر فترة الشقاق بينهما وأنا غادية إلى السوق لشراء مزلاج[1] لهذا الباب وداعية أحد النجارين لإصلاح عضادته» .

وإنها لتحدثها كذلك إذ دخل سيدها وقد ألمّ بطرف من الحديث ، فنظر إليها نظرة المستطلع ، وسألها سؤال المستخبر : «لقد وعيت طرفا من حديثك فما عسى أن تكون تلك النازلة التى توشك أن تحل بنا ؟» فاندفعت الخادم تحدث مولاها بما تعلمه من أمر ذلك الرجل ، وكلما آنست منه ارتياحا إلى حديثها تغلغلت فى الإغراق واسترسلت فى المغالاة وقالت : «ولقد عود مولاى طراقه على الدخول فى هذا البيت قبل الاستئذان ، وقد علموا منه ذلك فهم يغشونه بالليل والنهار ولا يكلفهم ذلك غير دفع هذا الباب !» وما كادت تنتهى من مقالتها حتى سمعوا طرقا فقال العابد : «أتيت أهلا أيها الطارق» فاندفع الباب بعنف ولاح رجل على عتبة الدار وأخذ يخطو إلى صحنها بقدم مطمئنة وصدر لا يبرحه القلب . وإن عهدنا بهذا القادم لقريب ، فما هو إلا أن تراءى حتى

(١) الترباس عند العامة .

كادت تنقطع نياط قلب الخادم من الهلع ، فهمت بالصياح فخانها الصوت فلبثت فاغرة الفم غائبة الرشد . أما الأخت فقد حفز الخوف أحشاءها حفزا فنظرت إلى أخيها فإذا هو مثلوج الصدر جليد القلب رابط الجأش طلق المحيا ، فثاب إليها رشدها وعاودها السكون ومرت كأن لم تكن تلك الجازعة الهلوع ، وأما ذلك الرجل ، فقد وقف فى صحن الدار وأنشأ يقول :

«إننى مجرم طويت فى السجن رداء شبابى ، وسلخت فيه مائة وثمانين شهراً حتى استوفيت عمر العقاب ، ولم تشرق علىّ شمس الحرية إلا منذ أيام أربعة ، فهبطت تلك المدينة وقد شمر النهار ، فقصدت الفنادق ، فحالت بينى وبينها تلك الورقة الصفراء التى يحملها حديث العهد بمغادرة السجون ، فطرقت الأبواب فلم أصادف رجلا كريما ولا قلبا رحيما . فقلت آوى إلى السجن ، فأنا أقرب الناس عهدا به فنهرنى السجان ، فدلفت إلى وجار كلب فطاردنى حتى طردنى ، فقلت أنطلق إلى الفضاء فأنام تحت حراسة النجوم ، فتقنعت بالسحاب وكأنها عافت النظر إلى تلك الطلعة المنحوسة . وأشفقت من سقوط المطر ، فعدت معقبا إلى المدينة ، ولم أصب من رحمة فى الأرض ولا فى السماء ، فحالت بينى وبينها الأبواب حين بلغتها ، فما زلت أطوف بالسور حتى ظفرت بصدع فيه وانحدرت منه إلى المدينة وهمت على وجهى فى الطرقات حتى مررت ببيعة فإذا على بابها مقعد من الحجر فانطرحت عليه ، وإنى لكذلك إذ مرت بى امرأة من الصالحات فنفضت إليها جملة الحال ، فأرشدتنى إلى هذه الدار ، وها أنذا قد بلغتها . ولقد عودنى الشقاء على أن أجتزئ بالشربة وأكتفى بالكسرة ، فهل أنا مصيب عندكم ما أمسك به النفس ؟ فلقد ظللت يومى طاويا وقطعت اثنى عشر فرسخا وأنا راكب هذين النعلين، فإن فعلتم – وما أظنكم تفعلون – فلكم ما تشاءون من الأجر، فإنى على الدفع قدير !» .

فنظر العابد إلى الخادم ، وقال لها : « هيئى له مكانا على المائدة» ، ثم أخذ يحد البصر على ذلك الرجل ، كمن يحاول أن يستشف ما فى قرارة نفسه ، فمضى الرجل قدما حتى اقترب من السراج وضرب بيده إلى جيبه فانتزع منه تلك الورقة الصفراء (إجازة الإطلاق) وكأنه لم يصدق أذنه لقرب عهدها بسماع غير الذى سمعت ،

فالتفت إلى العابد ، وقال له : «دونك الورقة التى ما صحبتنى إلى مكان إلا سبقنى النحس إليه وإنى لأتلو عليك ما فيها فقد تعلمت القراءة فى مدرسة السجن» . وأخذ يتلوها :

«أنا جان فالجان مجرم أطلق سراحه بعد أن لبث فى السجن تسعة عشر حولا ، قضى خمسة منها قصاصا على السرقة ، وقطع الباقى جزاء معالجته الفرار من السجن مرارا وإنه لفتّاك جسور» .

ثم قال :

«لذلك ترانى ما حللت فى مكان إلا وأنكرنى من فيه وأوجس خيفة منى فياليت شعرى أكذلك تكون معى أم أنت من المحسنين ؟» .

فنظر العبد إلى الخادم وقال لها : «مهّدى له سريرا» وخاطب الرجل قائلا : «نزلت رحبا فاجلس إلى هذه النار واصطل وما هى إلا لحظة حتى يحضر الطعام فإذا فرغت من تناوله أخذت مضجعك فى ذلك السرير» . فصدق الرجل فى هذه المرة أذنيه وأشرقت أسارير وجهه وسرى عنه ما كان فيه من الغم ، وخرج به فرط السرور إلى الهذيان فجعل يقول : «أسرر وحشيّة وغطاء وما لجنبى عهد بها منذ تسعة عشر حولا ؟ ولقد كان قائما بنفسى أن لا أرى منك غير الذى رأيت من أصحاب الفنادق ، فما بالك تبالغ فى محاسنتى كأنى بعض بنى الإنسان ولقد كنت أنهر الساعة كما تنهر الكلاب ، فما أرق شمائلك أيها الرجل فتالله لأضاعفنّ لك الأجر . فيا ترى ما اسم هذا النزل وكم ينبغى أن أدفع ؟» .

فقال العابد : «إن الذى يؤويك لم يكن بنزل كما تزعم ، ولكنه بيت ذلك الذى يخاطبك» فقال الرجل : «لقد خيم الحزن على بصرى فلم ألمح إشارتك التى تحملها ولعلك عابد بتلك البيعة القريبة ، فلا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا ، فأنت حقيق بمؤاساة البؤساء» .

ثم رد الرجل ورقته الصفراء إلى جيبه ، وألقى على الأرض متاعه وأسند إلى الحائط عصاه وانتحى ناحية النار وجعل يقول : «ولا إخالك تكلفنى على ذلك أجرا» . فأجابه صاحبه وهو يحاوره : «لا بل فاحفظ عليك دراهمك فلسنا فى حاجة إلى شىء منها» .

وكره العابد الخوض معه فى مثل هذا الحديث فحول مجراه قائلا : «ولعلك يا سيدى مقرور ، فإن ليلتنا باردة الهواء» فتمشى السرور فى قلب الرجل حينما استأذنت تلك الكلمة على سمعه ، وتنزهت لها روحه من داخل الجسد ، وأصابت منه تلك اللفظة (سيدى) موقع الماء من ذى الغلة الصادى .

ولا يزال المصاب فى شرفه على ظمأ إلى نهلة من موارد الاحترام ، حتى إذا ظفر بها أصبح مبرود الغليل .

وانتقل العابد من حديثه إلى مخاطبة الخادم فقال : «أرى سراجنا مريض الفتيلة ضئيل النور» . فألمت بقصده وأسرعت إلى مخدع نومه وعادت تحمل شمعدانين من فضة ووضعتهما على المائدة .

فقال الرجل للعابد : «لقد أكرمتنى الكرامة كلها وحادثتنى محادثة القرين وجلست معى على بساطة المساواة ، على أنى لم أكتمك شيئًا من أمرى وعندى أن ما فعلت معى لكثير على مثلى» فقال العابد : «لم تكن الدار بدارى ، ولكنها دار للمسيح ولا يسأل هذا الباب داخله كائنًا من كان عن اسمه ، ولكن يسأله عن ألمه وأنت رجل قد أضر بك الألم ونال منك الجوع والظمأ ، فالتجأت إلى تلك الدار وليس لى فى ذلك من فضل ، وإنما الفضل لله فهيا إلى المائدة فقد حضر الطعام» .

فأخذ الرجل عليها مجلسه وجلس إليه العابد يؤاكله ويؤنسه حتى فرغ من أكله وحانت ساعة الانصراف إلى النوم فأخذ بيده إلى المضجع الذى هيأه له ومر فى طريقه على حجرة العابد ، فنظر فيها نظرة ألمت بجميع ما بداخلها وحين بلغ به رب الدار مضجعه حياه وهم بالانصراف ، فتعلق به الرجل ، وزمهر فى وجهه بعينين نمّ إنساناهما عما كان يخفيه فى قرارة نفسه من الغدر ، فقال له وقد شبك ذراعيه ووقف

أمامه وقفة تمشى لها القلوب فى الصدور : «وما يؤمنك أن لا أنالك بسوء وقد جعلتنى بحيث لا يحول بينى وبين الفتك بك حائل ؟» . فأجابه العابد : «ومتى أغنى الحذر عن المرء شيئًا وهذا أمر قد فرغ الله منه ؟» .

ثم غادره وانكفأ إلى مخدعه ولم يلتفت إليه . وبعد أن قضى فيه صلاته تحول عنه إلى البستان وأخذ يطوف فى نواحيه وهو يتأمل فى نظام الفلك وقدرة الصانع ويطلق الفكر فى تلك الأشياء المستسرة فى ضمير الدجى .

أما الرجل فما صدق أن يتوارى عنه حتى أهوى إلى السراج فأطفأه وانطرح على ذلك السرير ، وليس به حراك وغط فى نومه ، وما كاد ينصرم من عمر الليل نصفه حتى انقلب العابد إلى مخدعه وأخذ مضجعه فيه ونام ولم تبق فى هذه الدار عين ولم يأخذ النوم بمعاقد أجفانها . ولما اكتهل الليل أو كاد تيقظ الضيف من نومه !

* * *

وقد آن أن نسطر للقراء تاريخ ذلك الرجل :

كان جان فالجان من أسرة رقيقة الحال تعمل فى الأرض ببلدة (برى) وكان أبوه يشذب الشجر ، ولم تكن له حرفة سواها فتربى هذا البائس فى معهد الجهل، فلم يجلس إلى مؤدب ولا معلم ولم يرتضع بلبان العلوم والمعارف فمر قدما جهولا. ولما يفع ورث عن أبيه تلك الحرفة وكان طويل التفكير عن غير حزن، وفقد أبويه وهو صغير فماتت أمه محمومة ومات على أثرها أبوه .. هوى من رأس شجرة كان يشذبها فدق عنقه ، فاحتضنته أخته وكان لها سبعة من البنين والبنات فلم يزل مكفى المئونة عندها حتى مات زوجها وليس بين ولدها كاسب وأكبرهم يومئذ فى الثامنة من عمره فلم ير جان فالجان بدًا من القيام بمعاش أخته وأولادها فجعل يعمل لبطنه وبطونهم ويكدح فى طلب الرزق وأجره فى أيام موسم حرفته لا يزيد على ثمانية عشر صلديا ، فإذا انقضت تلك الأيام انطلق إلى جماعة الحاصدين فى المزارع فأصاب رزقا له ولأهل بيته . وما زال يكافح الأيام ويناضل البؤس وهو لا تصل يده

إلا إلى ما تدعو إليه الحاجة لحفظ الحياة حتى نزلت بهم سنة من السنين حبس شتاؤها الناس عن الخروج فى طلب وجوه الرزق ، فأملق الرجل إملاقا شديدا ونزلت به الضائقة وحضره العوز ، فأمسوا ذات ليلة ولم يجدوا ما به يتبلغون ، فصاحت تلك السبعة الأطفال من ألم الجوع ، والتصقت بطونهم بالظهور من فرط الطوى . فكبر الأمر على جان فالجان وغادر الدار وخرج هائما على وجهه يطلب لهم ما يقتاتون به فمر بخباز قد أغلق حانوته وتهيأ للنوم فى مخدع له بداخلها، وكان بابها من زجاج وخلفه حواجز من الحديد ينفذ من أثنائها الساعد فوقف أمامه ونظر من زجاج الباب فإذا رغفان الخبز على قيد ذراع منه ، وذكر أمه الغلمة فساقه قائد الاضطرار إلى ارتكاب جريمة السرقة لأجل أن ينتزعهم من مخالب الجوع ، فصدع الزجاج بقبضته وأهوى بيده إلى الخبز. وإنه ليحاول اختلاسه إذ أدركه الخباز وقد تنبه من نومه مذعورا على دوىّ تلك الصدمة . فتخبل الرجل فى أمره وطرح الخبز وأخذ يعدو طلبا للنجاة. وطفق يعدو والخباز على أعقابه حتى لحق به وتعلق بأثوابه وقد خدشه الزجاج فى يده وساعده خدوشا كانت هى الشهود على جريرته ، فسيق إلى المحاكمة ، وكان كلفا بالصيد فى الغابات مدمنا لحمل بارودته ، فلما قبضوا عليه ، وكان محتقبا لها ، شبه لهم أنه بعض خطفة الصيادين وهم قوم قد مقتهم الشعب لوهم دينى رسخ فى عقيدته يلحقهم بقطاع السبيل ، لذلك وفوا هذا البائس قسطه من الأذى وزجوا به فى السجن خمس سنين !

وفى اليوم الذى نودى فيه بنصر ديمونتبوت كان جان فالجان يرسف فى قيوده وقد سلكوه مع رفقة له فى سلسلة طويلة الذراع . ساروا به إلى سجن تولون وقلبه يقطر حزنا على هؤلاء الذين خلفهم بعده لا ترعاهم عين ولا تواسيهم يد ولما وصل إلى السجن ألبسوه ملابس المجرمين ولم يبق له أثر من ماضيه حتى اسمه فقد محته يد الشقاء وأصبح لا يدعى بغير نمرة ٢٤٦٠١ .

ولا يعلم إلا الله ما الذى حل بعده بتلك الأرملة وأولادها وقد خلفهم على مدرجة من سيول الحوادث يعبث الجوع بأحشائهم ويلعب اليأس بأرواحهم وليس لهم من معين ولا نصير وقد ركب كل منهم رأسه وهام على وجهه من فرط الجوع وتغلغل فى ظلمات

هذا الوجود ولحق بمن ابتلعتهم تلك الظلمات من البؤساء وتشتتوا فى البلاد وجر عليهم الدهر ذيل النسيان فنسيهم . حتى ذلك السجين فى سجنه أنساه إياهم كر الغداة ومر العشى ، وتتابع البلاء وتوالى الشقاء ولم يجر على لسانه ذكر أخته فى أيام بؤسه وما ذكرها غير مرة وقد نقل إليه بعضهم طرفا من خبرها بعد أن لبث فى السجن بضع سنين لا يعلم من أمرها شيئا ، نقل إليه أنه رآها بمدينة باريس تساكن البؤس فى دار ولم يبق لها من أولادها غير واحد وقد انقطعت إلى العمل فى إحدى المطابع فنظرها وهى مبكرة إليها وفى يدها ولدها وقد بلغ الرابع من عمره ، وكانت فى دار المطبعة مدرسة للأطفال فأدخلت فيها ذلك اليتيم فهى تغدو به كل يوم إليها وتتركه فى فناء الدار حتى تحين ساعة الدرس ، وكانت تنطلق لمزاولة العمل فى المطبعة قبل هذا الحين بساعة ، فيلبث ذلك اليتيم فى فناء الدار وحيدا فينزوى فى ركن من أركانها وينكمش تحت ذيل الانكسار ، وطالما شاهده من مر به وهو يقضقض من البرد وفى عينيه كسل الكرى وقد تأخذ حارس الباب الشفقة عليه فيدعوه إلى كنه حتى يفتح باب المدرسة .

هذه هى المرة التى سمع فيها بذكر أخته وآلمته ذكرى تلك الأنفس التى كان يحبها ولكنه ما لبث أن عاد إلى حاله من النسيان فقد كان فى قلبه جرح لفراقهم وقد اندمل ذلك الجرح لطول العهد واشتغاله بما هو فيه من العذاب والشقاء .

وما كاد يطوى أجل السنة الرابعة حتى وقف عليه الدور فى الهروب ، فأفلت من السجن وقد أعانه رفاقه على ذلك وكانوا قد تمالأوا فيما بينهم على الفرار بالتعاقب، ولما ظن نفسه ناجيا لبث يومين هائما فى فضاء تلك الحرية الموهومة لا يهتدى إلى سبيل .

ولم يستمرئ ذلك البائس لذة الإطلاق والحرية ، ومتى كان حرا من بات مقلقل الشخص ، مروع العين ، منزعج الضمير ، طاوى الحشا يفرق من الفئ ، ويفزع من لا شئ ، يخيفه الليل تسطو غياهبه فتنسج على بصره غشاوة تمنعه عن التحرز من الواقع فيما عساه أن يكون قد مد له من الشراك ، ويزعجه النهار يغرى بها الرقباء ويهدى إليه العيون ؟ فهو ما مر به طير إلا وفزع ، ولا نبحه كلب إلا وجزع ، ولا دقت

ساعة ولم يدق لها قلبه ، ولا لاح شبح ولم يطر له لبه ، فإذا أغفى سلت عليه سيوفها الأحلام ، وإذا تيقظ راشت إليه سهامها الأوهام.

فما زال يذوب فرقا بين تلك الهواجس والوساوس حتى سلمه ظلام الليل إلى ظلام السجون غرثان ظمآن لم يصب في يوميه كسرة من الخبز ولا شربة من الماء وقد امتدت أعوام سجنه إلى ثمانية بعد خمسة فدخل السجن وثوب شقائه قشيب جديد بعد أن كان خلقا رديما ، وقد كان غادره ولم تبق له فيه إلا سنة واحدة وعاد إليه وقد ولدت له تلك السنة ثلاثا .

وما زال يعالج الهروب فلا يسرح الفرصة إذا عرضت ولا يحجم عن الدور إذا آن، وهو كلما ظن أنه تاج أدركه عثار الجد فرده إلى السجن ومد في أجل بقائه فيه حتى قطع على تلك الحال تسعة عشر حولا .

وخرج من السجن، وهو كالحجر الصلد ، لا تنال منه النوائب ولا تأخذ منه الآلام ، بعد أن كان ذلك الرعديد الهلوع ، دخل فيه وهو بادي اليأس جزوع ، وخرج منه وهو كظيم .

* * *

وما كان جان فالجان خبيثا ولكنه كان فدمًا جهولا على أنه ما لبث أن تلقن في مدرسة الدهر العليا دروسا ألحقته بمصاف الحكماء قام بتهذيبه فيها أساتذة الأيام والليالي فعلمه القيد السكون ، وعلمته الأغلال الصبر كيف يكون ، وأرشده فرع العصا إلى الاستقامة ، وسقاه التعب والنصب مرارة الندامة ، وانتزعت مضاجع الخشب من جنبيه ذلك الطمع ، وصهرت حرارة الشمس ما كان في نفسه من الجشع فجلس إلى نفسه يحاسبها ، وجرد من نفسه حكما على نفسه ، وجعل ينظر إلى ماضيه نظرة الحكيم العاقل ، إلى ضلالة الأحمق الجاهل ، فعلم أنه أتى أمرا نكرا، وأن ما نابه من القصاص لخليق أن يحل به . وقال في نفسه لقد كانت لي مندوحة عن السرقة

فلو أنى سألت الناس هذا الخبز لما أبوا على إعطاءه ، ولو أنى أخذت بالأناة فى الأمر لوجدت لى منصرفا عن ارتكاب هذا العار ، إما بالسؤال وإن كان ذلا ، وإما بالعمل وإن كان عزيزا ، ولكنى تعجلت وكان الأخلق بى أن أعتصم بحبل الصبر.

فمن النزر أن يموت المرء جوعا على أنه ما خلق إلا ليعيش بين السعادة والشقاء، فإن كان نصيبه فى الحياة الألم كان حقيقا باحتماله وإن عظم ، فما كل ألم يكون للموت رائدا .

فلقد عققت نفسى وعققت تلك الأرملة وأولادها وحاولت الفرار من وجه البؤس فواجهت العار ، وإنى وإن زلت بى القدم فلست بأول الخاطئين ، فهذا سبيل كل مضطر عديم ولا أزال أرى أنهم نظروا إلى هذا الجرم من غير وجهه فأكبروا الفعل وأفرطوا فى العقاب وأخذوا جانب شريعتهم فى القصاص ولم يأخذوا جانب المجرم فى الرحمة ونظروا فى ميزان حكمهم إلى كفة الجزاء ولم ينظروا فى كفة العفو عند التوبة .

فلسوف يسألونك عن تلك الحظوظ التى رموا بها فى مجرى النحوس ، وتلك الأنفس التى ألقوا بها فى يد البؤس والشقاء .

وإنى لا أرى مقارنة بين الضرر الذى لحق بصاحب الخبز وبين الضرر الذى نزل بى من وراء ذلك الحكم ، فإنه وإن لم يأت من طريق الظلم فقد جاء من طريق القسوة والإفراط .

وكان جان فالجان يحاكم نفسه وهو واجد على تلك الهيئة الحاكمة وقد أخرجه حنقه عن حد الرشد ، ولقد يكون الحنق جنونا .

وما ظنك أيها القارئ برجل لم يصب من ذلك المجتمع الإنسانى خيرا ولم يأنس منه غير هذا الوجه العبوس الذى كان يكمن فى أثناء ذلك العدل الموهوم ؟ فهو ما دنا منه دان إلا ليدنى إليه أذاه ولامسه إنسان إلا ليمسه منه الضر ، ولا طرقت أذنه بعد موت أبويه كلمة تستروح منها روائح الرفق ولا وقع عليه نظر تمازجه الرحمة .

فما زالت تهادى به الخطوب وتقاذف به الآلام وهو يتململ على سيال البلوى حتى أيـقن أن الحياة حرب وأنه وحده هو المهـزوم فيها ، وأن ليس ما يعـتد به من السلاح غير ما أمسكه فى نفسه من الحقد على العالم بأسره ، فهو سلاحه الذى أعده لمنـاوأة الأيام ومنـازلة الأنام وكان يشحذه فى أيام سجنه ويبالغ فى الحرص عليه، وقد رأى أن قوة ذلك السلاح لا تكـون إلا فى قـوة الذكاء ، فعمد إلى الدخول فى مدرسة السجن وقد تفتق العلـوم بعض الأذهـان إلى استنباط وسائل الأذى وطرق الانتقام.

وبعد أن فـرغ من الحكـم على نفـسه وعلى العالم بأسره انتقل إلى الحكم على تلك القوة التى دفعت هذا العالم إلى فعل الشر وكـان بقاؤه فى السـجن تلك المدة الطويلة وهو يرزح تحت أثقال الهمـوم يسمو بنفسه آنا إلى السماء ويهبط بها آنا إلى الأرض، فيرى عن يمينه نور اليقين وعن يساره ظلام الشك . ولم يكن ذلك الرجـل خبيـثا عند دخوله إلى السجن ولكنه أحس بسريان الخبث فى نفسه حين جلس للحكم على هيئة العالم وشعر بدبيب الكفر فى قلبه حين جلس للحكم على تلك القوة السماوية .

وهنـا يجب أن يقف بنا التـأمل برهة ونتـسـاءل : هـل يدخل فى باب الإمكان أن يخرج الإنسـان من طباعه دفعة واحدة ، فيخالف غريزته ويناقض نحيزته ، ويتحول عن جبلته وينزع عن سجيته .

وهل لبنى البشر سلطان على النفوس يحولها عن الفطرة التى جبلت عليها، فيرد منها إلى الخيانة ما فطر منها على الطيبة .

وهل يرتبط شـقاء الحظوظ وعثـار الجدود بفسـاد النفـوس فإذا حـمق حظ المرء، ولجّ به عثار جده خبثت نفسه وساءت فعاله .

وهل يخضع القلب لسلطان الحوادث خضـوع الأعضـاء فندعـوه إلى الانكمـاش أمامها كما يدعو العبء الثقيل الظهور إلى الانحناء ، وهل لا يوجد فى نفوس البشر نور سماوى لا يذهب بسنائه الشك ولا تطمسه الضلالة ، فيبقى ساطعا فى تلك النفوس يلوح منه نور اليقين وتنبعث منه أشعة الهدى .

تلك أسئلة يدرك الحكماء عندها الحصر ويعجز الباحث فى علم الأعضاء عن الإجابة على أخيرها ، فلو أنه نظر جان فالجان وهو فى سجن تولون ، وقد وافت ساعة الراحة من عناء الأشغال ، فانتقل من ألم الجسم إلى ألم الفكر لرأى رجلا يقطر حزنا ويذوب كمدا ، يزدهيه الصمت ويغوص به الفكر فى بحار من التأمل ، أنشبت فيه الشرائع أظفار الظلم فجعل ينظر إلى العالم بعين الحقد والحرد ، وأخرجته المدنية عن حد الرحمة فجعل ينظر إلى السماء بعين السخط.

ورأى مريضا داؤه فى النفس لا فى الجسد ، وقدعز عليه الشفاء . ولوقف عمله عند حد التوجع له ، ولصرف نظره عن تلك القروح التى تسكن فى هذه النفس المجروحة بسهم الشرائع الجائرة .

ولرأى رأى ذلك الفيلسوف (دانتى) فعمد إلى محو كلمة الأمل التى رسمتها يد القدر على جباه البشر .

ويا ليت شعرى أكان يحس ذلك البائس بذلك الوجدان الذى نحس به له ، وهل سمت مداركه إلى معرفة كنه ذلك الشقاء الذى أتيح له .

ولما حانت ساعة إطلاقه من القيود ورن فى أذنه قولهم له إنك حر منذ اليوم ، دبت فى نفسه الحياة وشعر بأشعة من الأمل تمحو من ظلام ذلك اليأس الذى سكن فى نفسه منذ تسعة عشر حولا ، ولكنه ما لبث أن عاودته نزوات الألم حين علم أن إطلاقه سيكون مشفوعا بتلك الورقة الصفراء وانقبض لتلك الجولة من الفكر وجه أمله ، وأيقن أنه لا زال فى قيد لا تصل يده إلى صدعه ، وأن هذا الحكم قد وكل به زبانية من العذاب، فهو فى أسر السجون مثله فى تلك الحرية الموهومة لا تزال تكلؤه عين البؤس والشقاء .

وأخذ يفكر بعد ذلك فى الثروة التى جمعها أيام محنته مما كان يصيبه من الأجور على عمله فى السجون ، فظن أنه أصبح ربا لثلثمائة وثلاثين غرشا ونسى أن أيام العطلة من كل أحد وما يلتحق بها من أيام المواسم قد قرضت من رأس ماله ستة وتسعين غرشا فلم يطرح من حسابه ذلك القدر العظيم ، ولا تسل عما حل بنفسه من الجزع حين ألم بهذا الخسار وذلك الغبن المبين .

وفى اليوم التالى ليوم تسريحه من السجن مر بمدينة (كراس) على معمل للزهور به قوم يعملون وكانوا فى فقر إلى المعونة لعدم الفسحة فى الوقت وطلب سرعة الإنجاز فى العمل فعرض على رب المعمل نفسه فألحقه بأولئك العملة .

وكان جان فالجان لا يعرف التعب ولا يأنف الملال فعكف يعمل بخبرة ومهارة وسأل فى أثناء ذلك عن الأجر الذى يصيبه العامل فى يومه فقالوا له ثلاثون صلديا ، ولكن رب المعلم لم ينقده على عمله غير النصف حين علم أنه يحمل تلك الورقة الصفراء.

فقال جان فالجان فى نفسه تلك هى الخطوة الأولى فى سبيل هذه الحياة الجديدة ، وهذا كله ببركة تلك الورقة الصفراء ، فلعنة الله على كل ذى لون أصفر غير الذهب لأنى وإن كنت قد نجوت من السجن فلا أظن نفسى ناجيا من جور ذلك الحكم .

هذا ما حل به من الغبن فى مدينة كراس ، ولم ينس القارئ ما أصابه فى مدينة دينى .

* * *

ولما كان السحر تيقظ الضيف من نومه ، أيقظه لين الفراش ونعومة الملمس ، وقطع غراره ذلك السرير الذى لم يكن له به عهد منذ عشرين حولا وقد حن جنباه إلى مضاجع الخشب واشتاق رأسه تلك الوسادة من القش وكان قد هجع ثلثا من الليل فسرى عنه التعب فهب وقد عاوده النشاط وكانت عادته أن لا يهجع إلا قطعا من الليل فلما تنبه أخذ ينظر يمنة ثم يسرة ثم أهوى رأسه إلى الوسادة وجعل يعالج النوم من جديد .

ومن قضى يومه بين الألم والاضطراب ثم أخذ مضجعه بعد ذلك كان النوم إلى الحلول بمقلته أسرع منه إلى سواه ، ولكنه إذا تيقظ فلما يجد النوم إلى عينه سبيلا .

كذلك كان جان فالجان، فقد استعصى عليه النوم وأدركه الأرق وانتابته الهواجس والأفكار وجعل ينتقل به سيال الفكر من مكان إلى مكان وقد مرت أمامه تلك الحوادث الغابرة مرور الصور المتحركة ، وهو كلما نزلت برأسه فكرة أدركتها على الأثر أختها فلا تفتأ تطاردها حتى تغلبها على مكانها ، فما زال رأسه مسرحا لسوائح الأفكار وميدانا لسوابق الأوهام حتى نزل به فكر فألقى فيه عصا التسيار وأقسم لا يبرح أرجاءه وكان مبعثه من تلك الأواني الفضية التي لمحها ذلك الشقي على مائدة العابد عند تناول العشاء ، ولمح الخادم وهي تضعها في أحد الأركان من مخدع نومه على مقربة من سريره .

فسولت له نفسه أن يذهب بها وقد قومها بضعف ما كان يمتلكه يومئذ من المال وكلما حاول أن يثني عنانه عن ركوب طريق العار أبى طمعه ألا يقف به على رأس ذلك الطريق فلبث ساعة وهو يحارب تلك العزيمة ويكافح شيطان هذه النفس الخبيثة ، حتى تغلب عليه الطمع وزين له الشيطان اختلاس تلك الأواني فثار من مرقده وهم بمزاولة ذلك العمل .

ثم عاوده التردد فجلس على سريره وهو من نفسه في حرب عوان ومد يده فتحسس متاعه والتمسه في الظلام فمسح عليه بيده وقد كان على قيد ذراع منه . ومن رآه وهو على هذه الحال في جوف تلك الحجرة تحت أستار ذلك الظلام رأى رجلا خرج به فرط التأمل عن حد الشعور بما حوله وقرأ على وجهه سطورا من الشؤم رسمتها عليه يد الشر الذي كان يجول في نفسه .

ولولا أن دقت ساعة الحائط فانتشلته من قرار تلك اللجة التي نزل إلى قاعها غواص الفكر ، للبث كذلك حتى الصباح .

فثار من مكانه وخلع نعليه وكان لم يخلعهما عند النوم والتمس عصاه واحتقب متاعه وتهيأ للعمل وأخذ سمته إلى مخدع العابد وعلق أنفاسه وأخرس صوت أقدامه ومشى على أطراف أصابعه حتى إذا بلغ الباب تسمع فلم يسمع شيئا فدفعه بطرف البنان وهو أشد ما يكون احتراسا كأنه هرة تحاول غشيان ذلك المكان فلان له الباب ودار على عقبه بحركة لم يسر إلى السمع صوت لها .

فلبث غير بعيد ودفعه دفعة ثانية كان فيها أشد جرأة منه فى الأولى فازداد لينا حتى فتح له طريقا يسع مروره لولا منضدة من الخشب كانت معرضة فيه، قد دعته إلى طلب الزيادة فى انفراجه .

فألم جان فالجان بحرج الموقف ولم ير بدا من الإقدام فدفع الباب مرة ثالثة أشد من أختها وكان الباب على ظمأ إلى قطرات من الزيت ، فصر لتلك الصدمة صريرا، دوى له فى هذه الظلمة صوت خافت فاحتوته الرعدة وكادت تقف ضربات قلبه من الهلع ولبث كمن أخذته الصيحة وقد نفخ فى الصور ، ومثل له الفزع ذلك الباب وقد تحول إلى كلب عقور رابه سواد مقبل فجعل ينبح نبيحا يكفى لإيقاظ أهل الكهف ، فكيف بأهل ذلك البيت ، وظن أنه لا محالة هالك ، وخال عروقه وهى تنبض فى صفحتيه مطارق تطرق الحديد وأن أنفاسه تصفر تصفير الرياح فى بطون الكهوف والمغاور، وأن ذلك الباب قد زلزل الأرض زلزالها فزعزع أركان المنزل وأن هذا الصوت النكير قد أنذر الناس بالكبسة ، فما هو إلا أن يتنبه العابد وهاتان المرأتان حتى يقع فى قبضة العسس فيعيدوه إلى سيرته الأولى .

ولبث حيث كان لا يقدر على الحركة وهو كأنه بعض الأنصاب حتى سكت عنه الروع ورأى الأمر أيسر مما كان فى نفسه فمد بصره داخل الحجرة ، فإذا العابد يغط فى نومه ، وأصغى بأذنيه ، فإذا الدار فى سكون الرموس .

فخفض من جزعه ودعا إليه الإقدام وخطا خطوة فإذا هو داخل الحجرة فجعل ينقل أقدامه باحتراس كراهة أن يصطدم بشىء من الأثاث . وإنه ليختلس الخطى إذ برز القمر من وراء غمامة كانت تغشاه ورمى جرمه على تلك الحجرة فأثارها فنظر جان فالجان نفسه على قيد شبر من سرير ذلك النائم .

وكأن الطبيعة لم تزحزح هذا النقاب عن وجه القمر فى تلك القشرة إلا لتوضح لعيون الكون عمل ذلك الجانى لعله يذكر أو يخشى فلقد كان القمر منذ زمن لا يتعدى شطر الساعة مقنعا بغمامة سوداء وقد انجلت عنه فى اللحظة التى أوشك فيها أن يعثر هذا الشقى بأعواد السرير .

ومن رأى ذلك المضطجع على فراشه ، رأى رجلا قد قام على رأسه حارسان من المهابة والجلال يتألق فى وجهه نور اليقين ويجول فى محياه ماء البشر وترتسم على وجهه آيات الرضا والقبول ، وتكتسى شفتاه بابتسامة الأمل الفسيح ، ويتأرج من أردانه ريح التواكل .

وقد راع هذا الواقف جلال ذلك الموقف فجعل ينظر بعين الإكبار إلى ذلك الجسد الذى سكن فيه التقى ، وتلك الروح التى باتت تسنح فى عالم الأسرار وتسبح فى ذلك الملكوت السماوى .

وكانت لله مشيئة فى ذلك الراقد ، فقد أفاض عليه من أنوار الهدى ومنحه من آيات المهابة والجلال ما جعله مهيبا فى اليقظة والمنام لذلك كان جان فالجان وهو مقيد فى مكانه يقيد من الخشية ينظر إليه وقد تمشت العظة فى نفسه وامتلأت عينه جمالا وأفعم صدره جلالا .

ولا يعلم إلا الله ما كان يمتزج بأجزاء نفسه من الانفعال وهو يدمن النظر إلى ذلك الراقد الذى تنتشر على وجهه طبقة من النور السماوى تمازجها نفثة من الروح الإلهى الذى أنار الله به بصيرته وأضاء سريرته فتلألأ فى وجهه ، والوجه مرآة الضمير .

وزادت بهجة البدر فى بهجة ذلك النائم فكان يراه جان فالجان فى نور فوق نور ولم يزل واقفا فى مكانه ولم يحول بصره عنه ، وما شك من رآه فى أنه يتردد بين أن يهوى بعصاه إلى تلك الجمجمة فيشجها أو يهوى بفمه إلى تلك اليد فيقبلها .

كل ذلك والعابد غارق فى نوم لم تقطعه عليه تلك النظرات المريبة حتى حانت من جان فالجان التفاتة فرأى الصليب وهو باسط ذراعيه وكأنه يومئ إلى أحدهما بالوقاية وإلى الثانى بالمغفرة ، فأغرته تلك اللفتة إلى الإسراع فى العمل .

فاندفع يمشى إلى الأمام حتى وقف عند تلك الأوانى الفضية وهى فى سفطها فتناوله ورجع أدراجه ومر بجانب السرير بقدم مطمئنة وجأش رابط ، حتى إذا جاوز

الباب انحدر إلى الحديقة فألقى بالسقط على الأرض بعد أن نقل إلى خرجه ما كان فيه وتسور الحائط ونجا بنفسه وخرج مع البازى عليه سواد .

ولما توفى الليل هب العابد من نومه وخرج يجول فى حديقته وكانت تلك عادته عند كل صباح فلمح الخادم وهى تهرول إليه وتنادى : « أيعلم مولاى تولى الله حراسته أين سفط الأوانى الفضية ؟» .

فأشار العابد إليه وكان مطروحا على مقربة منه ، وقال لها : « أليس هو هذا ؟». قالت : « كأنه هو ولكن أين أوانيه ؟ » . قال : «هذا ما لست أدرى» . فصاحت الخادم : « كان الذى خفت أن يكون فلقد فقدت تلك الأوانى وأكبر ظنى أن ذلك الرجل الذى غشينا بالأمس هو الذى ذهب بها » .

ثم طفقت تجرى إلى حجرة الرجل وعادت على الأثر وهى تقول : «نعم ذهب بها فلا بورك له فيها» ، ولاحت منها التفاتة فرأت آثار أقدامه مطبوعة على أرض البستان ، فجعلت تترسمها بالنظر حتى انتهت بها إلى إحدى زواياه فشاهدت آثار تسلقه على الحائط ، فقالت : « من هنا أخذ طريقه ومن هنا ظهر الحائط » .

وما زالت تبدى وتعيد وسيدها صامت اللسان وما زاد على أن قال : « ومتى كنا نحن أصحابا لتلك الأوانى ؟ ألم تكن هى من نصيب الفقراء وقد حبسناها عنهم ؟ ولقد أصاب الرجل فى فعلته فإن هو إلا بعضهم وقد وقف به نصيبه عليها، فلا تجزعى فليس فى الأمر ما يدعو إلى الجزع وهذه أوانى القصدير أو صحاف الخزف تكفينا مؤنة الأسف على ضياعها » .

ثم غادرها وانكفأ إلى حجرته وما كادت تحتويه حتى سمع طرقا على الباب ، فقال : « أتيت أهلا أيها الطارق » فانفتح الباب وظهر على عتبة الدار ثلاثة من الرجال قد أخذوا بخناق رابع بينهم !

فمد العابد بصره فإذا ثلاثتهم من الجند وإذا صاحبه بالأمس يكاد يذوب بينهم فرقا .

فقال لصاحبه وقد هبت من شمائله روائح الكرم : « لقد نسيت عند انصرافك عنا أن تقرن هـذين الشمعدانين إلى تلك الأوانى الفضية، وأنت تعلم أنك ربهما منذ الأمس، وما أنساك أن تذكرهما إلا شيطان العجـلة ، فخذهما فلعـلك أن تصـيب من ثمنهما ما تصلح به من شأنك !» .

ثم التفت إلى الجند، وقال لهم: «لقد آذيتمونى فى ضيفى. إنه خير مما تظنون».

والتفت بعدها إلى صاحبه ، فقال له والبشر يجول فى محياه : « إذا شئت زيارتنا منذ اليوم ، فلا تجعل طريقك على البستان فإن لك لمندوحة عن احتمال مشاق الصعود والهبوط ، وهذا بابنا لا يغلق فى وجه الطارق ، وما هى إلا أن تدفع الباب حتى تكون فى وسط الدار » . ولما تم انصراف القوم ، قال له : « لقد جعلت لى عهد الله أن تنفق ما أخذت فى رياضة نفسك على البر والتقوى فلا تنكث مع الله عهدك » . فلبث الرجل مبهوتا عند سماع ذكريات ذلك العهد الذى لم يأخذ على نفسه القيام به فقال له العابد: « اعلم أننى اشتريت نفسك بعد أن سللتها من يد الهلاك ثم وهبتها الله فلا تكن عليها من المسرفين » .

وخرج الرجل من المدينة كمن يحاول الفرار ومضى على وجهه تقاذف به الطرقات وتهادى به الحقول ولا يشعر لفرط ما نزل به أكان يقبل أو يدبر ولا يعلم أنه كان يضرب فى قطعة من الأرض لا يتعداها .

* * *

وهكذا قضى سراة يومه فى أودية التيه والضلال ولم يشعر بألم الجوع وإن كان لم يذق طعاما ، فسار وهو يكاد ينشق غيظا ولا يعلم إلا الله على أى شىء قد أمسك هذا الغيظ فى نفسه ولعله سرى إليه من ندامته على ماضيه أو من خذلانه فى حاضره. وكأنه كان يحس برقة قد أدركت فواده وأخذت تقرض من أطراف غلظته فتضعضع ذلك الظلم الغابر وأيدها فيه هذا الجد العاثر. وجعل يتساءل فى كل آن ما عساه أن يحل محلها ويؤثر العودة إلى السجون على البقاء على تلك الحال التى لا يعلم مأتاها .

كان على عطفى طريقه سياج تطل منها زهور قد أخطاتها أيدى الجناة فجعلت تهيج فيه ذكرى الصبا كلما تنسم منها ذلك الأرج الفياح الذى لم يكن له عهد به منذ ابتدأت أيام محنته .

وقد بلغت من نفسه تك الذكرى ما لم يبلغه البؤس والشقاء وكذلك قضى يومه على غير استواء .

ولما كان الأصيل وقد رسمت الشمس على سطح الأرض ظلال الحصى كان جان فالجان مضطجعًا فى جوف خضراء ليس فيها سواه وقد مر برأسها طريق معبد ينتهى بمدينة (دينى) تلك التى لاقى فيها صنوف الشقاء .

وأنه يفكر فى أمره وفى تلك الأسمال التى كانت مثار النفور لكل من يراه إذ أحس بوقع أقدام ، فاستوى جالسا فإذا هو يرى سوادا مقبلا فتبينه فإذا هو غلام يعد من العمر اثنتى عشرة سنة وهو يحتقب جرة له ويحمل حيوانا صغيرا جعله وسيلة لرزقه ، وقد شهد ما كان عليه من الأطمار البالية بعراقته فى الفاقة ، وهو يغنى بصوت رخيم ، ويلاعب الجو بقطع من الفضة كانت مبلغ ثروته فى حياته .

فإنه ليلهو بقذفها فى الجو والتقاطها إذ هوت كبراها إلى الأرض وأخذت تجرى على رأسها إلى حيث كان جان فالجان مستترا عن نظر ذلك الغلام خلف تلك العوأسج .

فما هى إلا انتهت إليه حتى كان أسرع من السهم فى ممره إلى الأرض وضع قدمه عليها ليحجبها عن نظر ربها الذى كان يحرص عليها حرص الموت على النفوس، ويترسم أثرها بنظر يكاد ينهبها وهى تجرى على الأرض نهبا .

ولما علم بمقرها وثب إليه فإذا هو يرى عنده رجلا ، فلم يأخذه الروع ولم يعتره الدهش .

وكان الطريق إذ ذاك خاليا من المارة ولا يسمع فى هذا الجو الفسيح إلا قطقطة[1] سرب من القطا يسبح فى الجو على قيد مرمى السهم .

---

(١) صوت لطير القطا .

فوقف الغلام في وجه الرجل وقد ألقى الشرق[1] في شعر رأسه سلوكا ذهبية ونشر على سحنة ذلك الفاتك طبقة تعلوها حمرة النجيع[2] ، وقال له بصوت يمازجه ارتياح الغلمة وسكينة الأبرياء: أين قطعتي؟ فمد الرجل بصره إليه وقال: «من أنت ؟» قال : «أنا (فرجي) الصغير» .

فانتهره الرجل ونكس رأسه وتصامم عن سماع كلامه وأخذ الأول يلحف في السؤال والثاني يبالغ في السكوت حتى ضاق الغلام ذرعا وأهوى إلى ذلك الشيخ وأخذ بمجامع طوقه وجعل يعالج تحويل قدمه عن تلك القطعة الفضية .

فزمهر الرجل في وجهه ، ومد يده ليتلمس عصاه ، فأثارت تلك الحركة نخوة الغلام فأغلظ في القول حتى أحفظ[3] ذلك الشيخ فثار من مكانه وإهابه يكاد يتمزق غيظا وصاح به : أن لم تنج بنفسك فلا نجوت بها بعد اليوم ! ».

فارتاع الغلام لوعيد ذلك الفاتك وأطلق للريح ساقيه وجعل يعدو ولا يلوي على شيء حتى غاب سواده وقد غابت الشمس .

ولبث الرجل في مكانه حتى سطت عليه غياهب الظلام وهو غائص في لجج من الأفكار وكأنه كان ينظر إلى أصل شجرة كانت هناك وقد وقف نظره عليها ولم يتحول، ولولا قشعريرة سرت إلى جسمه من قرة ذلك المساء لما عاد إلى نفسه من غيبوبة هذا الفكر الطويل ولما أحس بوخز القر ، هم بالتحول عن هذا المكان فأصلح عليه أثوابه وانحنى ليأخذ عصاه ، فأخذ نظره تلك القطعة الفضية وقد كادت تسوخ في الأرض فاحتوته الهزة وجعل يغمغم ويهذي وكأن أجفانه قد شدت إلى تلك القطعة بأهدابها وكأنما هي ترميه بنظرات تخترق أحشاءه .

ومرت عليه فترة وهو على تلك الحال ثم أخذ يغالب اضطرابه حتى ثاب إليه السكون فاندفع إلى الأمام وانقض عليها انقضاض القضاء .

---

(١) بمعنى الشمس .

(٢) بمعنى الدم .

(٣) أغضب .

ولما صارت فى يده أخذ يستقرئ بنظره ذلك الفضاء ويدور بعينه فى أرجائه وما شك من رآه وهو على تلك الحال فى أنه ضار من الوحش يلتمس مريضا يستكن فيه على أنه ما كان يرى فى تلك الأنحاء إلا ضبابا قد أعاره الشفق لونه الوردى وقد مد الظلام على الأرض رواقا يقصر فيه قاب العين .

فشرع فى السرى وقد لبس الدجى وتغلغل فى هذا الفضاء وطفق يهرول فى مشيته وركب تلك الطريق التى نجا منها ذلك الغلام المغبون وما هو إلا أن خطا فيها بعض الخطوات حتى وقف بغتة ورفع عقيرته ينادى باسم ذلك الغلام رجاء أن يسمعه فينقلب إليه ، وكان يتسمع فلا يسمع شيئا فما زال يعدو ويصيح وقد ابتلع هذا الظلام شخصه ومزق ذلك السكون صوته حتى يئس من لحاقه .

ولو كان الغلام حيث يسمع ذلك الصوت النكير لما سكن إلى إجابته ولضاعف من عدوه وبالغ فى اختفائه طلبا للنجاة من غائلته .

وإن اليأس لينهب فؤاده نهبا إذ بصر بشبح يخوض فى أحشاء هذا الليل البهيم، فداناه فإذا به رجل يحمل شارة الرهبان وقد امتطى جوادا ، فاستوقفه وسأله بلهفة الحائر « ألم تعثر فى طريقك أيها الراهب بغلام صغير ؟ » فقال : « كلا » قال الرجل : «إنى أنشد غلاما فقيرا وأحسبه يدعى فرجى» قال : «لم أر أحدا» فضرب الرجل بيده إلى جيبه وانتزع منه قطعتين من الفضة وقال للراهب : «خذ هاتين وأنفقهما فى سبيل الله وفى مواساة ذوى المتربة وإننى أدعوك بالله أن تقودنى إلى السجن فأنا بعض المجرمين» فما كادت تستأذن هذه الكلمات على سمع الراهب حتى همز جواده فمر به مرور الطيف وغادر ذلك البائس فى مكانه وهو كأنه بعض الأنصاب. فلم تكن إلا لحظة حتى استأنف السرى وطفق يعدو ويصيح كأنه خولط فى عقله وجعل كلما مر بجذع أو شجرة مثل له الوهم أنه يرى إنسانا جاثما أو واقفا فيعطف عليه عقله عطفة المستخبر عن ذلك الغلام .

كذلك كانت حاله حتى بلغ مكانا تلتقى عنده سبل ثلاث وقد درج القمر من حجر أمه . فجعل يدعو باسم الغلام وصوته يذهب فى هذا الفضاء وقد انقطع عن إجابته كل شىء حتى الصدى فعجز عن التماسك وانحلت عزائمه وقد ناء به كلكل الفضاء فسقط على حجر هناك وقال وهو مكب برأسه على ركبتيه : « أشهد أنى بائس » !

وجال الدمع فى عينين لم يسبح إنسانهما فيه منذ عشرين عاما ، وكأنه كان ينبع من ذلك القلب الذى صدعته الخطوب .

* * *

خرج هذا الرجل من عند العابد وقد علمنا ما كان من أمره وأنه لم يكن له من نفسه ما يحاسبه على عمله .

فما وجدت العظات إلى قلبه سبيلا ، ولا كان لتلك الأخلاق الفاضلة سلطان على أخلاقه ، ولا وصل ذلك القول الكريم إلى فؤاده ، ولا ظفرت حكمة العابد بعلاج تلك النفس التى نفرت من الهدى نفارها من طبائع الأبرار ، وتحصنت فى معقل من الضلال لا تبلغه العظة، ولا تعمل فيه الزواجر وكانت رنة تلك العظات لا تزال تفتق طبلتى أذنيه. فى نفسه منها ما يقع ، فيبالغ فى صدها ، وتبالغ فى كيده ، حتى أوشكت أن تأتى على قوة الشر فيه ، وتستل من قرارة نفسه ذلك الحقد الكمين .

وقد بدأ يشعر فى هذه المرة بأن صفح العابد عن زلته كان طليعة لكتائب المقادير التى خذل أمامها عناده ، وأنه ليجنى على نفسه إن هو أبى إلا الإصرار على ذلك العناد والحفاظ والتمسيك لذلك الحقد الذى وقره فى صدره على جنس البشر ، وقد وجب عليه أن يخرج من تلك الحرب إما قاهرا أو مقهورا ، تلك الحرب التى قامت بين نفسين اتخذت من تقوى الله جندها ونفس جعلت حزب الشيطان حزبها .

ولما تعذر عليه المخرج وضاق به الأمر ثار من مكانه وأخذ يسرى على ضوء ذلك النور الذى أوشك أن ينير سريرته . ويا ليت شعرى هل كانت تعاوده إذ ذاك ذكرى تلك الليلة التى قضاها فى مدينة (دينى) وهل كان يسمع صوت ذلك الهاتف السماوى الذى بات ينذره بعقباه ويوكل له الخيار بين خلتين: إما نزوع عن الغواية فسمو إلى مقام الأبرار، وإما استرسال فى الضلالة فهبوط إلى قرار الفجار، ويوضح له سبيل الحياة بين أمرين: إما سعادة ذلك العابد ، وإما بؤس خير منه بؤس المصفد فى قاع السجون وسبيله فى الأولى أن يحلل بحرارة التوبة ما علق بأجزاء نفسه من بقايا ذلك الشر فيصبح ملكا نقيا ، وفى الثانية أن يلونها بحمأة الغى والضلال فيمسى طريدا شقيا .

* * *

وهنا نفتح المجال لتلك الأسئلة التى عرضناها على القارئ منذ العهد القريب ولا زلنا نقول إن الخطوب تفتق الأذهان ولكنا لا نعلم علم اليقين أكان لها أثر حتى اليوم فى فؤاد ذلك الرجل ولعلها كانت تحضره حين اضطرابه فتزيده حيرة وخبالا.

فلقد أحدث فى نفسه صنع الجميل على أثر خروجه من السجن وقرب عهده بالشقاء ما يحدثه الضوء الباهر وقد قرع عينا حديثة العهد بحالك الظالم.

ولما تجلت له تلك الحياة الجديدة فى أعلى مجاليها وتراءى له آتيها يرفل فى ثياب البهجة والبهاء، أزعجه ذلك المرأى فلم يستطع عليه صبرا وقد بهر نور الفضيلة ذلك البائس فرد منه الطرف وهو كليل.

وما كان جان فالجان اليوم هو ذلك الغصوب الذى سلب الغلام قطعته بالأمس وغلبه على أمره ولا هو بصاحب تلك الفعلة الشنعاء.

وإنما صاحبها هو ذلك الحيوان المفترس الذى دفعته الفطرة الوحشية إلى ارتكابها بينما كانت نفسه تسبح فى سماء الحياة الجديدة التى أكبرتها.

فلقد فعل بالغلام ما فعل مسوقا بقوة الشر التى مزجتها بأجزاء نفسه مخالطته للأشرار فى أيام سجنه ولا يدرى أغيا كان يفعل أم رشادا.

وحين أنست عينه بذلك النور وسكنت نفسه إلى صحبة التقى وردت إلى طبعها رد الحسام إلى قرابه علم أنه أتى عظيما وارتكب جسيما فكادت تتزايل أعضاؤه رهبة وتسيل نفسه جزعا.

وفعلت به تلك الصدمة فعلها ومزقت ذلك الغشاء الذى نسجته على بصيرته أيدى الخطوب، وفصلت فى نفسه بين الحق والباطل فعلت بالأول وسفلت بالثانى كأنها ذلك الجوهر الكشاف الذى يلقى به فى المزيج ليباعد بين أجزائه فتراه وهو يطفو ببعضها ويرسب ببعضها الآخر.

وقبل أن يلم بما ألم به أو يدرك مأتى تلك الحال التى وصل إليها طفق يجرى خلف ذلك الغلام ليرد إليه ما سلبه إياه حتى إذا يئس من لحاقه وقف ينظر إلى ماضيه فأنكرت نفسه نفسه.

أنكرت نفسه الجديدة تلك النفس التى صحبته منذ عشرين عاما ، وشبه له أنه فى عالم الأحلام ، وأنه يرى أمامه طيفا يمثل له إنسانا قد نحست طلعته ولؤمت غريزته وخبثت طينته ، قد قبض بيده على عصا وحمل على ظهره حقيبة السلب وقد كتبت يد البؤس على جبينه ذلك الاسم الممقوت (جان فالجان) .

وخرج به هول ذلك الموقف عن حد الإدراك فرسخ فى نفسه أنه يرى ذلك الشبح رأى العين وأنه يرى أمامه (جان فالجان) فجعل يقارن بينه وبين ما يرى وكأنه ينظر فى مرآة قد رق ماؤها .

وإنه ليجرع كأس الغضاضة من يد تلك المقارنة إذ لمح ضوءا سرى فى جوف ذلك الليل ، فحسبه للوهلة الأولى ضوء مصباح ، ولكنه ما لبث أن رآه ينمو ويتشكل فى صورة البشر حتى كمل إنسانا سويا ثم أخذ يدانيه شيئا فشيئا حتى تبين فيه وجه ذلك العابد وما هو إلا نور الفضيلة قد تمثل فى صورة ذلك الرجل الكريم .

فجعل ينظر بعين بصيرته إلى هذين التمثالين القائمين أمامه ويقف بنظره على العابد تارة وعلى (جان فالجان) تارة أخرى .

وبدأ يتضاءل أمام عينيه تمثال ذلك الجانى حتى انمحى رسمه وبقى العابد وحده فى ذلك الهيكل النورانى فراع الرجل جلال ذلك الموقف وتزاحمت دموع الرهبة فى عينيه على الخروج .

فما زال ينتحب انتحاب الطفل ويبكى بكاء الثكلى حتى سطع من خلال دموعه فجر الحقيقة وبزغت على أثره تلك الحياة الجديدة التى لم يستمرئ لها لذة قبل اليوم، وتراءت له صحيفة أعماله وقد سجلت فيها مخازيه ، فجعل يقرأ فيها سطور ماضيه فنظر جريمته الأولى وعلى يمينها التوبة والاستغفار وتمثلت له غلظة قلبه وفظاظة طباعه وذلك الانتقام الذى أضمره للناس فى يوم تسريحه .

ثم رأى كل ما اقترفه على العابد وما جناه على الغلام كل أولئك كان عليه مسطورا ووجد ما عمل حاضرا ولا يظلم ربك أحدا .

فسرى وهو مأخوذ بهذا الوجدان الجديد ولا يدرى له وجهة حتى إذا أفجر[1] وعاد إلى رشده رأى نفسه راكعا على عتبة ذلك العابد .

* * *

ذكرنا فى المقدمة ما كان لفكرة ذلك المؤلف من سرعة الانتقال وقلنا إنه بينما نراه يسابح الأجرام فى أفلاكها إذ هو يدارج النمال فى مدبها .

وقد سرت عدوى ذلك الانتقال من فكره إلى يراعه . فإنى لأعانى من تعريب ذلك الكتاب ما أعانى ، إذا به قد انتقل طفرا من سرد تلك العظات ، إلى الخوض فى السياسية .

ولا بدع فقد كان حامله كثير التطلع إلى فلك السياسة دائب الرصد لأجرامه ، مسلسل العنان لجواديه : فكره ، ويراعه .

فما كاد يأتى على ذلك الفصل السابق حتى تدفق فى سرد حوادث سنة ١٨١٥ فملأ صحيفتين بأسماء لم يجر لها ذكر من قبل ولن يكون لها حديث من بعد . فرأينا أن نغفل ذكرها وأحببنا أن يكون الكتاب غفلا من تلك الأحاديث المبتورة التى لم يكن لها أثر فى غير ذهن واضعها ، وأن يكون القارئ ليخرج من قراءتها وما فى يده شىء منها ما لم يكن ملما بحوادث تلك السنة واقفا على تاريخ هذه الأمة ، ومن لنا بمثل ذلك القارئ الخبير .

---

(١) أفجر الرجل إذا أدركه الفجر .

الفصل الثانى

فانتين

ولدت تلك البائسة فى قرية (مونتراى سيرمير) ولا تعرف لها أما ولا أبا ولا من يمت إليها بحبل القرابة ، ولا يعرف الناس من أمرها أكثر من ذلك . فوردت سجل العناء وأنظرتها الخطوب حتى بلغت سن الطفل الدارج ، وأنها لتدرج ذات يوم فى الطريق وهى تنتعل أديم الأرض(١) إذ مر بها بعض السابلة(٢) وسماها (بفانتين) ومن ثم أصبحت تدعى بذلك الاسم الذى أصابها كما كان يصيب ذلك المطر المنهمل جبينها .

ولما بلغت العاشرة من عمرها – ولا أدرى كيف بلغتها – خرجت تطلب وجوه الرزق وتلتمس أسباب القوت فى ضواحى تلك القرية .

فما زالت تكدح فى طلب العيش حتى يفعت أو كادت تيفع ، فعافت نفسها البقاء على تلك الحال ، وساقها قائد الاضطرار إلى الانزعاج عن الوطن ، فشخصت إلى باريس ، وألقت نفسها فى معترك تلك الحياة الجديدة ، فما زالت تعمل لبطنها ، وهى تطرق أبواب الارتزاق حتى ظمأ فؤادها إلى نهلة من موارد الغرام .

وكانت على جمال تولت عفة النفس حراسته ، وقد غنيت ببهجتها عن بهجة الحلل، أمهرها الحسن بما لم تمهر به أترابها، أمهرها بالنفيسين : العسجد فى شعرها واللؤلؤ فى ثغرها .

---

(١) بلا حذاء .

(٢) عابر السبيل .

فما زالت تطوف على تلك الموارد ورائدها الفؤاد ، حتى وقف بها على منهل قد رق ماؤه ، فإذا بها ترى فيه وجه ذلك الإنسان الذى غلبها على قلبها ، فأرضعها أفاويق الآمال ، وأرشفها رضاب الأمانى ، حتى أخذت عفتها تتسلل قطرة قطرة ، وحتى جلس منها ذلك الخبيث مجلس الرجل من أهله .

وكانت فى مبدأ أمرها ، حيث كان الغرام طفلا والعفاف فتيا ، تغالب كيد ذلك الهوى ويغالبها ، وتجهد جهدها فى الميل عن ذلك الساحر ، ولكنها ما كانت تميل عنه أصبعا إلا لتميل إليه ميلا .

كذلك كانت حالها حتى أصبح الحب وقد غلبها على أمرها وسقطت بين ذراعى ذلك الأثيم فافترشها ما شاء .

ثم زال عنها زوال السكينة عن فؤاد العذراء إذا لم تحصن نفسها ، وغادرها وهى جفن سلاح[١].

وكان لها صواحب ثلاث ، ولذلك الغادر أصحاب ثلاثة ، وقد جمع اللهو بين هذين الفريقين وضرب عليهما بالقداح ، فخرجت لكل واحد من فريق الرجال واحدة من فريق النساء .

وكان الرجال فى بلاد مختلفة وقد هبطوا باريز فى أيام العطلة السنوية .

وما كان ينصرم أجل تلك العطلة حتى انصرم حبل الوداد ، واختفى أولئك الأربعة فى يوم واحد .

وانفرط على أثر اختفائهم عقد التئام الفريق الثانى ، فبقيت فانتين وحدها بلا أنيس غير ذلك الجنين الذى كانت تحمله فى أحشائها ، فانقطعت عن الناس وانزوت فى بيت الأحزان ، وجعلت تعانى من ألم الفراق ما تعانى .

---

(١) حبلى .

وزكا حب ذلك الغائب فى فؤادها . وخرجت ذات يوم تستكتب الناس له كتابا تدعوه إليها ، وأبطأ خبره عنها ، فشفعت كتابها بثان وعززته بثالث .

وما زالت تستكتب الناس وترتقب الجواب ، حتى احتواها اليأس وبلغ منها القنوط، فأقبلت على نفسها تلومها وباتت تحز الودج[1] أسفا على حالها ، ووضعت حملها فإذا هو طفلة فسمتها (كوزيت).

* * *

وأقامت ما شاء الله حتى نزلت بها الضائقة وحضرها العوز ونضبت موارد الرزق .

وكانت لها فضلة مما كانت تتعجل به فى أيام لهوها ، فما زالت تنفق منها وتأكل مما كانت تصيبه من ثمنها ، حتى أمست وليس فى يدها ما تستعين به على سد حاجتها .

وقد زهدتها أيام قرب الحبيب لتوفر أسباب العيش وعدم الحاجة إلى العمل ، ففتر ذلك النشاط الذى ولدته فيها الضرورة ووهى العزم وفنى الحزم .

وأصبحت ترى الأرض فى ناظرها وهى أضيق من كفة الحابل[2] ، فعزمت على التحول من باريس والعودة إلى مسقط رأسها ، وقالت : لعلى أجد هناك ما أصون به أديم هذا الوجه من الأخلاق وأستعين به على تربية هذه اليتيمة .

ولما صحت عزيمتها على ذلك جمعت إليها ما بقى من حاجتها وباعت فوفت مطالب الغرماء وحفظت بعض الدراهم ثم احتملت طفلتها وخرجت تمشى وحفظت بعض الدراهم ثم احتملت طفلتها وخرجت تمشى على استحياء وهى كاسفة البال سيئة الحال وليس وراء ما بها من الهم غاية .

---

(١) الودج عرق فى العنق ينتفخ عند الغضب ، والمراد شدة الندم.

(٢) كفة الحابل حبالة الصائد .

وتنكر لها كل شيء فودت بجدع الأنف لو أن ظهر الأرض من الإنس أعرى من سراة الأديم[١] . فسارت ولو رآها أقرب الناس عهدا بها لغابت عنه معرفتها لفرط ما نزل بها من الهزال ، واخترم جسمها من السقم ، وإن تكانت لا تزال عليها مسحة من ذلك الجمال الغابر .

* * *

أخذت طريقها إلى بلدتها وجعلت كلما أخذ منها التعب تنتحى ناحية من الطريق ، وتجلس ريثما تنفس عنها كرب المسير وتغذو طفلتها .

ونزل بصدرها نازل من السعال دعته الرضاعة إلى النزول بذلك الصدر الضعيف، فضاعف من وصبها وزاد من ألمها .. وما زالت ترمى بها المرامى حتى وقف بها السير على نزل[٢] حقير بقرية (منتفرمى) كان قائما على رأس طريق يدعى بطريق الخبازين أسس فى صدر القرن الرابع عشر وزالت معالمه اليوم .

وكان هذا النزل لذئب من ذئاب الإنس يدعى «تيناردييه» وكانت من تحته ذئبة هى أحدّ الذئاب وأضراها تدعى باسمه وهما يقطنان مع أولادهما فى ذلك النزل.

ولعل ذلك الذئب كان ممن شهدوا موقعة (واترلو) فقد يرى الناظر بأعلى ذلك لوحا كبيرا قد نقشت عليه هذه الكلمات : « هلموا إلى جندى واترلو » .

ورسمت بأسفل اللوح صورة رجل يحمل على ظهره رجلا آخر عليه شارة القواد تلمع على كتفيه النجوم ويشرق فى أثوابه الدم ، وهما تحت جو أشبه الأشياء بجو المواقع ، عقد الدخان فوقه سماء مكفهرة الأرجاء .

(١) سراة ا لأديم ، ظهر الجلد ، والغرض ألا يكون فى الأرض إنسان .

(٢) النزل : الفندق .

وقد طرحت أمام ذلك الباب عجلة عاتية من تلك العجلات التى كانت تستخدم فى ذلك العهد لحمل الأثقال وجلب الأشجار من الغابات ، وكأنها لم تطرح فى ذلك المكان إلا لتصدأ أو لتزحم الطريق ، أو لتجعلها تلك الذئبة الضارية أرجوحة لوليدتيها.

وقد ستر الوحل أخشاب تلك العجلة وكسا الصدأ حديدها ، فأقامت فى الطريق وهى كأنها بعض أولئك الرؤساء الدينيين الذين قاموا عثرة فى سبيل الشرائع الغابرة.

واتفق أن وقفت (فانتين) على ذلك النزل حين كانت تلك الذئبة تلاعب طفلتيها، وقد وضعتهما فى الأرجوحة، وهما كأنهما قمران فى طفاوة[1] أو زهرتان فى كمام.

وكانتا متعانقتين فى هزة ذلك المهاد ، وصغراهما بين ذراعى كبراهما ، وقد سلخت الكبرى منهما ثلاثين شهرا، وأوشكت الصغرى أن تهل العشرين .

وجلست أمامهما على كثب منهما تتشارفهما وتتغنى بشىء من الكلام المقفى. وأنها لتشدو كذلك إذ وقفت فانتين على رأسها وقالت : « لعلك أم هاتين الزهرتين ؟ »، فلم تحر جوابا ولم تلتفت ولعلها لم تسمع صوت تلك السائلة ، فقد استطرد بها جواب الطرب فى ميدان الغناء . فعاودت فانتين السؤال بصوت كان خليقا بالوصول إلى مسمع تلك المندفعة فى غنائها . فالتفتت إليها ، فإذا هى ترى فتاة قد أنصب بدنها السير وكدها الهم والضير ، ونال منها البؤس وبلغ منها الشقاء . وقد كاد يمسح الحزن ما كان على وجهها من مسحة ذلك الجمال ، وأوشك أن يذهب البكاء بما كان كامنا فى محاجرها من ذلك السحر الحلال. فانتقلت حمرة وجنيتها إلى عينيها ، وهاجر سواد لحظها إلى حظها ، وامتد اصفرار شعرها إلى لونها ، ودب سقم جفنها إلى صدرها ، وسرى تحول خصرها إلى جسمها ، والتقى فى مآقيها دمع الحزن بدمع الدلال ، واجتمع فى قدها ذلك الهيف وذاك الهزال .

---

(١) الطفاوة دائرة القمر وهالة نوره . والكمام جمع كمامة وهى غطاء الزهرة .

وقد أدمى إدمان وخز الإبر سبابتها أيام كانت تخيط لتعيش، وذهب الفقر بزينتها، فليس عليها من الثياب غير ما يحصنها من البرد ويقيها الحر.

* * *

تلك فانتين التى كانت تقف على جمالها العيون ، ولو أنها تبتسم اليوم، لرأى الناظر ذلك اللؤلؤ المنظوم فى ثغرها، ولكن الحزن والشقاء لم يدعا للابتسام سبيلا إلى ذلك الثغر الذى كان منطبقا على ثناياه انطباق المحارة على الجوهرة .

وكانت تحمل على ظهرها تلك الحقيبة التى أودعتها كل ما تملك وتحمل بين ذراعيها طفلة ساذجة الطرف عبلة[١] الساق وضاءة الجبين . لها من صدر أمها مهاد، ومن ذراعها وساد ، أخذ الكرى بمعاقد أجفانها ، فنامت نوما هنيئا بين ذراعين قد صيغتا من الشفقة وصدر قد صور من الحنان.

فقالت لها ربة المنزل وقد رفقت فى القول : « نعم هما ريحانتاى » ثم دعتها إلى الجلوس بجانبها على عتبة الدار ، وأنشأت تحدثها عن نفسها وعن بعلها ، وجعلت تحاسنها فى القول وتلين لها فى الكلام ، ولم يكن ذلك اللين من شأنها ولا تلك الرقة من طباعها ولكن ربما وجدت الرحمة مسربا إلى تلك الأفئدة الغليظة عند ذكر صغارها.

وكانت تلك المرأة شقراء اللون جهمة الوجه وهى فوق الطويلة ودون البادنة يزدهيها شيء من الخلاعة ، ويشوب لسانها نوع من التزويق ، شأن أرباب الفنادق، ولا أحسبها فى ذلك العهد إلا وقد جاوزت حد الثلاثين .

ولو أنها انتصبت قائمة لراع (فانتين) طول قامتها ولذهب بارتياحها وسكونها إلى محادثتها ، ولا بدع فإنها لم تكن إلا حرث جندى وفراشى وحشى[٢].

(١) عبلة الساق مفتولتها .

(٢) أى كانت زوجة جندى أو زوجة رجل متوحش .

ولما فرغت من حديثها ، أخذت فانتين تنفض إليها جملة حالها ، غير أنها كتمتها أمرها ، وألقت فى روعها أنها أرمل قد مات عنها بعلها . وأن الحرفة التى كانت تزاولها قد كسد سوقها فى باريز فغادرتها وخرجت تضرب الأرض رجاء أن تصيب رزقا لها ولطفلتها ، وأنها قضت عامة يومها وهى تعانى تعب السير على قدميها ، وأن ابنتها قد أخذت من ذلك التعب بنصيبها .

وما كادت تأتى على ذلك الحديث حتى انحنت على طفلتها تقبلها وتضمها إليها ، فانتبهت الطفلة لحرارة تلك القبلة ، وجعلت تدور فى هذا الفضاء بعينين قد جال فى إنسانيهما الوقار وكمنت فيهما السكينة ، وقد نم نظرها عن سر تلك الفطرة السليمة التى لم يكن مثلها بجانب منا ندعوه فينا بالفضيلة إلا كمثل السماء صفا أديمها بجانب الشفق شابته الشوائب ، وما يدريك لعلها كان يقوم بنفسها فى هذه الفترة أنها ملك من الملائك يطل من سماء عصمته على أعمال هذا الورى .

وما هى إلا جولة فكر حتى تغيرت حالها وجعلت تبتسم ابتسام الظافر وهمت بالانزلاق من حجر أمها مدفوعة بتلك الإرادة التى لا يقف فى سبيلها شىء عند أولئك الأطفال، وقد حاولت أمها أن تحبسها عن مقصدها فما استطاعت لها ردا. ولما صارت على الأرض أخذت تدب حتى انتهت حيث الأرجوحة والوليدتان ، فوقفت تنظر ، وكأنها تعجب مما ترى ، وقامت الأم إلى بنتيها فأنزلتهما إلى الأرض ، وقالت لثلاثتهن: هيا العبن جميعا . وربطت السن بينهن عرى الائتلاف فطفقن يمرحن ويلعبن وينكتن فى الأرض نكتا .

وكانت تلك القادمة الجديدة أكثرهن مهارة وأبرعهن يداً فى حفر تلك النكت.

وجلست ربة المنزل إلى فانتين تحادثها وتحاسنها وما زالت بها حتى خلبتها ، وأنست منها الارتياح إلى سماع حديثها ، فأقبلت عليها بوجهها وجعلت تسائلها عن بنتها وهى تخبرها .

وبينما تتحادث الأمان فى ناحية ، وتلعب الصغار فى ناحية أخرى برزت إحدى بنات الأرض من خدرها وخرجت تسعى من بعض تلك النكت، فراع الصغار منظر تلك الحشرة وجزعن لرؤيتها جزعا شديدا وأشفقن منها وقد ضمهن الخوف إلى بعضهن فتقاربن حتى التصقت جباههن واستولى عليهن الدهش جميعا .

وحانت من ربة النزل التفاتة فلمحتهن على تلك الحال وقد تجمعن ، فظنت ذلك لداعية الانعطاف والميل ، فقالت : لفانتين وهى تحدثها « ألا تنظرين إلى هؤليات الأخوات الثلاث ؟ ».

فوصلت تلك الكلمة إلى فؤاد فانتين قبل سمعها فأمسكت بذراع صاحبتها وقالت لها : « لقد كدت تلمين بما كان يقوم بنفسى منذ رأيتك ، فإنى قد عولت على مغادرة ابنتى بهذا النزل، أفلا تكفلينها ؟ ».

فخرجت ربة النزل بالصمت عن لا ونعم ، وأشارت برأسها إشارة تشعر بالتردد بين الرفض والقبول .

فقالت فانتين : « ولا أحسبك إلا ستعجبين من أمرى ، ولكن الحاجة تدعونى إلى ذلك ، فقد استحال علىَّ أن أجمع بين السعى وراء العمل وبين اصطحاب تلك الطفلة فأنا غادية إلى التماس بعض وجوه الرزق وتاركة (كوزيت) بين ذراعى أمها الجديدة وباعثة لك فى كل شهر بما يقوم بنفقتها ، وآخذة على نفسى القيام بدفع اثنى عشر درهما فى كل شهر لكفالتها فانظرى ماذا تأمرين » .

وما هى إلا أن انتهت من ذلك الحديث حتى سمعت فى صحن تلك الدار صوتا شبيها بصوت انفجار البارود وقائلا يقول لها : « أولى لك أيتها القادمة أن تدفعى أربعة عشر درهما ، وقد استحال غير ذلك » !

فقالت فانتين : « كذا فليكن » ، ثم نظرت إلى صاحبتها نظرة المستخبر عن صاحب ذلك الصوت ، فألمت تلك الذئبة بمقصدها ، فقالت : « إنه صوت زوجى وهو رب

النزل وصاحب الأمر والنهى فيه، فلا تجعلى له سبيلا إلى رفض ما تطلبين مهما اشتط فى الطلب وكلفك ذلك من المئونة » .

وقال الذى هى فى داره : « لن تقبل الكفالة ، أو تعجلى بدفع نفقة ستة أهلة ، وتتركى عندها من الثياب ما يدفع عنها البرد والحر » ، ثم لبث غير بعيد وخرج إليها باسطا يده فنقدته الدراهم وقضت عندهم سواد الليل .

ولما كان الفجر قامت فانتين فودعت طفلتها وخلفت تلك الحمامة فى وكر الصقور. وسارت ومدامعها تسابق خطواتها .

* * *

وما كادت تغادر ذلك النزل حتى غادرته الرحمة على أثرها وأصبحت (كوزيت) بين زوجين لو قسم ما فى فؤاديهما من الغلظة على أفئدة البشر لما وجدت الرحمة إلى القلوب سبيلا .

وقالت المرأة لزوجها : « ما لنا ولتلك القنبرة (وكذلك كانوا يدعونها) نغذوها ولا تعمل ؟ وإنى لأرى لديها من الثياب ما يقوم ثمنه بوفاء بعض ما أثقل كاهلنا من الديون ، فإن رأيت أن نجمع تلك الثياب ونبيعها ! » .

فقال الرجل : « ومن الرأى أن تعجلى ببيعها اليوم ، فإن غدا لموعد المقاضاة وليس فى أيدينا ما يسد مطالب الغرماء » .

وطلعت شمس الغد على تلك اليتيمة بالبؤس والشقاء فلبست ثياب الذل، وطرحت رداء الدل ، وكانت كلما شبت يوما شب معها البؤس عاما ، حتى أصبح الثرى مهادها والمدر وسادها ، وتبدلت من حضن أمها حضن التراب ومن لين ذواعها خشونة الجماد .

أين عين فانتين ترى ذلك الطمر[1] الذى تضل الإبر سبيلها فى شقوقه، وينتهى العد دون خروقه ، تضحى[2] فيه وتخصر[3] وتنطوى تحته وتنشر ، تبكر بكور الغراب إلى كنس الدار والفناء ، وتنطلق ، والصبح والليل خيطان ، إلى حمل الماء ، تنطلق إلى النهر والنهر بعيد ، وتستقبل القر والقر شديد ، وتقطع الطريق وهى طويلة ، وتحمل الجرة وهى ثقيلة ؟

أين عين فانتين ترى تلك اليتيمة وهى تحت الخوان تؤاكل الجرو والهرة ، وتلقف الكسرة بعد الكسرة ، وطعامها دون الهر وفوق الكلب (والهر ينتقى ما طاب ، والكلب يلتهم كل ما أصاب).

ولم تزل تلك القنبرة رهينة الألم والعذاب ، يعدون أنفاسها ، فإذا تنفست قالوا لها : « لقد أفسدت علينا الهواء » ويرقبون حركاتها ، فإذا تحركت قالوا لها : « لقد كدرت علينا صفو السكون » حتى ضؤل جسمها واضمحل رسمها .

ولؤم صاحب النزل واشتط فى طلب النفقة من أمها ، فما زال يطلب المزيد حتى كلفه ذلك فوق الطاقة ، ووراء الفاقة ، فكانت تعمل عامة اليوم ، وتجعل ما تصيبه من الأجر لتلك النفقة الفادحة .

وكأن الخبيث قد ألم بباطن الأمر ، فقال لامرأته ذات يوم : « إنى لأعلم من أمر فانتين ما لا تعلمين ، إن هى إلا بغىٌّ قد غلبت على أمرها وما جاءتها تلك الطفلة إلا من طريق السفاح .

---

(١) الثوب البالى .

(٢) يصيبها حر الضحى .

(٣) يصيبها البرد .

ولا أرى شيئا هو أصلح لحالنا من انتهاز هذه النهزة والتماس الزيادة فى النفقة لعلنا نصيب من وراء ذلك ما نوفى به الديون ، وإنى ليعرض لى أن فانتين لا ترى بدا من الإجابة رجاء أن يختفى أمرها ولا أحسبها إلا ستخضع خضوع المضطر !».

وسقطت الكتب على فانتين سقوط القضاء ، وكلها فى طلب الزيادة فى النفقة ووصف ذلك النعيم التى ترتع فيه طفلتها ، وكانوا كلما أفرطوا عليها فى العذاب بعثوا لأمها بما يسكن من نفسها حتى أرسلت لهم قوتا وكل ما تصل يدها إليه ، فصلح شأن أصحاب النزل ووفوا الديون وأصبحوا ببركة وجود (كوزيت) وكدح تلك الأرملة وهم فى سعة من الحال وبشاشة من العيش .

وما كان خبث نفسيهما وحده كافلا للسعادة فإن النزل قبل حلول (كوزيت) لم يكن شيئا مذكورا فحلت بحلولها البركة وبسم لهم ثغر الزمان.

ولبثت عندهم كوزيت ثلاث سنين تعانى من ألم الشقاء ما تعانى وهم يمرحون من وراء عذابها فى بحبوحة النعيم .

ولو قدمت فانتين بعد مرور تلك السنوات لتفقد حال طفلتها لأنكرت رؤيتها ، ولغابت عنها معرفتها لفرط ما نزل بها من البؤس وما نابها من الشقاء.

وكانوا يتحدثون فى تلك القرية بأمرها فيقولون إن أصحاب النزل على ما هم فيه من الكفاف وخشونة العيش يغشون طفلة لقيطة ويربونها احتسابا ، فنعم العمل ونعم الأجر والثواب .

وبعد أن غادرت فانتين طفلتها بذلك النزل كما قدمنا ركبت طريق قريتها التى ولدت فيها حتى إذا أشرفت عليها بعد الجهد والعناء نظرت فإذا القرية على غير ما تعهد ، تسيل بها أودية الرخاء ويبسم ثغر السعادة.

وقد قامت فيها المصانع وشيدت دور التجارة ، وأصبحت حركة الأشغال ، لدوام اتصالها وسرعة انتقالها ، وهي أشبه شيء بحركة الأرض . وكانت قد هجرتها منذ اثنتى عشرة سنة ، ولما عادت وأبصرت ما هي فيه من رخاء العيش وبشاشة الحال قالت في نفسها : « لقد كانت سعادة هذا البلد بمقدار شقائي. فإني ما كنت أهبط دركا في مهاوى الشقاء حتى كان يعلو درجة في مراقي الهناء ».

ولقد صدقت فانتين في حديثها لنفسها فإن هذا البلد قد أدر الله لأهله أخلاف الرزق ، ودخلت فيه السعادة بدخول رجل هبطه عند انطواء أجل سنة ١٨١٥ تحت جنح من الدجى ، فكتم الليل أمره .

وشبت نار في إحدى الدور عند قدوم ذلك الغريب ، فهب الناس لإطفائها . فاندس الرجل في غمارهم وغامر بنفسه في النار ، وكان أول المتوقعين عليها ، حتى استل من فمها طفلين أوشكا أن يبيتا رزقا لها وكانا لكبير الشرطة ، فأكبروا فعله ، وملأوا أذنيه حمدا وثناء ، ولم يسألوه عن إجازة المرور ، ولم تمر بهم خلجات من الشك في أمره وإن كان غريبا .

وبقى مادلين(١) – وكذلك سمى نفسه – في تلك القرية واتخذها وطنا له ، ولا يعلم أهلها من أمره غير ما كان يلوح على محياه من سيما الخير والصلاح . وكان قد وقف على أبواب الخمسين من عمره وأصبح كثير الإطراق كلفا بالعزلة ولم يكن يملك يوم هبط القرية غير دراهم معدودة ، فدخل في مصنع للتجارة كان قائما هناك وأحسبه دخل فيه أجيرا ، فأقبلت دنياه – وناهيك إذا أقبلت – حتى أصبحت فضته ذهبا وأمسى تراب عمله تبراً .

ولم تكن إلا دورة من دورات الفلك حتى أصبح ربا لذلك المصنع . فأثرى الرجل إثراء يكاد يدفعه العقل لو لم يقع تحت العيان ، فأقام للأجراء دارا ، وشاد للأجيرات

(١) مادلين هو جان فالجان بطل الرواية .

أخرى ، وأجرى عليهما الأرزاق ، وفرش الحجرات بفاخر الأثاث ، وكان لا يدخل فى عمله غير الصالح من الرجال والصالحة من النساء . فاستقامت له الأمور وتقلبت به أحوال جميلة حتى أصبح ذا وفر كبير . فكانوا يقدرون ما أودع فى خزائن المصارف بخمسة وعشرين ألف قطعة ذهبية .

وما آلت إليه تلك الوفرة حتى أنفق مثيلها فى صالح الأعمال ومواساة البؤساء. وشاد فى القرية مدرسة للذكور وأخرى للإناث ، وأجرى عليهما الرواتب ، ووسع فى نطاق دار المرضى ، وكان لا ينهر سائلا ولا يرد عاملا .. فاختفى من تلك القرية أثر الشقاء ، فكنت إذا غشيت دارا رأيت من بها فى هناء ، وإذا طرقت حانوتا وجدت صاحبها فى رخاء .

كل ذلك كان بفضل الانكماش فى الأعمال ، وبركة الكسب من الحلال وما بلغ (مادلين) ذلك المبلغ الذى ترى إلا بطرح الأثر ومصارعة الجشع ...

ولقد بلغ به من حب الخير أن أقام ملجأ للعجزة وللمعدمين الذين أمسوا من سقط المتاع (ولا عهد لبلاد الفرنسيس قبل ذلك اليوم لمثله) . وجعل فى مصنعه خزينة لمساعدة عماله الذين أقعدهم الكبر وقطعتهم العاهة.

ولم يزل نجمه فى سعود ، وهمته فى صعود ، حتى نبه ذكره ، وعم خيره ونمى خبره إلى بيت الملك .

فارتاح الملك إلى سماع ما أنهوه إليه من أمره ، ورأى أن يجعل له ثوابا على ذلك العمل المبرور ، فأمر بإقامته شيخا على ذلك البلد .

ولما بلغته إرادة الملك بالغ فى الضراعة بالتماس الإقالة ، حتى أقالوه ، فعجب الناس من أمره ، فمنهم من أخذها عليه ، ومنهم من عدها له ، فقال قوم إنه النزق، وقال آخرون إنها القناعة .

وجرت حركات الدهر فوق تلك الحركة التجارية حتى اتسعت هالتها ، فجدد الملك إرادته بإقامة «مادلين» شيخا لبلده ، وجدد مادلين طلب الإعفاء . !.

كل ذلك والرجل تزداد نباهة ذكره ، ويسمو علو قدره ، حتى حيته العظماء ودعته الأندية العالية ، وحتى مشى إليه الكبير والصغير بالرجوع إلى الخضوع لتلك الإرادة، فأكره على ذلك المنصب إكراها .

وكان بعض سقاط القوم يبسطون فيه الألسن ، ولا يحفظون له غيبا ، فقالوا حينما رأوه يجمع فى أول أمره الأموال إنه تاجر يطلب الإثراء.

وقالوا حين رأوه يستثمر ما جمعه إن به لجشعا ، وزعموا حين بدت لهم منه كراهة الترف والظهور أنه لا يألف النعيم ولا يعرف قدر السعادة.

وحكموا حين بدا لهم منه رفض الدنيا أنه مائق يجمل به الفقر ولا يليق بوجهه الغنى .

* * *

ولبث «مادلين» فى يومه مثله فى أمسه لم يغير المنصب من نفسه ولم يلهه الاشتغال به عن الاشتغال بما هو فيه ، فبقى على عهدنا به من مداومة الإطراق ، وحب العزلة عن الناس .

فإذا رأيته رأيت شيخا آذن ليل شعره بالرحيل ، وقد لوحته الشمس ، وجال فى عينيه الوقار ، ولاحت عليه سحنة الفلاسفة .

وكان يجلس للنظر فى أمور الناس، فإذا فرغ من ذلك انكفأ إلى حجرته فقضى لبانته من مأكله ومشربه وانكب على مطالعة الكتب . وقد رأى أن يعوض ما فاته من تحصيل العلوم فى أيام صباه ، فعكف على الدرس فى أيام شيخوخته وإن كان الفقر قد منعه فى أوليات عمره من مزاولة التعلم ، فقد ساعده الغنى فى أخرياته على تناوله، ورأى من الكتب صدرا حليما ، وودا مقيما ، فسكن إلى صحبتها وارتاح إلى عشرتها.

وكان ينطلق إذا شمر النهار إلى المزارع والغابات ومعه آلة صيد قد اتقى الله في استعمالها ، فما هاج بها غرابا ساقطا ولا غال طائرا لاقطا ، ولكنه كان يحملها لرد الغوائل ، فيصحبها في وقت أمنه لتؤمنه في وقت خوفه .

وكان مع ذلك ماهرا في التسديد ، حاذقا في التصويب يصوت على الشيء ويرمي ، فيضع الرمية من الهدف حيث يشاء .

وهو فتى القوة ، قوى الساعد ، يرفع الجواد على كاهله ، ويمسك بذنب الفرس، ويخلد به إلى الأرض فيتحلحل إذا كان قويا ، ويقعى إذا كان ضعيفا ، ويستقبل الثور الهائج فيأخذه بقرنيه .

وهو على ما فيه من القوة والبأس ، رقيق القلب يجد من الألم لغيره ما يجده لنفسه، فما مرت به جنازة إلا وكان أول المشيعين لها ، ولا امتحن إنسان بمكروه إلا وكان أول المعزين له . وتراه عند انطلاقه إلى الجنائز يختلط بجماعة القسيسين فينوح نوحهم ، ويرتل ترتيلهم ، وكان نفسه تسبح في غير هذا العالم وعينه تشخص لغير ما يدركه الحس ، وكأن أسلاكا من الإلهام الإلهي قد امتدت بين أذنيه وبين أسرار ذلك الأبد ، فجعل يلقى بسمعه إلى تلك الأصوات التي باتت تشدو بحزن على حفافي هاوية الفناء .

وكم من يد له على الفقراء وصنيعة مع البؤساء يغشى دورهم وهم غير شاهدين ، فيلقى لهم بالنقود تحت الوسائد وفوق الفراش ، ثم ينسل تحت الليل كراهة أن يرى، كأنه يرتكب إثما أو يعالج اختلاس شيء.

ويعود رب الدار ، فيرى فيها أثر (مادلين) فيظن اللصوص قد ارتقبوا غيبته فجاسوا خلال داره ، فلا يزال يتفقد حاله حتى يعثر بتلك النقود فيأخذها وهو يقول لقد أرادوا سلب نعمتي ولكن أبى الله إلا أن أسلبهم مالهم ، وما ذاك إلا لأمر نزل بهم فأذهلهم عنه .

وكذلك كان يجيء بالحسنة وقد كفى الفقير مئونة السؤال ووفر عليه غضاضة ذلك الموقف .. ولا تسل عند اللقاء عن طلاقة وجهه التى كانت تستتر تحتها هموم صدره وعن محاسنته للمعدمين . فهو كما يصفونه غنى لم يخرج به الغنى عن حد التواضع، وسعيد لم تقف به السعادة على التبسط والانشراح.

* * *

وفى أوائل سنة ١٨٢١ أجاب عابد (دينى) دعوة ربه وقد نيف على الثمانين من عمره، فنعته الصحف وطار خبر نعيه حتى وقع فى مسام مادلين ، فوجد عليه وجدا شديدا وظهر من غده ، وعليه شارة الحداد . فتساءل الناس عن نبئه ومشى بعضهم إلى بعض وجعلوا يقولون لقد كنا فى ليل من الشك فى أمر هذا الرجل ، حتى أضاء لنا حسبه الوضاح ، فما هو إلا من تلك الأسرة الشريفة ، ولا ريب أن نسبه يتصل بذلك العابد التقى .

وأقاموا على ذلك اليقين أياما حتى تعرض له بعضهم بالسؤال فقال وقد أخذ عليه طريقه : « إنى أراك تحمل شارة الحداد منذ نعى الناعى عابد مدينة (دينى) فهل أنت ممن يمت إليه بحبل القرابة ؟».

فقال (مادلين) وقد كان ينطق الحزن فى أحشائه : « كلا، وإنما كنت فى أول أمرى خادما عنده !».

وكان العابد قبل موته قد كف بصره ، فلبث كذلك بضع سنين لا يجد ألما لفقدان نور البصر وقد بقى له نور البصيرة وبقيت أخته بجانبه لا تنحرف عن سراط طاعته، ولا تنفك عن ملازمته . فهى لا تريم عن مخدعه ، إلا لإمضاء أمره أو قضاء حاجته. وكانت تحرص على رضاه حرص المرء على حدقة عينه ، حتى رأى أنه قد استعاض عن عينه بعين ذلك القلب الذى بات لا يغفل عن رعايته .

ولبث ذلك البصير أميرا لدولة القلوب ، وكان يقول فى نفسه : لو تم الكمال لشىء فى هذه الحياة الدنيا ، لأوشك أمرى أن يتم كماله ، فإنى أرانى لا ينقصنى شىء من السعادة .

اللهـم إنك إن كنت قد استرجـعت منى هبـة النظـر ، فقد جعلت أفئدة من الناس تأوى إلىّ اللهم إن من آوت إليه الأفئدة ، كان خليقا أن يصبح حامدا ويمسى مشكورا .

وكذلك كان أمره فى أواخر أيامه ، وأخته لا تزال بجانبه يشاهدها قلبه ، وإن لم ترها عينه ، وتتحسس روحه روحها فى ظلمة هذه الدار الفانية حتى تعثر بها فتنجاب للقائهما تلك الظلمة ويبدو كوكب الصفاء.

نعـم كذلك كان أمـره حتى انتقـل من نعيم دنياه إلى نعيم أخراه ، وبلغ خبر منعاه (مادلين) كما ذكـرنا فوجد عليـه موجـدته ، وأقـام على حزنه حتى انصرمت أيام الحداد .

* * *

وما زال الزمن يحلل من حقد مبغضيه ويستل الوساوس من صدورهم ، حتى أصبح وليس فى القرية من يرتاب فى أمره ، فسكنت إليـه النفوس النافرة ، وعطفت عليه القلوب الصوادف ، وبات موضع الحاجة ، ومحل الأمل ، ومهبط الثقة ينتجعه المضطر ، ويستعدى به المظلوم على الظالم ، ويفد إليـه المتخـاصمـان من الأطراف للمقاضاة فيصل بين المتقاطعين ، ويوفق بين المتدابرين ، ويحكم بالتوفيق ، فلا ينحرف عن الحق كأن قانون الطبيعة البشرية قد طبع فى نفسه ، فطالعه ضميره وانطلق به لسانه .

عطفت عليه القلوب الصوادف إلا قلبا واحدا كان يبالغ فى الميل عنه كلما بالغت قلوب الناس فى الميل إليه .

وكان هذا القلب فى صدر رجل من كبار الشرطة قد هبط تلك القرية منذ العهد القريب فشهد (مادلين) وهو فى مبتسم زمانه وعز سلطانه وقد استقر فى الذروة من الجاه وبلغ الغاية من الغنى فكان كلما مر به أحس بدبيب الكراهة فى نفسه بصورة قد أعجزه إدراك مأتاها .

ولا عجب فإن لبعض النفوس إشرافا على خافيات الأمور يولد فيها من الشعور الحقيقى ما تنبسط له مرة وتنقبض أخرى .

وهو كذلك الشعـور الذى يقـع أحيانا فى نفوس البشر فيحدث فيها عاطفة الميل أو النـفور عند النظرة الأولى ، ويقـف فيها موقف المستبد لا يخضع لسلطان العقل ، ولا يجيب نداء الضمير ، فيقاطع بينها ويباين بين طبائعها ويوحى إليها عند اللقاء ، فترى النفس التى ركبت فيها طبائع الكلب تركب نفرتها عند رؤية كل نفس قد ركزت فيها طبائع الهر .

أقول ذلك ولو كانت نفوسنا مما يقع تحت الحس لرأيت كل واحدة منها ممسكة بذراع أختها من نفوس تلك العجماوات .

ولعلمت أن لكل إنسـان حـيـوانا يمثل طبـاعـه ويكيف أطواره ولأدركت أن هذه الوحوش وتلك الأطيار لم تكن إلا تماثيل أعمالنا فمنها ما يمثل الفضيلة ومنها ما يمثل الرذيلة ، وهى وإن لم تدركها الأبصار قد علمت بوجودها النفوس إلهامـا من الخالق الذى جعلها لها تذكرة واعتبارا .

أما الآن وقد سلمت معنا أيها القارئ أن لكل إنسان حيوانا يمثل طباعه ، فقد سهل علينا أن تمثل لك نفس ذلك الرجل الشرطى وأعنى به (جافير).

زعم بعضهم أن الكلب إذا وقع على الذئبة أولدها وأن الذئبة تخشى إن هى انتظرته حتى يشب أن يعطف على صغارها فيغتالها فلذلك تنحى عليه وهو صغير.. فلو أننا جئنا بذلك الجرو، وأسكناه فى هيكل بشرى لتبين فيه القارئ شخص (جافير).

ذلك هو الرجل الذى ما فتئ يتعقب (مادلين) ويسير على أثره مسير القضاء فى حجب الغيب، فهو إذا لمحه ماشيا كاد بصره ينهب مواقع أقدامه، وإذا سمعه محدثا كاد سمعه يختطف ألفاظه قبل أن تبرح فاه، وكلما وقع تحت بصره قال فى نفسه: ترى أين نظرت هذا الرجل ؟.. وجعل يطالب الذاكرة كمن يحاول تذكار شيء درج فى أثناء النسيان، وينتهى بقوله: لن يغلبنى هذا الرجل على أمرى وإن بالغ فى إخفاء أمره ..

وكان (جافير) مقيما بتلك القرية كبيرا لجماعة الجواسيس من الشرطة، والشرطة كما تعلم قوم يعرفون بسيماهم تلوح بمعاطفهم مخائل السلطة، وتهب من أردانهم ريح الخساسة وكذلك كان جافير ولكنه لم يكن خسيسا .

وكان مولده بسجن النساء حيث كانت أمه سجينة، وهى من هؤليات النسوة اللاتى يحترفن باستطلاع الحظوظ من أوراق اللعب، وكان أبوه سجينا بسجن الرجال . فشب ابن السجينين فى حجر البؤس والشقاء، ولما بلغ أشده نظر فرأى بينه وبين ذلك المجتمع الإنسانى سدا قد استحال عليه أن يجاوزه . وعلم أن هذا المجتمع لا ينبذ وراء ذلك السد إلا أحد رجلين: رجل ناصبه العداوة فعمل على كيده، ورجل منحه الوداد فعمل لمناصحته .

وقد وجب أن يكون جافير أحد هذين الرجلين فشمست نفسه عن الأول، وسكنت إلى الثانى، فانتظم فى سلك رجال الشرطة وأخلص فى العمل وحرص على الطاعة حتى عهد إليه بأمر التفتيش، وأصبح كبيرا لفرقة من الجواسيس .

وكان يمقت الأشرار مقتا شديدا ويتفانى فى الإيقاع بهم ، وإن كان هو من سلالتهم .

وقبل أن يسترسل بنا القلم فى تصوير خلق ذلك الرجل فقد رأينا أن نصور للقارئ خلقه فنقول :

كان جافير ذا سحنة خاصة به ، وكان له لحية قد أغرى الموسى ببعضها وحرص على استبقاء بعضها ، فأخصب عاليها وأجدب سافلها واستهلت ذراها عند العارضين، واكتثت أصولها عند العنفقة[1] وكان أفطس الأنف غائر المنخارين يخال الناظر إلى غئور منخريه وبروز شعر لحيته أنه يرى كهفين قد أقاما بين غابتين ، وكان إذا تبسم وقل أن يقع منه ذلك أراك ثغره أصول أنيابه ، فهو إذا ضحك فنمر ، وإذا غت[2] من ضحكه فعقور اتخذت العبوسة مسكنا لها بين عينيه ، وأطلت النفرة من محاجره ، وستر شعر رأسه جبينه وحاجبيه .

* * *

ذاك خلق الرجل نصوره للقارئ وأما خلقه فقد كان قائما على خلتين كريمتين ، احترام السلطة الحاكمة ، ومقت المستخفين بها .

غير أن المغالاة فيهما قد خرجت به عن حد الاعتدال فأنكر الناس منه ذلك .

فكان يرى أن كل ما يقع من جرائم القتل والسلب داخل فى باب الاستخفاف بتلك السلطة ، ويسترسل فى الثقة بكل عامل فى الحكومة وزيرا كان أو حاجبا .

وينظر بعين النفور والبغضاء لكل من ولج باب المخالفة . وهو لم يقع منه ذلك الأمر فى حياته .

(١) شعيرات بين الشفة السفلى والذقن .

(٢) غت الضحك أخفاه .

ويقول وهو يعتقد ما يقول إن القضاة بهم عصمة عن الزلل فهم لا يخطئون ، وأن رجال الحكومة لهم إشراف على الأمور فهم لا يخدعون . ويزعم أن التوبة لا تغسل الحوبة ، وأن المرء إذا أجرم مرة عاش دهره مجرما لا تنفعه الإنابة ولا يلوى بجريمته العقاب .

كذلك كان يبالغ في الخلتين ولا يستثنى أحدا في الحالتين وهو مع ما ذكرنا عنه وقور صبور كثير التفكير خاشع القلب عالي النفس مهيب في العين قد أرصد حياته لشيئين لا ثالث لهما : السهر ، والمراقبة .

وكان يعمل على كمال اليقين من انتفاع الناس بعمله ويراقب الله في ذلك العمل، ولا ينحرف شعرة عن أوامر الدين ونواهيه ، هو في حرفته كالراهب في عبادته .

والويل ثم الويل لمن وقع في مخالبه ولو كان من ذوى قرابته ، فإنه ليرد أباه في السجن إذا قبض عليه وهو فار ، وليعارض في رجوع أمه إلى بلدها إلا بعد انقضاء سجنها .

وإنه ليفعل ذلك وهو أروح ما يكون نفسا وأهدأ ما يكون ضميرا ظنا منه أنه إنما يرضى بذلك شريعة الأرض ولا يسخط شريعة السماء .

وكان عيشه بين التقشف والعزلة عن الناس فما صادفه إنسان مرة متراوضًا ، ولا لمح عليه أثر الترف والنعيم ، كأنه لم يخلق لغير الكد والعناء بين المراقبة والاختفاء.

وكنت إذا رأيته في حين تجسسه رأيت رجلا قد غاب جبينه تحت قلنسوته ، واستترت عيناه تحت حاجبيه ، واختفت يداه تحت كميه ، وانزوت عصاه تحت ردائه ، حتى إذا عن له صياد أو سنحت له فرصة انتفض فظهر لك ما اختفى من أمره كأنما خرج من كمين أو وثب من ظلمة إلى نور .

قلنا إنه لا عيب فى ذلك الرجل غير تلك المغالاة ، فهو يغالى حتى فى معاملته لنفسه. اللهم إلا ساعات معدودة من أيام حياته ، كان يرى فيها نفسه راضية عن نفسه فيهون عليها بعض الشيء من تلك المعاملة .

وآية رضاه عنها أن يعمد إلى لفيفة من الطباق[1] فيشعلها وكان ذلك مبلغ ارتياحه لنفسه وغاية رضاه عن مغبة عمله .

ذلكم (جافير) ومن ذا الذى ينكر خطر (جافير) ؟ هو حرب المجرمين ، وفخ الهاربين ، وفضيحة المختفين ، إذا لفظ اسمه أمام أشد العتاة انقلب على عقبيه مذعورا ، وإذا لاح شبحه أمام أحد الفارين تقيد فى مكانه بقيد من الرهبة.

فويل لك يا (مادلين) من هذه العين التى تترسم أثرك ، وتلك الأذن التى تتسقط خبرك، ولا أحسبك إلا واجداً فى نفسك ما يجده لك ذلك الرجل فى نفسه .

فأنت بالذى فى قلبك عالم بما فى قلبه، وإن كنت قد تحفظت ما شئت ، وصابرت ما استطعت ، وتكلفت السكون عند لقائه وتحاميت طريق صحبته وجفائه ، وزكنت منه على مثل ما زكن منك ، وسألت ضميرك عنه بمقدار ما سأل ضميره عنك .

ولبثت تلك الحرب الخفية قائمة بين هاتين النفسين وكلما فتح جافير بابا من الدهاء أبطله عليه مادلين بقوة الصبر والجلد حتى تزعزعت عزيمة الأول ولزم بيته ثلاثة أيام، وكاد يأكل مقراض اليأس خيوط آماله ، وأوشك أن يعتقد بحلول الفشل فى مساعيه وأعماله .

واتفق ذات يوم أن خرج أحد سائقى العجلات ومعه عجلة يجرها جواد ، فانطلق بها فى طريق كثير الوحل، فغارت فيه قوائم الجواد وأكب لوجهه ، وسقطت فوقه

(١) المعروف الآن بالدخان أو التنباك .

العجلة، فبترت عظم ساقيه ، وانقلب السائق تحتها فاستقرت فوق صدره فجعل يستغيث ويستنجد وهو مشفق أن يبتلعه الوحل . فهب الناس لجهة الصوت ووقفوا ينظرون إليه ، ولا يقدم أحد على الأخذ بيده .

وأقبل (مادلين) مهرولا فنظر الرجل تحت العجلة يسوخ فى الطين شيئا فشيئا، وهو كلما اضطرب طلبا للخلاص كان اضطرابه مساعدا على وأده فى الطين حيا ، فأشار إليه مادلين بالسكون ثم التفت إلى الجماعة وقال : أيكم قوى العضل جليد القلب يدخل تحت تلك العجلة فيرفعها بظهره وأجره على ذلك خمسة ذهبا ؟ فوجم القوم جميعا، فقال مادلين : إنى أرى الوقت ضيقا وأرى أجل هذا الرجل أضيق منه فلا تخنسوا عن مساعدته ولمن يفعل ذلك منكم عشرة ذهبا وإن أبى إلا المزيد فعشرون.

وما كاد يأتى على تلك الكلمة حتى سمع من ورائه رجلا يقول : « إن القوم لا تنقصهم الإرادة ولكن تنقصهم القوة !» فالتفت مادلين ليرى القائل فإذا به جافير ، ولم يكن لمحه عند قدومه .

فحدق فيه جافير وعطف قائلا : « وليعلم سيدى الشيخ أنه ليس على ظهر الأرض من يقوى ظهره على رفع تلك العجلة ، اللهم إلا إذا كان من العمالقة أو من أولئك السجناء الذين قضوا شطرا من حياتهم فى سجن تولون !».

فغض مادلين من بصره واستشعر الخوف لأول مرة ، وعلم أن جافير لم يقل ذلك إلا تعريضا وتقريعا له ، ولكنه غالب نفسه حتى ملكها ، ثم التفت إلى الجماعة ليرى أيهم أقدم على هذا العمل ، ولما لم يجد معينا جثم على الأرض ، ولم تكن إلا جولة فكر، حتى رآه القوم تحت العجلة منبطحا على وجهه وقد حاول أن يجمع بين مرفقيه ويقرب بين ركبتيه ليعتمد عليها فى رفع تلك العجلة ، فعالج ذلك مرتين ولم يفلح فخفقت قلوب

الجماعة إشفاقا عليه ، وظنوا أنه لا محالة هالك ، فصاحوا به : أولى لك أن لا تطرح بنفسك ذلك المطرح من التغرير ، وإنا نناشدك الله أن تستبقى حياتك .

وقال له سائق العجلة وهو تحت كلكل الموت : إنى أدعوك بالله أن تنجو بنفسك ، فإنى ميت ولا عاصم اليوم من أمر الله .

كل ذلك ومادلين صامت لا ينبس ، والقوم باهتون من عمله ، والعجلة لا تنفك عن الهبوط حتى تعذر عليه الخلاص وانقطع خيط الأمل من نجاته .

وإن القوم ليحفز اليأس أحشاءهم وإذا بهم يرون العجلة وقد تحلحلت ، وجعلت تهتز فوق ذلك الطود الذى رسخ تحتها وأخذت تصعد بعد ذلك الهبوط وسمعوا صوتا قد بحّه[1] التعب يدعوهم إلى نجدته ويقول لهم : أعينونى بقوة فقد أمكننى الله منها .

وكان ذلك صوت مادلين فأوفض[2] القوم إليها ، وانتزعوها من مكانها ، وأفلت السائق من مخالب الموت ، والموت خزيان ينظر ، وكان هذا السائق يدعى (فوشلفان) وهو من أعداء مادلين الذين أكل الحقد صدورهم ونهش الحسد قلوبهم .

وقد كان فى أول أمره جنديا ثم صار تاجرا فأثرى ثم أملق حتى صار من سائقى العجلات . وكان يبيت وهو يتقلب على جنب الحرد[3] من الحسد كلما فكر فى مادلين وفيما صار إليه أمره من الثروة والجاه ، ويقول لنفسه : لقد قدم مادلين وأنا تاجر وهو أجير فأصبح بحيث يحسد وأمسيت بحيث أكمد .

---

(١) بح بتشديد الحاء من التعب .

(٢) أسرع القوم .

(٣) الحرد بفتح الحاء وكسر الراء المغيظ .

ومن هنا كان مبعث حقده عليه ومثار حسده له .

ولما سار مادلين من تحت العجلة بعد انزلاجها عن مكانها وهو باهت اللون ناضح الجسد ملطخ الثياب ممزقها تحامل (فوشلفان) حتى اقترب منه ، وانكب على ركبته يقبلها وجعل يدعو له .

كل ذلك والقوم يبكون من هول ما شهدوا وينظرون إلى ذلك الوجه الذى بانت فيه آثار الجهد والعناء ، ولاحت عليه سيما السرور والارتياح ، وجافير يكاد ينشق غيظا فى مكانه ومادلين يلقى عليه نظرات مطمئنة ويلمحه لمحات معنوية .

ولما انقضى ذلك المشهد وذهب كل لوجهة أمر «مادلين» بفوشلفان فحمل إلى مصنعه وأفرد له فيه مكانا ووكل به اثنتين من الممرضات ، وأوصى بالعناية به وجعل يعوده طرفى النهار حتى أبل من مرضه .

ثم وجه إليه برقعة وقع له فيها بأربعين قطعة من الذهب وكتب بها أنه قد اشترى عجلته وجواده بهذا القدر من المال (وإن كان الجواد قد نفق على أثر سقوطه والعجلة قد تحطمت منذ ذلك اليوم).

ولما أبل فوشلفان من مرضه كان لا يزال يشكو بعض الألم بإحدى ركبتيه ، فحال ذلك بينه وبين الرجوع إلى حرفته ، فلذلك أقامه مادلين حارسا لبستان دير النساء بباريس .

وبعد تلك الحادثة بقليل وجهت الحكومة إلى مادلين ببراءة وظيفته . وكان جافير كلما لمحه حاملا لتلك الشارة التى تأذن له بالتصرف المطلق فى شئون وظيفته ، كادت تطير شظايا نفسه حسدا .

وشعر من نفسه بذلك الشعور الذى يقع فى نفس الكلب إذا وجد ريح الذئب مختفيا تحت ثياب ربه . ومن ثم جعل يتحامى طريقه ولا يلقاه إلا مكرها على لقائه .

فكان إذا لقيه لقيه لقاء المحتشم المستكين ، وإذا خاطبه خاطبه خطاب المتحفظ الرزين .

هذا ما كان من أمر جافير ومادلين . ولقد طال عليك أيها القارئ انتظار حديث فانتين وطال عليها الوقوف أمام تلك القرية .

قدمت فانتين بلدتها ، وما نسيت ما كان من أمرها ، فوقفت تنظر إليها ، وقد تنكر لها كل شيء ولم تر من تعرفه ولا من يعرفه فسارت تعروها دهشة الغريب حتى وقف بها نصيبها على باب مصنع مادلين فارتاحت لرؤية وجه ذلك الباب كأنما هى ترى وجه صديق لها ، وعرضت نفسها على رب المصنع ، فأمر بضمها إلى قسم النساء فكانت تصيب الكفاف من الرزق لجهلها بتلك الحرفة الجديدة ، وكان أجرها فى اليوم لا يتجاوز حد القوت ولكنها قد بلغت على كل حال مناها وأمست تعيش من كسب يدها . ففرحت بصيانتها لماء وجهها وحفاظها لعرضها وانكمشت فى العمل حتى برعت فيه ، وزادوا لها فى الأجر ، فأمكنها أن تكترى لها مكانا صغيرا وأن تبتاع بعض الأثاث بالقرض والنسيئة ، فبدأت بشراء مرآة كانت تنظر فيها عند كل صباح إلى نضرة شبابها فتطرب كلما تمثل لها عسجد شعرها وتراءى لؤلؤ ثغره ، وكادت تنسى هموم ماضيها ولم يعد لها من هم غير التفكير فى طفلتها وفيما سيكون أمرها فى مستقبل أيامها .

وكانت تحرص كل الحرص على إرسال النفقة فى حينها وتبالغ فى كتمان أمرها وتحتجز من الناس غاية الاحتجاز وتتحفظ من أن تسقط منها لفظة تشير إلى ذكر

«كوزيت» أو محل وجودها أو أن تخوض فى حديث يجر إلى ذكر الزواج، ولكن أبى النحس إلا أن يلازم طالعها فإنها كانت كلما أرادت إرسال النفقة إلى طفلتها فى كل شهر استدعت أحد الكتاب ، فاستكتبته كتابا إلى أصحاب النزل ، وذلك لجهلها بالكتابة كما قدمنا ، فكانت تستدعيه عند قدوم الليل والليل أكتم للسر، فولد ذلك فى نفوس صواحبها بالمصنع بعض الشكوك ، ولفت أنظارهن إلى مراقبتها فجعلن يتحدثن فيما بينهن بأمرها ، ويقلن ما لهذه الرسائل بد من سبب ، وما بال هذا الكاتب لا يأتى إلا إذا أتى الليل ، وما بال فانتين كاسفة البال تنزوى فى طريقها عن الناس وتتحامى فى المصنع الاختلاط بنا .

ولا تعجب أيها القارئ فإن أشد الناس مراقبة للناس من كان أبعدهم نفعا من وراء تلك المراقبة ، فهو يراقب لغير نفع يجذبه أو مال يكسبه ، ولكنها غريزة فيه تثيرها الرغبة فى الوقوف على أحوال غيره ، فتراه ينفق المال ويستخدم الرجال ويمالئ كل من كانت له صلة بمن يراقبه من حاشيته وخدمه وأصحابه ، ويكد ذهنه وينتصب بدنه ويصرف النفيس من وقته فى تسقط الخبر وتلمس اللفظ ، ويجمع كيده لاستبطان الأمر ويرصد نفسه لاستطلاع السر ، فيخالط السوقة ويجالس أهل المنزلة التى هى دون منزلته فيعقد لهم مجالس الشراب وينفق عليهم ما يضن بإنفاق بعضه فى سبيل البر وطريق الخير ويكمن تحت الليل فى زوايا الطرقات لا يبالى بسقوط الجليد ولا يعبأ بوخز القر ، ويجلد على احتمال تلك المشاق حبا فى الاستطلاع ورغبة فى الاكتشاف ، حتى إذا ألمّ ببعض الأمر وانكشف له جانب السر ، جلس إلى أصحابه فى الأندية يحدثهم وهو يميل بسفالته تيها ، ويثنى عطفه كبرا كأنه قد اهتدى بأبحاثه تلك إلى اكتشاف سر من أسرار الكون .

كذلك كان حال فانتين مع تلك النسوة اللائى يعملن بذلك المصنع فإنهن قد أفرطن فى مراقبتها فعددن أنفاسها ورقبن حركاتها وذهبن مع الظنون فى أمرها . لمحنها مرة

وقد وقف الدمع فى عينها موقف الحائر فانتحت ناحية من المكان وجعلت تمسحه فى خفية فتغامزن عليها بالعيون وأصبح الشك عندهن يقينا ولم يكن علم الله بكاؤها إلا لذكرى طفلتها وما كان منها مع ذلك الرجل الذى غلبها على أمرها . وما زلن يوالين البحث حتى اهتدين إلى معرفة العنوان الذى تكتب به، واجتمعن بذلك الكاتب الذى كانت تستخدمه فى الكتابة ، فانطلقن به إلى إحدى الحانات ، وكان الرجل خفيف الحال مدمنا للراح يبيع ما فى فؤاده من السر بكأس الخمر ، فحططن عليه بالشراب حتى استفرغن ما عنده من أسرار تلك الكتب ، فعلمن أن « لفانتين » طفلة وأنها غادرتها بنزل فى قرية (منتفرمى) وما يكتفين بما وصل إليهن من ذلك العلم ، بل بعثن منهن رسولا يرى الطفلة رأى العين ، وكان هذا الرسول شيخة من ذوات الأسنان نسجت الشيخوخة على وجهها طبقة من التشويه ، فزاد ذلك فى دمامة خلقتها وكان زوجها راهبا قد فر من أحد الأديرة فتزوج بها ثم مات عنها منذ زمن طويل فلبثت بعده أرملا إلى هذا العهد ، وكانت تعيش من فضلة قد بقيت لها .

تلك (مدام فيكتريان) التى كانت رسولهن إلى قرية «منتفرمى » وهى التى قالت لهن عند عودتها : لقد أزلت الشك باليقين ورأيت الطفلة رأى العين وأنفقت على ذلك مئة وأربعين قرشا .

* * *

واستغرقت تلك المؤامرة زمنا طويلا حتى استوفت «فانتين» عمر العام وهى بذلك المصنع . وفى ذات يوم دخلت عليها كبيرة دار الأجيرات فناولتها مائتى قرش، وقالت لها إن رب المصنع يأمرك بالتحول عن هذا المكان وإن أحسنت إلى نفسك فلا تسكنى القرية بعد اليوم .

فجمدت «فانتين» فى مكانها وحاولت الكلام فخانها الصوت ونظرت إلى وجه التى تحدثها فلم تلمح فيه للعطف مجالا فخرجت تمشى على استحياء وهى أسوأ ما تكون حالا،

وكان ذلك فى الشهر الذى لؤم فيه صاحب النزل واشتط فى طلب النفقة منها فانكفأت إلى حجرتها وجلست تفكر فيما سيئول إليه أمرها، وكانوا قد أشاروا عليها بمواجهة الشيخ «مادلين» لتنفض إليه جملة حالها لعلها أن تصيب منه قلبا رحيما، فمنعها الحياء من ذلك، وقالت فى نفسها لقد أمر بإبعادى لأنه عادل وجاد على بمائتى قرش لأنه كريم، وما عسى أن يفعل الرجل معى أكثر من ذلك وقد وقع فى نفسه ما أنهى إليه من أمرى ؟

وكان «مادلين» بريئا من ذنبها ولم يكن من عادته الدخول إلى دار الأجيرات فلم يشرف على أعمالهن، وقد عهد بذلك إلى واحدة منهن عرف فيها الاستقامة وصفاء السريرة فأقامها رقيبة على الأجيرات ومنحها التصرف المطلق فى أمورهن. وكانت تلك المرأة بمنزلة من الأمانة والرفق فى العمل وإسداء المعروف ولكنها لم تبلغ المرتبة التى إذا عرف أهلها بوجود الذنب ذكروا العفو عن المذنب فهى التى باشرت التحقيق فى أمر «فانتين» وهى التى حكمت عليها وقامت بإمضاء ذلك الحكم وطلبت من مادلين التصديق عليه .

كل ذلك يجرى بالمصنع فى قسم النساء ومادلين لا يعلم منه شيئا، ولا عجب فإن مثل هذا الرجل من أصحاب النفوس الزكية والقلوب النقية يتركون النظر فى شئونهم إلى من يرون فيه الإخلاص ولا يحاسبونه يوما ما يأتيه من ذلك العمل .

* * *

ولما غادرت فانتين المصنع على أثر تلك المؤامرة لم تر بدا من البقاء فى القرية لأنها قد ابتاعت آثار منزلها بالقرض والنسبة ، وقد بلغ التاجر ما نزل بها فأنذرها بسوء العاقبة إن هى غادرت القرية قبل وفاء دينه، وكذلك كان حالها مع ربة المنزل الذى استأجرت فيه قاعتها. على أنها قد قسمت بينهما ما أحسن به عليها مادلين واستمهلتهما فى المقاضاة فيما تبقى عليها وردّت إلى التاجر بعض ذلك الأثاث وحفظت منه ما لم تر بدا من حفظه وعوّلت على العمل، فطرقت جميع الأبواب والتمست أن

تكون خادما بأحدها، فلم يكن نصيبها غير الرد والإعراض، فعادت إلى منزلها تتعثر فى ذيول الخيبة، وما زالت تطالب فكرتها فى استنباط عمل تعيش من ورائه، حتى فتق لها الذهن أن تعاود حرفة الخياطة، فكانت تخيط الأقمصة لعساكر الحرس فتصيب فى يومها اثنى عشر صلديا تحفظ عشرة منها لنفقة (كوزيت) وتنفق اثنين فى إحراز مسكة الحوباء[1].

وكانت تساكنها بتلك الدار عجوز من البائسات قد مارست صنوف الشقاء، وتقلبت بها أحوال العسر والمتربة فجعلت فانتين تجلس إليها فى كل يوم وتأخذ عنها دروس العيش فى الخلة[2] والضيق.

وليعلم القارئ أن وراء العيش القليل منزلة أخرى، وهى العيش من لا شىء وأن هؤلاء البؤساء الذين شبوا وشابوا بين شظف العيش ونكد الحياة لهم فنون وأساليب فى الانتفاع باليسير من المال فتراهم يتلمسون من وراء الدانق منافع عديدة ويقضون بالسحتوت الواحد حاجات متنوعة.

ولقد أصبحت فانتين بفضل تلك الدروس بارعة فى فن الحياة فاستغنت عن النار فى الشتاء وعن اللحوم فى الطعام وعرفت كيف تجعل من ثوبها غطاءها ومن غطائها ثوبها، وأدركت كيف تقتصد ضوء شمعتها فتأخذ طعامها على ضوء الشفق أو على أشعة النور الذى ينفذ من طاق جارها وكانت تقول لجارتها وهى تحدثها: «إنى لأقضى عامة النهار وثلثى الليل وأنا أخيط، فأكاد أصيب بذلك ما أتبلغ به من الخبز اليسير، وإنى بحمد الله حزينة القلب كسيرة الخاطر ومن كان حاله كحالى من الهم، كان خليقا أن لا يتناول غير القليل من الزاد، فأنا أتبلغ بذلك الخبز اليسير وأئتدم بهذا الهم الكثير، وأجد منها غذاء أمسك به النفس، وأحفظ به الحياة»!

وفى تلك الضائقة التى يخرج احتمالها عن طاقة البشر كانت تمر بفانتين ذكرى طفلتها، فتجد لذلك سرورا لا يعادله عندها شىء فيدعوها الشوق إليها إلى طلب

---

(١) الحوباء النفس.

(٢) الخلة بفتح الخاء الحاجة.

استحضارها من ذلك النزل ولكنها تراجع نفسها بقولها : «أى ذنب جنته تلك الصغيرة حتى يقضى عليها أن تشاطرنى هذا البؤس، وهب أن هذا الذى أنا فيه لم يكن بؤسا فمن أين لى نفقة الطريق ووفاء ما علىّ من الديون لأصحاب النزل حتى أستخلصها من أيديهم ؟ إن هذا الأمل بعيد» .

وكانت تلك المرأة التى علمتها دروس الحياة من ذوات النفوس العالية، وأهل العفة والقناعة تسدى المعرفة إلى الفقير والغنى، وتفعل الخير لأجل الخير، ولا تعلم من الكتابة غير رسم إمضائها وتقول إن الله موجد ولا تعرف غير ذلك. وكم من فضائل كامنة فى نفوس أمثال هؤلاء الذين نزل بهم الدهر إلى الحضيض ستعلو بهم ذات يوم إلى عنان السماء، فإن لكل يوم غدا .

ولبثت فانتين كثيرة الخجل شديدة الحياء من نظر الناس إليها، وهى على تلك الصورة من خفة الحال ومظهر العوز والاحتياج، فلزمت بيتها زمنا طويلا، وكانت إذا دعتها الحاجة للخروج لابتياع شىء أو قضاء أمر مشت فى الطريق وهى كاسفة البال تود لو ساخت بها الأرض لتختفى عن أنظار المارة، وكانت تشعر كأنهم يترسمون بالنظر مواقع أقدامها ويشيرون بالأصابع إلى رث ثيابها، فتغض من نظرها، وتحثث قدميها للهروب من تلك النظرات التى اخترقت إهابها وأدمت فؤادها . ولو كانت تلك البائسة بباريس لما لفتت إليها نظرا ولا استوقفت ناظرا ولأرخت عليها ظلمة الفقر سدولا تحجبها عن العيون، ولكن فى أمثال تلك القرى الصغيرة قل أن يجد الناس ما يشغلهم عن مراقبة الناس .

ومرت على فانتين ثلاثة أهلة وهى تروض نفسها على احتمال ذلك الازدراء كما راضتها على احتمال مرارة الشقاء حتى نضب ماء الحياء من وجهها وزال ذلك الشعور من نفسها ، وصارت تمشى فى الطريق وهى طارحة رداء الخجل لا تبالى بتلك النظرات ولا تحفل بهذه اللفتات، وكانت تلازم ثغرها ابتسامة الله أعلم بما يمتزج بها من غضاضة الحياة، وتنأى بجانبها عن الناس شامخة الأنف عالية الرأس .

وكانت كلما لمحتها مدام (فيكتريان) حاسبها الله وهى تمرح فى قد[1] تلك الخلة والضيق ، وتمشى هذه المشية فى الطريق، حمدت مغبة عملها وأثنت على نفسها إذ حالت بين تلك البائسة وبين الهناء وردتها بفضل سعايتها إلى ذلك الشقاء، ومن الناس من لا يجد سروره إلا فى ألم غيره .

نفوس فطرت على الشر فلا يصفو لها مورد السعادة ما لم تشبه شائبة من الأذى .

* * *

قلنا إن فانتين كانت تقضى عامة النهار وثلثى الليل وهى عاكفة على العمل فلم تزل تلك حالها حتى أوهن الإفراط من عزمها وزاد فى ذلك السعال الذى كان جالسا فى صدرها فاشتدت بها الضائقة اشتدادا يغرب معه الصبر ولكنها كلما مشطت عند الصباح شعرها بذلك المشط الذى أسقط الدهر أسنانه، فكان أشبه الأشياء بثغر الأدرد[2] فنظرت جمال فرعها المرسل إرسال الحرير، اختلست رقدة من عين الدهر ومدت يدها لمصافحة السرور .

وكانت قد خرجت من المصنع فى أخريات الشتاء فانصرم الشتاء وانطوى على أثره الصيف ودار الفلك دورته، فإذا الشتاء التالى يقرع باب فانتين قرعا ينذرها بيوم قصير وجو مطير وضباب مقيم وأفق مظلم ونهار يعثر صباحه بمسائه، وليل يجهل أوله آخره وشمس رمداء، وسماء مكفهرة الأرجاء، وعيش كثير المئونة، وفصل هو حرب الفقير وهلاك الضعيف، يقل فيه العمل وتكثر النفقة فتطلب المعدة الغذاء والجسم الرداء، ويتلمس المقرور النار ويضيق بصاحب الكفاف رحب الدار .

فصل يحول الأفئدة إلى صخور، ويرد السائل إلى جماد قد دهم فانتين وهى بين الخلة[3] والقلة فزاد فى دينها وكساد حرفتها، فسقطت عليها مطالب الغرماء سقوط

(١) القد هو القدر، والقامة .

(٢) درد الرجل ذهبت أسنانه، فهو أدرد

(٣) بين الحاجة والجدب .

القضاء ، وألح صاحب النزل قاتله الله فى طلب النفقة والتماس الزيادة فيها حتى زهدت فانتين فى حياتها وحبب إليها قرب يومها .

وجاءها منه ذات يوم كتاب يذكر فيه أن ابنتها أصبحت عارية الجسد، وأنها إن لم تتداركها بإرسال أربعين قرشا لابتياع لباس لها، فهى هالكة لا محالة. فوقع ذلك الكتاب فى نفس فانتين وأحزنها طول يومها، ولما كان المساء انطلقت إلى حانوت حلاق، فوقفت أمامه ونزعت ذلك المشط الذى كان يمسك شعرها، فانسدل على ظهرها وستر أردافها، فصاح الحلاق : لله ما أجمل ذلك الشعر! فقالت فانتين : «انظر كم تدفع من الثمن إذا بعتكه» قال : «أربعون قرشا» قالت : «عجل بقصه» فقام الرجل إلى مقصه، وأهوى به على شعرها وأعطاها الثمن فاشترت به لساعتها لباسا وبعثت به إلى طفلتها. فساء ذلك صاحب النزل وأغضبه لأنه كان يطمع فى الدراهم لا فى اللباس. فأعطاه إلى إحدى بنتيه وبقيت كوزيت فى جلدها تقضقض من البرد وترتعد من الجليد، كل ذلك وأمها تظن أنها باتت تمرح فى ذلك الكساء الجديد، ولا علم لها بما تقاسيه من ذلك الألم الشديد .

* * *

وكانت فانتين كلما أحست بألم فراق شعرها، وجدت لذلك بعض العزاء لأنها لم تفقد ذلك الشعر إلا لتحفظ حياة تلك الطفلة .

وتمر بها ساعات تذكر فيها حسن شعرها فينقبض صدرها ويمتلئ حقدا على ما يحيط بها ويمتد ذلك الحقد حتى يتناول (مادلين) ذلك الذى كانت تشاطر الناس محبته بالأمس، وقد أصبح اليوم من أبغض الناس إليها لكثرة ما سمعت من أنه هو الذى أمر بإبعادها، وأنه أصل شقائها وسبب بلائها .

وكانت كلما مرت أمام ذلك المصنع تكلفت السرور والابتسام وجعلت تغنى غناء رخى البال رضى الحال توهم بذلك أهل المصنع أنها اليوم أنعم بالا منها بالأمس ، وما

خفى عن أصحاب المصنع أمرها فقد قالت إحدى عجائز الأجيرات حين لمحت فانتين وهى على تلك الحال : «ويل لهذه الفتاة من سوء المصير» .

وما زال الشقاء يجر على فانتين الشقاء حتى حدثت نفسها أن تتخذ لها عشيقا جديدا، وقررت أن يكون أول من تلقاه فى طريقها كائنا من كان. فوقف نصيبها على موسيقار، رقيق الحال غليظ القلب عاطل يتكفف، وسائل يستكف لا يعرف العشق ولا يفقه معنى المداعبة، فطارحته فانتين حديث الغرام فلم تره يحن إلى شىء من ذلك، على أنه ما لبث أن هجرها بعد أن ضربها ونهرها .

فخلا فؤادها من كل حب إلا حب طفلتها، فأنت تراها فى ظلمة ذلك اليأس كنجمة تلمع فى سماء آمالها، نقول «آمالها» لأنها كانت تخلو بنفسها فتحدثها بتلك الآمال التى تلوح لها بوارقها فى جو الخيال .

ولو وقف بؤسها عند هذا الحد لأطاقت حمله، وكلن صاحب النزل كان يزيد فى ألمها ويروعها كل يوم بطلب جديد كتب لها أن ابنتها مريضة محمومة، وأنها إن لم تسارع بإرسال قطعتين من الذهب لوقايتها وعلاجها فإنه يخشى عليها عادية الموت. لا تسل عما حل بها حين أخذ نظرها ذلك الكتاب فقد خرج بها من الألم عن حد الإدراك، فجعلت تضحك وتهذى، وخرجت تطفر فى الطريق طفر الأطفال، وتضحك ضحك الأبله المعتوه وتقول لنفسها : «قطعتان من الذهب .. اللهم غفرانك .. إن هؤلاء القوم لا يعقلون! ..» .

ولم تزل كذلك حتى وقفت على لفيف من الناس قد التفوا حول طبيب الأسنان وتنقيتها ونزع المتآكل من الأضراس وغير ذلك. فاندست فانتين فى غمارهم وهى لا تزال على ذهولها تضحك ولا تعى، فصاح الطبيب حين لمح لؤلؤ ثغرها: «أتبيعيننى أيتها الفتاة ثنيتيك بقطعتين من الذهب» قالت فانتين : «وما الثنيتان أيها الطبيب ؟» قال : «هاتان اللؤلؤتان اللتان تلمعان بمقدم ثغرك» فصاحت فانتين : «غفرانك اللهم إن هذا لهو الضلال المبين»، وكانت بجوارها عجوز درداء[1] تسمع كلام الطبيب فقالت تكلم نفسها : «قطعتان من العظم بقطعتين من الذهب ؟ لله ما أسعد تلك الفتاة!». على أن

(١) سقطت أسنانها .

فانتين لم تكد تسمع كلام ذلك الطبيب حتى رجعت أدراجها وقد سترت لؤلؤ ثغرها بمرجان شفتيها ووضعت أصبعيها في أذنيها كي لا يصل كلامه إلى سمعها ، وهو مع ذلك يصيح في أثرها : «أيتها الحسناء تمهلي في الأمر واستوزعي فؤادك يلهمك القبول، واعلمي أنك لم تغبني فيما عرضناه عليك من الثمن فإذا كان المساء فأغضينا بدارنا بمكان كذا» . فوقع كلامه في أذنها برغم أصابعها، وزاد في نفورها، فانطلقت حتى إذا بلغت دارها عطفت على جارتها العجوز، وهي أشد ما تكون غيظا، فأخبرتها خبر الطبيب وما كان منه، وقالت : «لقد بعنا الشعر لأنه يعود فينمو، ولكن ما حيلتنا في الأسنان ومفقودها كما تعلمين لا يعود وهي حلية الثغر ونقطة دائرة الجمال»، ثم غادرتها وانكفأت إلى حجرتها، وعكفت على خياطتها ولم تكد تستقر في مكانها حتى ندرت الإبرة من يمينها، فقامت مسرعة إلى ذلك الكتاب المشئوم وأعادت قراءته ورجعت إلى جارتها تسائلها عن معنى تلك الحمى ونتائجها، فقالت لها : «إنها مرض من الأمراض يعتري الكبير والصغير وهو اليوم أكثر وقوعا في الأطفال» فقالت فانتين : «وهل يجر هذا المرض إلى القبر؟» فقالت : «نعم يجر إلى القبر إذا تخلت عن المريض العناية» فخرجت فانتين من عندها وقرأت الكتاب مرة ثالثة ولبثت بقية يومها نهبا للهواجس. ولما توفي الليل النهار رآها بعضهم وقد أخذت طريقها إلى دار ذلك الطبيب، فانتزع اللؤلؤتين وحباها بالقطعتين. ودخلت جارتها في صباح الغد مبكرة إليها فألفتها جالسة فوق سريرها وهي شاحبة اللون، ساهية الطرف، تنطق بوجهها آثار السهر، ويدل تضعضع حالها على أثر نزاع قام بينها وبين ليل كان أطول من شعرها، وأسود من حظها، وعلى القرب منها شمعدان قد فنيت شمعته، وخلفت على جوانبه شباكا من دموع أسالها اللهيب وجمدها القر .

وتقف جارتها أمام ذلك المنظر الذي يقطع نياط القلوب جزعا وتنادي : «ويلي عليك أيتها البائسة تشعلين الشمعة كلها في ليلة واحدة فما عسى يكون قد نزل بك من الأمر، ومالي أراك كأنك قد انتفضت من كفن أو أفلت من ظلمة رمس!» فالتفتت إليها فانتين وقد أهرمتها تلك الليلة الماضية، فأخذت من سباتها وبلغت منها ما لم يبلغه كبر الغداة ومر العشي عشرة أعوام كاملة، فتقول لها : «ليس بي بحمد الله من شيء، ومن هو أولى براحة البال مني ؟ قد أمكنني الله من إنقاذ طفلتي من يد الموت بهذا الذهب».

وتنظر جارتها وهج الذهب بجانبها، فتصيح : «اللهم إنها ثروة، فمن أين لك هذا، وقد عهدتك بالأمس لا تعرفين وجه الفضة؟ » ، فتبسم فانتين ابتسامة تنم عن لعاب دام قد لوث ركني شفتيها وثغرة مظلمة فى وسط ذلك الثغر المضىء، فتعلم جارتها كما علم القارئ أن تلك الثغرة المظلمة هى مكان تينك اللؤلؤتين .

* * *

وانطوى خداع صاحب النزل (برئت منه المروءة) على فانتين، فوجهت إليه بطلبته ولم تكن طفلتها مريضة كما يرجف، ولكنه شرك قد مده لاصطياد دراهمها حتى سلبها عسجد شعرها، ولؤلؤ ثغرها، وأصبحت عطلا من الحلى والجمال، فكسرت تلك المرآة التى كانت تجد فى النظر إليها بعض الهناء أيام صحبتها شعرها، وتحولت عن قاعتها بالطبقة الثانية إلى قاعة أخرى بسطح المنزل قد أعدت لسكنى البائسين، وكانت ذات سقف مسنم يرتكز وجهاه على وجه الأرض إذا دخل فيها ساكنها البائس انحنى تحت سقفها انحناءه تحت أثقال العيش وأعباء الحياة .

ولم تكن تشتمل على غير خشبة قد طرحت على الأرض وخلقة[١] كانت تسميها غطاء، وكرسى قد نزع تقادم العهد أحشاءه، وجرة كنت ترى الماء فيها تارة سائلا وأخرى جليدا، وزهرية قد جف طينها وذبل زهرها، وفتاة قد نزعت نقاب الحياء وعافت زينة النساء تخرج فى الطريق وعليها ثوب خلق رديم ممزق الأديم قد أهملت رتق فتوقه، وأغفلت سد خروقه. وما أدرى أكان ذلك لضيق فى وقتها ولعدم اعتناء منها بأمرها، وهى تنتعل حذاء قد كشر عن نابه، تحت جورب قد نصل عن خضابه يحيط بخصرها نطاق بال مرقع، يكاد إذا تنفست فيه يتقطع وتنكفئ إلى غرفتها وقد بضع الهم من فؤادها بضعة ، وعبست الخيبة فى وجه أملها، واشتد الأمر وضاق، وتقابلت حلقات الوثاق، وسطا عليها سعالها سطوة الجبار، ولزمها ملازمة غرمائها بالليل

(١) قطعة قماش بالية .

والنهار، فتقضى فحمة الظلام، منفرة المنام سميرة الآلام، حاضرة الدموع غائبة الهجوع، وتفنى شمعة النهار بين وخز الإبر ووكز الفكر وقد قدر عليها الله الرزق فأجراه لها من سم خياطها، وهبطت أسعار الأجور فنزل أجرها فى اليوم من اثنى عشر صلديا إلى تسعة فاستحال عليها إمساك الرمق بهذا القدر اليسير. على أن طفلتها وحدها كانت تكلفها فوق ذلك، ولو وقف بؤسها عند هذا الحد لقلنا خطب يهون، ولكن صاحب النزل قد خرج عن أفق الاعتدال فأرسل يطلب منها أربع قطع ذهبية ويقول لها فى كتابه : «لقد عنينا بأمر طفلتك وصبرنا منك على ما تعلمين فإن لم تسارعى بإرسال هذا القدر من المال نبذنا (كوزيت) بالعراء ، وطرحنا بها فى مساقط القضاء، فهى أن أخطأها برد الشتاء، فليس يخطئها نازل البلاء، ولقد أبلت اليوم من مرضها، ولكنه إبلال يعقبه الموت إن فاتك فى أمرها الفوت» .

فما الجرح ينكأ به الجرح بأوجع فى نفس الجريح من ذلك الكتاب فى نفس فانتين، فإنها قالت بعد تلاوته: «اللهم إنك تعلم أننى بعت الشعر والأسنان بيعة وكس، وصبرت حتى ملنى الصبر، وقد كانت لى صبابة عيش تكفينى السؤال فما زالت ترتشف منها الحاجات حتى أنضبتها، اللهم لم يبق إلا العرض، وقد أمست تساومنى فيه الأيام، فلا راد لقضائك، ولا مذهب من ورائك»...!

* * *

أبى قدر الله إلا أن تمزق الفاقة ثوب ذلك العفاف وأن لا تركب فانتين غير سبيل الخسارة، فابتذلت خدرها، وباعت عرضها، وعرض منها البؤس على هذا المجتمع الإنسانى أمة فاشتراها. عرضها عليه فى سوق الألم فابتاعها بكسرة من الزاد، وكان فيها من الزاهدين، فأف لتلك المدنية غلبت الناس على أمرهم، وزادت فى أسرهم. ولا زلنا نسمع على هذه المدينة آيات المدح والثناء، وتطن فى آذاننا أصوات المرجفين فى أنحاء البلاد، برفع الرق والاستعباد، عن رقاب العباد. أين كتاب السيد المسيح وأين ما جاء فيه من الحكم الصريح؟. طليتم وجه مدنيتكم بطلاء من كلماته، وأفرغتم فؤادها من حكمه وعظاته، فتناول حكمه منكم الظواهر، ووقف عن تناول ما

فى السرائر .. أوهمتم الناس بانطواء أجل الرق، وفاتكم أنه وإن خف حمله عن أعناق الرجال، فقد باتت تنوء بثقله أعناق النساء .

تملق المرأة فتجوع وتعرى، فتركن إلى الصبر والتجمل فيضيق عن ذلك ضعفها، فتفزع إلى السعى وراء الرزق من أشرف وجوهه فيقعد بها الدهر، فتبيع الناس نفسها، فيتنافسون فى المساومة، حتى إذا أظفروه بامتلاك تلك النفس المعروضة فى سوق الشقاء، سجلوا عليهم فعلتها تلك فى باب الزناء، وتغاضوا عن تسجيلها فى باب الرق وهو بها أحق وهى به ألصق .

ويل للمرأة من الرجل يسترقها . وما يدريه ما المرأة. هى وعاء النسل وظرف الحمل، هى زينة الحياة، وزهرة الجناة، هى بيت الجمال وموطن الدلال. هى مسكن الضعف ومهبط العطف، فبالله ما أكثر مخازى الرجال ذلك مثل فانتين فى ابتذالها لخدرها بعد أن نزلت من المكروه منزلة ينقطع العقل عن تقديرها ويجمد الذهن عن تصويرها، وبعد أن أنذرها الدهر بالانسلاخ عن هيئة العالم وأنذرها العالم بالخروج عن دائرة الوجود، فتسكعت فى الضلالة وتبسطت على الإثم، وتمرغت فى حمأة الغى، فخوى هيكلها من روح الشعور، وكتب اليأس على لوح صدرها المثلوج وقول ذلك الحكيم : «لا رغبة ولا رهبة»، فأصبحت لا تخشى نازلا، وأمست لا ترجو نائلا، وباتت لا تبالى لأنها ما انتفعت بأن تبالى .

مر بها زمن وهى تصابر القضاء، وتنازع الشقاء، وتعانق الخطوب وتصافح الكروب، وتصبر على ذلك صبرا، كان أشبه بعدم المبالاة من الحمام بالمنام، فلم تنتفع بصبرها، ولم تخرج من عسرها، فما عساها تحذر اليوم وهى كالإسفنجة سكن الماء أحشاءها وغمر أنحاءها سيان إن طاف بها المحيط أو سقط عليها الندى! .

* * *

توجد بعامة القرى الصغيرة، وخاصة القرية التى تسكنها اليوم (فانتين) طبقة من نشء الشبان العاطلين الذين يعيشون من وراء دخلهم السنوى، وإن أحدهم ليظهر بين

أهل القرية بمظهر من الترف والنعيم لن يبلغه ساكن بارين، أو ينفق أضعاف ما ينفق ذلك القروى، وقد جمعت هذه الطبقة فى قريتنا تلك من أمثال هؤلاء العاطلين عددا كبيرا فتراهم يجلسون فى صدور المجالس، وقد نفخ شيطان العظمة فى معاطسهم، فجعلوا يتفاخرون بما ملكت أيمانهم : فمن تياه بكثرة رجاله، ومن مدل بوفرة ماله، ومن معجب بحسن سمعته وهندامه، ومن مولع بالتفنن فى أساليب كلامه : يتحرش أحدهم برجال الشرطة فيحفظهم بتعنته حتى يجر الأمر إلى المشاجرة، فيقال فلان لا يعبأ برجال الحكومة، وينطلق الآخر إلى التصيد والاقتناص كى ينوه بذكره فيقال انطلق النبيل إلى الصيد ومنهم من يتورن[1] ويتزين فهو أين خطر تأرج المكان بعطره واشتغل الناس بذكره، ومنهم مدمن الخمر ومدمن الجلوس فى الأندية حيث يفد السائحون .

نعم وفيهم المتغالى فى التقليد ، والمولع بالجديد، والذى لا يرى نفسه ظريفا إلا إذا قاد خلفه كلبا وازدرى بنوع النساء، فتأنق فى التعريض بهن واستهتر فى تقريعهن .

وكان الظرفاء فى هذا العهد يغالون فى البزة ويتأنقون فى الزى، وشارتهم يومئذ أردية زيتونية اللون مفضضة الأزرار، وأحذية تحيط بأعقابها أهلة من الحديد وبكل منها مهماز للجواد شأن الفرسان وعلى رءوسهم قبعات عالية البنيان كزة الأطراف، فوق شعر جعد كثيف، وبأيديهم عصى غليظة كأنها الجذوع. دع الشوارب الطوال، والزيق المرتفع، ومنديل الرقبة المرسل على الصدر .

أذكر من بين تلك الطبقة المفتونة شابا لم ينظر مدى عمره سماء باريز ولم يبرح دهره أرض تلك القرية - نشأ بين أفراد تلك الطبقة ففعل شرواهم وذهب مذاهبهم، وكان مثله كمثلهم : دخل قليل وعقل يسير، وسفه يوازنهما، ونزق يعادلهما .

اتفق أن وقف ذلك المغرور ذات ليلة أمام أحد الأندية وفى فمه لفيفة من الطباق، وقد انتشرت على وجه الأرض طبقة من البرد وتمر أمامه فانتين وهى عارية الأكتاف، وعليها ثوب قصير تتجمل به النساء فى المراقص، وكانت تلك عادتها منذ نصف عام .

(١) تورن أى تعطر فأسرف فى التعطر .

تعتمد الليل وتركب ذلك الطريق، فتقبل فيه وتدبر بعض ساعة كأنها حرسي يحفظ السبيل، أو جندى أذنب فكان عقابه السير فقو ذلك الجليد جيئة وذهوبا، ويتعمد ذلك المغرور كلما مرت أمامه إغاظتها ويتحرى إهانتها فيعبس وجهها بكسفة من دخان لفيفته ويرسل عليها شواظا من الإهانة والسباب فيقول : ما أبشع هذا الوجه وما أخلق حامل ذلك الثغر الأدرد بالانزواء عن أعين الناس، وتسمع فانتين ما يقول وكأنها لا تسمع فتنطلق فى طريقها وتواصل سيرها فيه قبالا وإدبارا، وهو فى مكانه يكاد يقطر غيظا .

ويحركه ذات مرة سكونها، فينطلق خلفها انطلاق الذئب خلف الفريسة، وهو يغت من ضحك المغيظ ويدانيها، فيهوى بيده إلى الأرض، فيقبض قبضة من البرد وينقض عليها فيدسه بين ثوبها وظهرها، وينتشر البرد من ملتقى الكتفين إلى مستدق الصلب، فتزأر فانتين زئير اللبؤة، وتنفتل انفتال النمر، وتنشب أظافرها فى وجهه، وهى تصيح من فرط الألم بصوت قد صحله إدمان الخمر وأبحه الحزن، ويفزع الناس لجهة الصوت فرادى وثنى ، فيرون رجلا عارى الرأس يضطرب فى يد امرأة مسلوبة الشعر والشعور والرجل يحرص على الانفلات والمرأة تحرص على إمساكه، وقد رنحته لطما ولكما وأتحفته بأنواع السباب والشتائم، فلم تبق فى اللغة كلمة تشير إلى بذاءة أو لفظة تدل على لعنة إلا ورمته بها من ذلك الثغر الأدرد .

ويقف الناس حولهما صفوفا وهم بين ضاحك وصارخ ومصفّق بيديه، وكلهم يتساءلون عن مثار تلك المعركة القائمة، ويبرز من تلك الصفوف رجل طويل القامة، فيجذب المرأة من نطاقها، ويصيح بها : «انطلقى على أثرى». وترفع فانتين عينها وترى شخص (جافير) فيخفت صوتها وتصفر أحداقها وتتزايل أعضاؤها وتمشى خلفه بين الذلة والانكسار، وينتهز الشاب تلك النهزة فيختفى وينقضى ذلك المشهد سار جافير يخترق الصفوف وعلى أثره فانتين وأخذ سمته إلى مخفر الشرطة، فلما بلغه أمر بالباب ففتح وبالشمعة فأوقدت وانتزع من جيبه ورقة وأنشأ فيها يسطر، وانزوت فانتين فى أحد الأركان كالكلبة راعها مروع، ووقف حول المخفر بعض المولعين بحب الاطلاع ممن شهدوا الحادثة وجعلوا يشرئبون بأعناقهم من وراء النافذة رجاء أن يلموا بجانب الأمر.

وكانت شريعة ذلك العهد تقضى بوضع تلك الطبقة من النساء تحت التصرف المطلق لرجال الشرطة، فهم يلعبون بهن ما شاء الهوى، ويصادرونهن فى حرفتهن

المنكودة وحريتهن الموهمة فأكب جافير على الكتاب وهو أشد ما يكون غيظا وما نسى القارئ ما كان من وصف أخلاق ذلك الرجل الذى ما نم قط ظاهره على باطنه ولا وجد التأثر إلى نفسه سبيلا، ولكنه قد غلب فى هذه الفترة على أمره فلاحت بوجهه ملامح الانفعال فأجمع كيده ومثل أمامه مدى سلطته، ونفث فى يراعه سم غيظه، فكان يكتب وحنقه فى عنفوان شبابه وجرم تلك البغى يتجسم أمام عينيه، حتى إذا فرغ من كتابته وتوقيعه نادى بثلاثة من الشرطة وأمرهم أن يقودوا فانتين إلى السجن، وقال لها : «ستلبثين هناك ستة أشهر»

فارتعدت فرائصها وهمت بالنهوض فخانها العزم فترامت تزحف بجسمها على بلاط قد طلته نعال الشرطة بطلاء من الوحل، وجعلت تضرع إليه وتستدر رحمته وتقول : «ستة أشهر؟ اللهم غفرا. إن فى ذلك لهلاكا لطفلة ليس لها سواى من عائل، فاتق الله فى ضعفى وراقبه فى حياة تلك الطفلة، ولو أنك ألمت بمبدأ الأمر لتضاءل فى عينيك منهاه، فاصرف نظرك تلقاء ظلامتى فإن كنت قد أجرمت بعدها فعلىّ إجرامى، وإنى لأستعدى بك على ذلك الشاب الذى وترنى على غير معرفة منى به – لحنى أسبهل[1] فى الطريق فجعل يتحرش بى وأنا أصابره حتى إذا أعياه الأمر عمد إلى قبضة من البرد فدسها بين ثوبى وظهرى على غفلة منى، فوجدت لذلك ألما أخرجنى عن حد الرشد، ففعلت به ما فعلت، وأنا بمنزلة بين الألم والذهول – وما ظنك أيها الحاكم العادل بامرأة مريضة يباغتها مباغت بمثل ذلك الأذى تحت هذا الليل فى هذا الشتاء؟ أتراها كانت تحلم أم تطيش؟ فإن كان بعض الطيش قد أدركنى، فإنما وقع ذلك لفرط الألم، وضعف التحمل .

ألا شاهد ممن وقفوا على الحقيقة يأتى فيظهر براءتى؟. ألا يعود ذلك الشاب الذى اختفى ، فأعتذر إليه من فعلى، وإن كان هو البادى بالإساءة؟ .. ألا منقذ لى من هذا السجن الذى سيجر إلى طرد طفلتى من النزل، فتموت تحت العراء؟ فيا ليت شعرى كيف أغذوها، وأنا لا أكسب فى السجن نصف ما قرره أصحاب النزل لقوتها؟ فلك الله

(١) اسبهل أى أقبل وأدبر فى الطريق لغير شىء وهو ما يسميه العامة «ضرب بلطة» .

أيتها الطفلة المنكودة ولى الله من بائسة نزل بها العسر إلى تلك المنزلة من الحياة. فوالله ما كان هذا الفحش من أمرى، ولكن هى الحاجة ترمى بصاحبها إلى مرامى الهلاك، فلا تفرط علينا وكن من الراحمين».

تقول ذلك بصوت خنقه البكاء وأنفاس قطعها الشهيق. كأنها محتضر قد أخذه النزع، وهى عارية العنق مفتولة اليدين وقد أشرق محياها إشراقا ظهرت معه فى أعلى مجالى الجمال - ولا بدع فإن الآلام إذا بلغت مداها انبعث من أثنائها نور سماوى وانبسط على وجوه أصحابها فبدلها تبديلا .

ولما فرغت من ضراعتها تماسكت حتى أمكنها النهوض، ثم دنت منه فقبّلت طرف ردائه. ولو أنها ضرعت كذلك إلى رجل قد قد من حجر الصوان قلبه ذاب لها رأفة، ولكنها قد صادفت رجلا بلا قلب، فهو لا يعطفه التوسل، ولا ينال منه التذلل .

أوتدرى أيها القارئ ماذا كان جوابه لها بعد الذى سطرناه تحت نظرك؟ كان جوابه أن قال لها : «لقد وعيت حديثك فانطلقى إلى السجن فبه حكمت عليك، وقد استحال غير ما حكمت، فلو أن ذلك الديان يتجلى اليوم لفصل القضاء لما قضى عليك بغير ما قضيت » .

قال ذلك ثم ولاها ظهره فجمدت فى مكانها وتحرك الجند. وإنهم ليهمون بجرها وما تصل أيديهم إليها، إذ وثب من جانب المخفر الأيمن رجل ملثم فحسر عن لثامه وصاح بهم : «مكانكم أيها الجند!» فمد جافير بصره، فإذا به يرى مادلين. فحياه تحية الكاره لرؤيته وقال بصوت الكاظم لغيظه : «عفوا سيدى الشيخ» . وما وقعت تلك الكلمة فى سمع فانتين حتى انتفضت فى مكانها فدفعت عنها الجند مهرولة إلى مادلين، ولما تبينت وجهه صاحت به وهى تغرق فى الضحك: «أهذا هو أنت؟» ثم بصقت فى وجهه وانقلبت إلى مكانها، فمسح مادلين وجهه وقال لجافير : «خل أيها المفتش سبيل هذه المرأة» .

كل ذلك يجرى وجافير ينظر وهو متهم لنظره ويسمع وهو مكذب لسمعه، وقد قرعت نفسه قارعتان ذهبت أولاهما بصوابه وفلت الأخرى غرب إرادته، فلبث فى مكانه برهة أعوزه فيها النطق وافترست طائر حلمه الدهشة والذهول - نظر امرأة تبصق فى

وجه شيخ جليل والمرأة من البغايا والرجل من أولى الأمر فاتهم للوهلة الأولى نظره وشهد بعد ذلك الرجل يمسح وجهه وهو أروح ما يكون بالا، ويأمر بإخلاء سبيل تلك المرأة فلم يصدق سمعه ولم تكن فانتين أقل ذهولا منه، فإنها لم تكد تسمع قول مادلين حتى دنت إلى الباب وجعلت تعالج فتحه وتتهيأ للخروج، وهى تقول كمن يكلم نفسه :

- أيسرحوننى فلا أسجن ؟ ومن ذا الذى يستطيع ذلك ولقد سمعت بأذنى الأمر بالسجن. ووعيت ما سمعت؟ فلئن كنت قد طرق سمعى بعده أمر بالإفراج فقد كذبتنى الأذن، اللهم إلا اذا كان جافير هو الآمر، أما ذلك الشيخ المريب فليس له من الأمر شىء، وما أدرى ما الذى حداه إلى الحضور، أو ما كفاه طردى من مصنعه وخروجى عن أفق العفة والصيانة وهبوطى إلى تلك المنزلة؟ ولقد كنت أعمل فى مصنعه، فأصيب رزقى بين العفة والكفاف، فأبى إلا أن يكون أداة للسعاية بى، فأخرجنى حين لا موئل ولا وجه للرزق، وحملنى بظلمه على ركوب تلك الطريق. ويعلم الله أنى ركبتها وأنا كارهة لركوبها، ولكنها سبيل مضطر عديم، ولولا ما حملنى أصحاب النزل من الديون واشتطاطهم فى طلب النفقة لتلك الطفلة ، وكساد الحرفة التى أزاولها، لتماسكت وإن زعزعنى الدهر، وبالغت فى تطفيف قوتى الأيام والليالى .

ويسمع مادلين شكواها فيضرب بيده إلى جيبه وينتزع منه كيسه. ويجده خاليا، فيرده إلى مكانه ويقول لها : «خبرينى كم مبلغ ديونك أيتها الفتاة؟» فتقول له : «إليك عنى أيها الرجل فلست بمحدثة معك ذكرا» ثم تلتفت إلى جافير فتحاسنه فى الخطاب، وتنتقص أمامه من قدر مادلين، وتشرح له سواد مغبتها إن هو أصر على حكمه وتستنزل عفوه، وتعوذ به من عقابه، وتنتهى بقولها :« ولا أحسبك بعد الذى عرفت من أمرى إلا غافرا زلتى متجاوزا عن خطيئتى» ثم تولى إلى الباب وتضع يدها على غلقه .

وتوقظ تلك الحركة جافير فيعود إلى نفسه ويخرج من جمود كان فى أثنائه كالصنم، ويصيح بالجند بصوت تمازجه نغمة القادر: «يا ويلكم ! أتفلت هذه الفاجرة من أيديكم وأنتم لا تشعرون ؟ ومن ذا الذى أمركم بتسريحها بعد أن أمرتكم بسجنها؟ يا ويلكم ! ردوها فلتقضين فى السجن أيامها رغم المعارضين!»

وكان مادلين مصغيا كل الإصغاء لما دار بينهما من الحديث، فالتفت إلى جافير، وقال له : «اعلم أيها المفتش أنى أنا الذى آمر بتسريح هذه المرأة، فلا سبيل لك عليها منذ الساعة، فإنى مررت بمكان الحادثة بعد انصرافكم، وتسقطت الخبر فأخبرنى بعض من شهد المبدأ والنهاية أن ذلك الفتى هو البادئ بالإساءة، ولولا تهاون الشرطة لكان هو الحقيقى بموقف هذه الفتاة » .

فقال جافير وهو يتكلف الكظم لغيظه ويغالب اضطراب نفسه : « إن تسريحها ليدخل فى باب الاستحالة ، فإنها أهانت فتى شريفا وآذت شيخا جليلا، فلئن كانت قد أعذرت فى الأولى فما عسى يكون عذرها فى الثانية؟»

قال مادلين : «أما عن الأولى فقد صدقتك الخبر، وأما عن الثانية فإن الأمر لمختص بى، والعقاب متعلق بإرادتى، فإما عفوا بعد وإما جزاء؟! »

قال جافير : « عفوا يا سيدى إن الأمر لا يقتصر على شخصك، ولكنه يتناول العدل كله، وبمثل هذا العمل وأشباهه ينكس العدل رأسه ويخترم سياج الشريعة»

قال مادلين : «اعلم أن العدل نوعان : عدل يجرى به الوجدان، وعدل تجرى به الشريعة. ومن كان صادق الوجدان، كان خليقا بالتوفيق إلى سبيل الحق. ولقد وفقنى الله إلى استبطان أمر هذه الفتاة، وألهمنى الوجدان براءتها. فلا يستطردن بك جواد العناد فى سبيل إيذائها، فإنك لن تنالها بسوء وأنا من الشاهدين» .

قال : «إنى لأرانى غير قادر على فهم ما أسمع وما أرى» !

قال : «فلتكن قادرا على الخضوع والتسليم».. !

قال : «إنى لأخضع للواجب وهو يدفعنى إلى وجوب الإصرار على سجن هذه الفتاة ستة أشهر» !

قال : «بل يدفعك إلى إخلاء سبيلها، فلا تسجن يوما واحدا» .

قال جافير : « أما وقد وقفت بى عند حد اليأس من إقناعك، فإنى لا أرى بدا من الانحراف عن صراط الطاعة، ولا يكبرن عليك أمر مخالفتى إياك، فإنى لأمادك حبل

المقاومة فى شأن هذه البغى، وما وقع لى قبل اليوم أن أقاوم مشيئة الرئيس . ولكن إلمامى بواقعة الحال وتثبتى من الأمر ودخول الحادثة فى دائرة اختصاص الشرطة التى أنا كبيرها - كل أولئك يدفعنى إلى سجن هذه الفتاة» !

وما كاد ينتهى من قولته حتى تقطب وجه مادلين بعد ذلك الانبساط وهبت من شمائله روائح السلطة فقال له بصوت سبقته إلى مخارجه الخشونة وامتزجت بأجزائه الحدة : «لقد أسمعتنى أن الحادثة تدخل فى دائرة اختصاص الشرطة التى أنت كبيرها . وأسمعك الساعة أن المادة التاسعة وأخواتها الحادية عشرة والخامسة عشرة والسادسة بعد الستين من قانون العقوبات، تقضى بأن أكون القاضى المطلق. فبناء على صريح تلك المواد أحكم ببراءة فانتين وأمر بتسريحها .

« وأزيدك بى علما وأذكرك بالمادة الحادية والثمانين من قانون ١٣ ديسمبر سنة ١٧٩٩ فهون على نفسك وابرح هذا المكان فحسبك ما سمعت » .

فاستقبل جافير هذه الضربة الأخيرة بصدر رحيب كما يستقبل الباسل من الجنود أسنة الرماح وانحنى حتى كاد يقابل الأرض بوجهه، وخرج وما ينظر ما بين يديه غمًّا . ومر (بفانتين) فالتصقت بعضادة الباب لتخلى له السبيل، ولبثت فى مكانها، كأنها بعض الأنصاب، وذهلت وحق لها أن تذهل لمنظر تلك المعركة التى قامت بين رجلين علقت بأذيال الأول نجاتها وكمن تحت رداء الثانى هلاكها - هذا يصعد إلى مراقى الهناء، وذلك ينزل بها إلى درك الشقاء وهى بينهما كالأكرة إذا قذف بها الثانى بها إلى ظلمة اليأس، ردها الأول إلى نور الأمل. كأن أحدهما ملك يكلؤها، وثانيهما شيطان يحاول أن يتخبطها بمس منه. وقد أنزل الله النصر على الملك فكان من الظافرين .

وعجيب أن يكون هذا الملك هو ذلك الشيخ الذى استرسلت فانتين فى كراهته وظنته أصل شقائها ، وسبب بلائها . على أنها ما لبثت بعد الذى قد رأته من محاسنته لها وعطفه عليها وتحريه سرورها بتسريحها ووقوفه فى وجه جافير تلك الوقفة التى قطعت على إرادته السبيل أن أخذت تحاسب نفسها وتقول : «لى الويل لشد ما كنت أنفر من ذلك الرجل، وأحمل ضب الضغن وأعزو إلى فعله سوء ما وصل إليه أمرى من

الفحش والتبذل ولقد وترته الساعة وترة يضيق عنها الحلم فصفح وهو قادر على غير الصفح، ولم يفتر نشاطه عن الذود عنى والمناضلة دونى. فلا أحسبنى بعد ذلك إلا واهمة فى أمره جاهلة مقدار خطره - أوليس الذى قد غلب جافير على أمره بقادر على أن يحول بلفظ منه بينى وبين الهناء، فأموت فى السجن حزينة، وتموت بموتى تلك الطفلة اليتيمة؟ اللهم إن هذا هو الخلق الكريم وتلك هى النفس الزكية »

كذلك كانت تحاسب نفسها وحقدها يتحلل فى صدرها ووجدها يستل من قرارة نفسها ذلك النفور الذى سكن فيها، حتى أصبح النفور ميلا والبغض حبا، حتى أدركتها الندامة على سالف فعلها وسوء ظنها بذلك الشيخ الجليل، فكاد يأتى على نفسها الخجل والحياء .

* * *

ولما برح جافير موقفه الحرج التفت مادلين إلى فانتين وقال لها وهو يغيض من عبرته، ويخفى من حسرته: «لقد وعيت ما تقولين وما كنت أعلم شيئا من أمرك، فما منعك أن تنفضى إلينا جملة حالك يوم أنذروك بالخروج من المصنع؟. ولو فعلت لأنصفناك . ولكن أبى الله إلا أن يجرى القدر بما شاء، فأنت منذ اليوم مكفية المئونة بى، فإنى كافلك وجامع بينك وبين طفلتك ورادك إلى طاعة الله بحفاظك على عرضك، وموف ديونك وبالغ بك أقصى ما تودين من العيش فلا تبخعى[1] نفسك أسفا على أثر ماضيك، فإن صح ما تقولين ولا إخالك إلا صادقة فيه، فإنك لم تخدشى وجه العفاف، ولم تعقى الفضيلة، وما كنت أمام ذلك المطلع على الأفئدة إلا طاهرة الذيل عفيفة الإزار» .

وما انتهى مادلين من قولته حتى تمثل لها مستقبل حياتها، فرأت جنة يميس فيها النعيم وتجرى من تحتها أنهار السعادة، ورأت نفسها وسط تلك الجنة تتبوأ مقاعد العفاف، وتتكئ على أرائك الصيانة وبجانبها طفلتها الوحيدة .

---

(١) أى لا تهلكى نفسك

وتزاحمت على نفسها جيوش الأمانى فخرج بها السرور عن حد الإدراك وترامت على يد مادلين تقبلها، ثم غابت عن الوجود فأمر بها مادلين، فحملت إلى دار المرضى التى أقامها بجوار داره. فأنيمت فيها، وأوصى بالعناية بها وانصرف إلى عمله .

وكانت الحمى تتمشى فى عظام تلك المغبونة فى نفسها فمر بها قطع من الليل وهى تهذى وتصيح ، ثم أخذها النوم فنامت حتى أظهر[1] النهار أو كاد، وشعرت عند يقظتها كأنها تسمع بجانب سريرها ترديد أنفاس، فكشفت جانب الستار، فإذا هى ترى مادلين باسطا ذراعيه شاخصا ببصره كالراهب المتبتل يضرع إلى شىء فوق رأسه، فأرسلت بصرها حيث يرسل بصره ، فعلمت أنه يضرع إلى صليب كان معلقا بأعلى الحائط فأكبرت رؤيته، وظهر لها فى هذا الموقف، كأنه هيكل من النور عليه حلة من التقى فكرهت أن تقطع عليه صلاته وأمسكت برهة، ثم قالت له بصوت يكاد يخفيه الحياء : «ما الذى يصنع سيدى هناك؟» فأجابها وهو يومئ إلى الصليب : «جئت أصلى لذلك الشهيد فى السماء». ولو أنصف لقال : «لتلك الشهيدة فى الأرض» .

وكان مادلين منذ الليلة الغابرة لا ينفك عن تعهدها والسؤال عنها فما يستقر فى حجرته إلا ريثما يعود لتنسيم أخبارها فبات بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها، ولا ينصرم عمرها، وانتابته الهواجس فما احتواه مضجع ولا التقى له جفن بجفن .

* * *

وننتقل بالقارئ من حجرة مادلين إلى حجرة جافير، فيرى رجلا قد أقامه الحقد، وأقعده الحرد[2]، يكاد ينشق غيظا ويقطر غضبا على أثر تلك الضربة التى تلقاها بصدره الرحيب فى مخفر الشرطة، ويراه وهو ينفث نفثة المصدور، ويململ تململ الموتور قد أمسك يراعا وأنشأ يسطر كل ما أملت عليه الموجدة وأوحى إليه الضغن .

---

(١) أظهر النهار إذا كان وقت الظهيرة .

(٢) الغضب الشديد .

وفى صباح تلك الليلة بكر جافير إلى صندوق البريد، فوضع فيه بيده ذلك الكتاب الذى سطره بحجرته، وعنوان غلافه إلى كبير الشرطة بباريس .

وما قرأ هذا العنوان قارئ وكان ممن يعرفون جافير وكتابته، إلا تنبأ أن الكتاب لا يشتمل على غير التماس الإقالة على أثر حادثة الأمس .

ولما استنار مادلين دفائن (فانتين) وعلم بحقيقة أمرها، وألم بأطراف تلك المؤامرة التى كانت سببا فى خروجها من المصنع ونزولها إلى تلك المنزلة من الحياة ، سارع بإرسال كتاب إلى أصحاب النزل يطلب فيه إشخاص (كوزيت) ووجه إليهم بقدر من المال يبلغ مثلى ما كانوا يطالبونها وأنذرهم بمرض الوالدة ولزوم المسارعة بإحضار الولد .

* * *

وسقط هذا الكتاب على صاحب النزل سقوط الندى، فقال لزوجه وهو يتهلل فرحا :

لقد در ضرع تلك البقرة العجفاء (يعنى فانتين)، وأكبر ظنى أنها ترتع اليوم فى ربيع عشق جديد فمن العجز تسريح هذه الفرصة، وما لنا لا نمسك الطفلة حتى نحتلب رسل ذلك الضرع. وهذا كتاب عاشقها الجديد ينطق عن ولع سطوره جداول يجرى فيها الكسب وتسيل السعادة، فاحرصى منذ اليوم على تلك القنبرة، واحذرى أن تطير فإن فى إمساكها إطلاقا لأرزاقنا» ، ثم قام إلى دفتر، فزور فيه كل ما زعم أنه أنفقه على (كوزيت) من أجر الطبيب، وثمن الدواء، وما زال يرصد الخبيث من أرقام الحساب ما يملى عليها الطمع، حتى نيف مجموع ما سطر على مبلغ ما أرسل مادلين وفى اليوم التالى وجه مادلين إلى أصحاب النزل بمبلغ آخر وطلب إليهم المسارعة بإرسال الطفلة فقال الرجل لزوجه : «ألم أنبئك بما سيكون من أمرهم، إذا نحن أحسنا حفظ هذا الكنز الثمين، فانظرى كيف لم يجد له عزما على الانتظار فثنى بإرسال النقود قبل أن نجيبه على كتابه، فلنمسكن الطفلة حتى حين» !

وكانت فانتين لا تزال على فراش المرض ينطفئ سراج حياتها شيئا فشيئا، ويدنو منها الموت يوما يوما، وقد أثارت تلك القبضة من البرد دفين دائها القديم، ففتك السعال بصدرها فتكا كاد يهدم جدرانه، ولولا تعلقها برؤية طفلتها للقيت ربها منذ حين .

وما خفى على الطبيب أمرها، فإنه أنذر مادلين بقرب أجلها وقال له : «إنى أراها هامة اليوم أو غد، فإن كان لها ولد ، فلا تحولوا بينهما وعجلوا باستدعائه إن كان من الغائبين، فإنكم لا تفرغون من ذلك حتى تفرغ من نفسها» فجزع مادلين جزعا شديدا، وأشفق أن تموت الوالدة، قبل أن ترى الولد، فقام لساعته إلى ورقة وكتب فيها إلى أصحاب النزل عن لسان فانتين يقول :

«إذا أتاكم رسولى حامل هذا، فادفعوا إليه (كوزيت) وهو يدفع لكم تلك الديون التى تزعمون مطالبتى بها » .

وأرتئى أن يكون هو الرسول إلى أصحاب النزل فوضع الكتاب فى جيبه وضحت عزيمته على السفر. فبكر من غده إلى دار حكمه، وجلس لإنجاز شغله وأراد أن لا يترك وراءه من خدمة الحكومة ما يشغله عن خدمة فانتين فتسلف الأعمال، وأنجز فى يومه ما يطالبه به الغد .

وإنه ليتصفح الأوراق وينظر فى الشئون إذ جرت جوار بالنحوس، وعدت عواد بالشرور، ووقع فى حساب القدر ما لم يقع فى حساب مادلين، فقيل له إن جافير بالباب يطلب الإذن بالدخول. فوالله ما لفظ أمامه هذا الاسم حتى مرت به خلجة من الشك تمازجها نزوة من الألم فتطير، وتضعضعت حاله وكاد يعجز عن المداراة، ولكنه رد النفس على مكروهها فاستقرت، وأذن لجافير بالدخول، وكان إذ ذاك جالسا بقرب المدفأة ينظر فى أوراق محاضر المخالفات ويعلق عليها ما شاء تعليقه .

ودخل جافير فوقف وسلم سلام الخاشع المستكين. ولبث واقفا وراء ظهر مادلين صامت اللسان ساكن الشخص ينتظر الإذن بالكلام.. كل ذلك ومادلين لم يرفع بصره، ولم يحرك جسمه كأنه لا يشعر بوجود ذلك الواقف ولو أن أحد أولئك الذين أوتوا علم السحنة يأتى الساعة وينظر إلى جافير وهو راسخ فى مكانه، وكان يكون من المخالطين له، والواقفين على أسرار طبائعه، والعالمين بتقلبات هذا المخلوق الذى بينا نراه فى

لباس الجندى المحارب، إذ هو فى ثياب الزاهد الراهب، لركن عند رؤيته، وتفرس فى مخائل سحنته أن هذا الجاسوس الصادق والناقل الأمين، قد نزل به نازل وحالت بينه وبين نفسه حوائل، وقال لأمر ما وقف عدو مادلين أمامه وقفة المستسلم المسكين، وعهدى به يتحين له الفرصة ويتمنى الغصة .

* * *

وفى الواقع كانت سحنة جافير تنم عما فى ضميره فما مر بخلجان قلبه شىء ولا سرى بقرارة نفسه وسواس، إلا وشفت عنه سحنته كما يشف الزجاج عن الماء .

قلنا إنه دخل على مادلين فسلم منحنيا ووقف محتشما وما زال واقفا خلفه موقف الجندى فى صفوف النظام لا تنبعث له جارحة ولا تطرف عين، وقد فارقت محاجره تلك النفرة وانجابت عنها ظلمة الشك، فامتزج بأشعة بصره نور الإخلاص وجال فى محياه ماء الخشوع، ونطقت ملامح وجهه عن صبر لم تشبه مرارة، وسكون لم تعره كلفة، حتى التفت إليه مادلين فرأى رجلا تبدو عليه سيما الانكسار، وتقرأ فى عينيه آية الحزن، قد احتشم احتشام الجندى أمام القائد، والمجرم بين يدى القاضى، فقال له : «ما خطبك أيها المفتش؟»

فلبث جافير برهة وهو صامت كأنه يدعو إليه حصاته، ثم اندفع قائلا بصوت تسمع فيه رنة من الحزن تشوبها عزة من الشمم :

جئت أنهى إلى سيدى خبر جريمة قد وقعت منذ اليوم. قال مادلين : «وما عسى أن تكون تلك الجريمة؟»

قال : «إن أحد عمال الحكومة الأدنياء قد رمى بعض سراة القضاة فى شرفه، وطعن عليه فى سمعته ، فدفعنى الواجب إلى رفع الأمر إليك». قال : «أتعلم من هما ...؟»

قال : «ما أعلمنى بهما. أما المقترف فأنا، وأما المقترف عليه فأنت»

وما وقع فى سمع مادلين الخبر حتى وقع فى نفسه شىء من الضجر، فتململ فى مكانه ، واندفع جافير فى حديثه فقال :

– إنى لأطلب إليك رفع أمرى إلى الحكومة لأنال من عقابها ما يكفر عن خطيئتى، ولا تعجبن لعدم التماسى الإقالة، فإننى إن فعلت ذلك خرجت خروجا. ولا يلحقنى معه العار. ولكننى خليق بأن أنزل منزلة المجرم الأثيم فأخرج ملوما مدحورا .

«ولقد كنت معى بالأمس غائب اللين حاضر الجفاء، وأنت من الحق أعزل، فلتكنه معى اليوم وأنت شاكر سلاح الحق ثاو بحسن الفضيلة» .

قال مادلين : «لقد جعلتنى بحيث أرى أنك أتيت عظيما وارتكبت جسيما ولا أذكر بينى وبينك أمرا يدعوك إلى قول ما أسمع منذ اليوم، ولقد أطلت فى اتهامك لنفسك، وبالغت فى وصف إجرامك فما عسى تكون تلك الفعلة التى تزعم أنك فعلتها؟»

قال جافير : «رميتك فى شرفك وخدشت وجه سمعتك فالتمست من كبير الشرطة بباريس إمساكك وسجنك. وذكرت له فى شقة رفعتها إليه أنك مجرم قديم، وأنك ضالة الشرطة التى تنشدها منذ حين، ولقد كتبت ما كتبت وقسطى ممتلئ من المرة[1] الصفراء، وغضبى يفور فوران المرجل على أثر حادثة تلك البغى التى غلبتنى عليها، ووقفت دونها تلك الوقفة التى قطعت على إرادتى السبيل» .

* * *

ويرجف قلب مادلين عند سماع قوله (مجرم قديم) ولكنه يتماسك. واستطرد جافير فى حديثه فقال : «وما حملنى على اتهامك أيها الشيخ إلا آيات شهدتها وعلامات تحققتها : رأيتك شديد العضل قوى الساعد سديد الرماية إذا رميت، ولمحت بأحد فخذيك فدغا، وقت تبينت منك الأولى يوم العجلة، وما نسيت ما كان من دخولك

(١) المرة بكسر الميم وتشديد الراء مادة الصفراء التى توجد فى مرارة الإنسان .

تحتها، وإنقاذك حياة ذلك الشيخ الفانى، وتحققت الثانية بتتبع آثارك وتسقط أخبارك وشهدت الثالثة فى مشيتك، فألقى فى روعى أنك (جان فالجان)».

وتسقط شعبة من مهجة مادلين لذكر ذلك الاسم ويندر[1] من أنامله اليراع الذى يمسكه فيقول وهو يغالب اضطرابه : «ومن هو ذلك الرجل؟». فيجيبه جافير «هو أحد أولئك الشطار الذين يعيثون فى الأرض، ولقد رأيته منذ عشرين حولا فى سجن تولون، وهو أشبه الناس بك، ثم زعموا أنه بعد انصرام أيام سجنه عالج السرقة فى بيت أحد العباد، وجنى فى الطريق على غلام صغير، فاغتصب منه ما أدرى أى شىء، ثم إنه اختفى بعد ذلك، فجدت الشرطة فى طلبه، وجد فى اختفائه حتى إذا شجر بينى وبينك الخصام فى أمر (فانتين) وخرجت من موقفى أمامك بذلك الخذلان، حملنى الغيظ منك على أخذك بهذا الرجل، ومثل لى الحنق أنك جان فالجان وكانت تلك الآيات التى ذكرتها لك من أكبر البواعث على اتهامك فلا تكن من الراحمين» .

قال مادلين وهو يبتسم ابتسامة الله أعلم بما يكمن فى أثنائها من المضض : «وماذا كان جوابهم على كتابك؟»

قال : «كان جوابهم على كتابى أن رمونى بالنزق والجنون وحسبونى محمقا، ولقد أصابوا فى رأيهم فىّ كما أصبت عين الخطأ فى رأيى فيك» .

قال : «لقد أحسنوا فىّ جوابهم، وأحسنت فى رجوعك عن وساوسك». قال : «وأعجب من ذلك أن الشرطة قد أمسكت طريدها وعثرت على ضالتها، ووقع جان فالجان فى قبضة الحكومة وهو اليوم بالسجن ينتظر حلول العقاب» .

فأخذت مادلين الرعدة وصاح من فرط ما به، وما يريد أن يصيح : «وكيف كان ذلك؟» .

قال : «قبضوا عليه وقد ظهر حائطا بإحدى الحدائق، واقتضب فرعا من التفاح، فسيق إلى المخفر والفرع لا يزال فى يده، ثم أودعوه سجن الاحتياط، وكادت تختفى حاله فلا تدخل جريمته تلك فى غير باب العقاب التأديبى ، لولا أن أراد الله له سوء العاقبة .

---

(١) ندر الشىء سقط يندر اليراع من أنامله يسقط .

«فاتفق أن سجن الاحتياط هذا كان عتيق البناء يريد أن ينقض على من فيه، فأمر قاضى التحقيق بتحويل أهله إلى السجن العام، وكان بذلك السجن رجل من أهل التشطر الذين شبوا وشابوا فى أعماق السجون، قد أكل سجن تولون شطرا من عمره وأوشك هذا السجن أن يأكل شطره الثانى - شهدوا منه فى آخر أيامه شيئا من الاستقامة، وحسن السيرة، فأقاموه سجانا ولما جئ بأهل سجن الاحتياط ولمح بينهم سارق العود صاح به :«ألا ترى أنى أعرفك أيها الرجل ؟ ألست جان فالجان رفيقى بالأمس فى سجن تولون؟ »

فقال الرجل : «اتق الله يا أخى .. فما أنا بصاحبك الذى ذكرت وإنما أنا (شاماتيو) .. »

ثم ظهرت عليه الحيرة وعراه الدهش وتظاهر بالبله والجمود - وقد يحسن أمثال هؤلاء أنواع المكر والخداع - فبعث كلام السجان الشك فى نفوس الشرطة ففحصوا عن أمره وراجعوا لوح أعماله فاهتدوا إلى معرفة الأرض التى نبت فيها، والحرفة التى كان يزاولها، فإذا هو مشذب للشجر قد اختفى أثره وانقرضت أسرته وكان آخر عهد الناس به فى قرية (فافيرول) وأجهدت الشرطة نفسها فى الوقوف على أثر تلك الأسرة فلم تفلح فعمدوا إلى البحث عمن كان معه فى السجن فى ذلك العهد فعثروا على اثنين ممن حكم عليهم بالخلود فى السجون، فأشخصوهما إلى حيث يوجد، فلم يلبثا أن عرفاه كما عرفه ذلك السجان .

«وصادفت الشكوى التى رفعتها بشأنك فراعهم منى هذا الأمر فكتبوا إلى ما كتبوا ورمونى بالنزق والتسرع، فكبر علىّ الأمر وقلت فى نفسى لعلهم خدعوا فى أمر هذا الرجل فتالله لأذهبن لأراه رأى العين، فرغت روغة فإذا أنا هناك فنظرت جان فالجان ورأيت نفس الرجل الذى شهدته فى سجن تولون منذ عشرين حولا ولم يعد عندى مجال للشك ولا مسرب للوسواس، وعلمت أنى جنيت عليك جناية يضيق عنها العفو، فلو أننى كنت موفقا فى العمل وكنت أنت مكان ذلك الرجل لسجل عليك الخلود فى السجن. وإنك لتعلم كيف يكون عقاب العائد إلى الجريمة وخاصة إن كان من أولئك المراقبين » .

قال مادلين وهو يتعلل بالتشاغل بالنظر فى بعض الأوراق ويقهر نفسه على التجلد والثبات: «ما لنا ولهذا الحديث فإن بنا من الاشتغال بشئوننا ما لا نفرغ معه إلى الاشتغال بأمر الغير – اذهب يا جافير إلى فلانة التى تبيع الخضر بزاوية المكان الفلانى، ومرها أن ترفع ظلامتها إلينا»، ثم أمره بأوامر أخر، فقال جافير : «وددت لو كانت لى فى الوقت فسحة، فأقوم بإمضاء أمرك فإنى على عزم الرحيل فى هذا المساء لأشهد غدا مع الشاهدين، فإن غدا اليوم سيكون له ما بعده يبرم فيه أمر جان فالجان، ويعلو الحق على الباطل وتفلت الناس من شرك ذلك الشيطان الرجيم».

فاسود فى عين مادلين ما بينه وبين جافير وقال وهو يتكلف السكينة : «أفى غد يخاصمون هذا الرجل ؟» قال : «نعم». قال : وكم يمتد أجل ذلك الخصام؟» . قال : يوم أو بعض يوم». قال : «حسبك». ثم أذن له بالخروج فلبث جافير فى مكانه وقال : إنى لأطلب إليك الاقتصاص منى» .

فرفع مادلين رأيه وقال : «إنى أرى فيك حصافة وأرى لك عقلا ومن كان مثلك كان حقيقا بالتكريم، وكان سبيله أن يعان على أمره، وأن يؤخذ بيده فى زلته، فلقد عن لنا أن نقرك فى وظيفتك ورأينا أن الأمر أيسر مما فى نفسك، فدع عنك هذا الإغراق فى الطلب واستغفر لذنبك إن كنت من الخاطئين». فرفع إليه جافير طرفا قد جال فى إنسانه الإخلاص ونطق عما يكمن فى نفسه من الوجدان. وقال بصوت قد استمد السكون من جأشه، واستعار الرقة من شعوره: «إننى لمجرم حقيق أن يؤخذ بجريرته، فلا أرى فىّ موضعا للسماح». قال مادلين : «إن كنت قد أجرمت فما وقع إجرامك على غيرى وما كان لأحد أن يخاصمك وأنا من الصافحين» .

قال : «عجبت لمثلك كيف يصفح عن مثلى، وقد حاولت الإيقاع بك وعملت على كيدك وسلب نعمتك، فخنت الاستقامة وعققت الفضيلة وأحفظت العدل، ولو أننى فعلت ذلك عن غير رغبة فى الانتقام لوجدت لنفسى السبيل إلى جميل العذر وقلت إنى شرطى، وللشرطى أن يشتبه ولا تثريب عليه إذا أخطأه التوفيق، ولكننى فعلته متعمدا ورميتك متقصدا، وإنى أشهد أننى كنت دانى القسوة نائى الرحمة لا أعرف التجاوز

عن الخطيئة ولا أعرض تلبيب[1] كل من انحرف قيد أنملة عن صراط الشريعة، فكيف أرضى اليوم لنفسى ما كنت آباه بالأمس على غيرها.. ونفسى كما تعلم أكثر النفوس حرمة علىّ، وأولاهن منى بحسن المناصحة.. أرأيتك كيف يجمل بى أن أنصب بدنى فى سبيل إصلاح الغير، وأنام عن تقويم ما أراه لنفسى من الاعوجاج؟ إنى إذن لمن الظالمين ! .

« على أنى لا أود أن يخرج بك كرم طباعك عن سبيل السداد، فأنتصر منك بك، كما انتصرت بك تلك البغى من ذلك الشاب. ولا نلبث على هذا القياس أن تشتبه علينا الأمور فيختلط السيد بالمسود والعبد بالمعبود فكن ماشئت رءوفا بالعباد، واجمع إلى تلك الرأفة صحبة العدل ، فإن فى ذلك ردعا للنفوس، وعزا للشريعة وخذنى بإقرارى ولا تطمع مجرما فى غير العقاب، فلكم كنت أقول لنفسى وهى تجد فى طلب الظالمين : جدى أيتها النفس فو الذى أنت بيده لئن انحرفت شعرة عن سواء السبيل لأكونن بك أول الموقعين » !

قال مادلين وقد فعلت به تلك الكلمات فعلها: «سننظر فى أمرك» ثم مد يده للسلام. فتقهقر جافير وهو يقول : «عزيز علىّ أن تصافح يدك الكريمة تلك اليد الأثيمة »، ثم ركع أمامه خاشعا واستقبل الباب. ولما بلغه انفتل إليه ثانيا وقال : «سأقوم بشئون وظيفتى حتى يأتى الخلف» . ثم ولى وجهه وغادر مادلين فى مكانه يلقى بسمعه إلى وقع تلك الخطوات المطمئنة .

لم تكن تلك الحوادث التى نسطرها للقارئ الكريم بواضحة الأثر فى القرية التى وقعت فيها، ولكن بعض ما علق بالأذهان من حدوثها قد ترك لها شبه الذكر فى النفوس .

فلو أننا أغفلنا ذكرها لخرج الكتاب، وفيه من الفراغ ما نلام معه على عدم الإتيان بما يسده، فها نحن أولاء نذكر ما وصل إلى علمنا من خبر ذلك الأثر، وإن كان فيه بعض ما لا يحتمل الوقوع، ولكنا نثبته هنا إرادة الوصول إلى الحقيقة .

(١) أخذه بتلبيبه : جره .

ذهب مادلين إلى فانتين يعودها، فى عصر اليوم الذى وقع له فى صباحه مع جافير ما وقع، وكان من عادته أن يغشاها فى حجرتها فوقف فى هذه المرة، وسأل عنها قبل الدخول ممن كانت تمرضها وكان ببابها اثنتان من المرضات الراهبات تدعى إحداهما (بربيتى) والأخرى (سمبيليس) وكانت الأولى من سكان الأطراف بالريف، ثم أصبحت راهبة لا لرغبة فى الزهد أو نزوع إلى خدمة الدين، ولكن لمجرد الاحتراف بما تصيب منه الرزق، فدخلت فى بيت الله دخول الخادم فى بيت المخدوم، واحترفت بذلك كما تحترف سواهـا من النساء بحرفة الطبخ، ولم يدعها الوجود فى الدير إلى فوق ما كانت عليه من الخشونة والتقشف بطبعها، شأن سكان الأطراف الذين لا يعرفون الترف ولا يألفون النعيم، ومن قارن بين حالة الراهب وعيش الفقير وجد بين تقشف الأول وخشونة الثانى نسبا قريبا وصلة غير مقطوعة، فلو شاء الناسك أن يصبح راعياً وأراد الراعى أن يمسى ناسكا لوجد كلاهما إلى قصده سبيلا ممهدا وما هو إلا أن يدخل أحدهما فى ثوب صاحبه .

وكانت تلك الراهبة شديدة القبض على دينها ذات لون يضرب إلى الحمرة وإقدام فى الأمور، وصلاح فى العمل، دائمة التسبيح كثيرة الترتيل وحشية اللهجة، وكان بأخلاقها بعض الشدة فهى جافية الطبع تغلظ القول للمريض، وتمزج له الأدوية بتلاوة الأوراد والأدعية، وتدعو للمحتضر دعاء يمترج به الغضب كأنها تستعجله قبل حينه بما يرجمه فمها من ذلك الدعاء .

* * *

أما الثانية فكانت ذات لون يغلب عليه البياض، فهى بجانب أختها كالشمعة بجانب الذبالة، ولقد وفق (فانسان دى بول) إلى وصف الراهبات فى تلك الكلمة التى جمعت بين عزة الحرية وذلة العبودية، قال :

«التواضع قناعهن، وخوف الله شعارهن، والطاعة حرزهن، قد اتخذن البيع للتهجد، ودور المرض للتعبد، وللمخاوف الطرقات، وللرياضة الحجرات» .

ذكرنا تلك الكلمة الجامعة فى سياق الحديث عند ذكر (سمبليس) ونزيد عليها فنقول :

يقف الناظر إلى تلك العذراء موقف الذاهل إذا سأله عن عمرها سائل، فقد كتم وجهها سر ماضيها. ولم يشأ أن ينم على آيتها فلم تنطق ملامحه على أثر لزوال الشباب، ولا عن خبر لقدوم الهرم. وهى قليلة الاكتراث، كثيرة الأناة، قد جمعت فى طباعها بين اللين والجفاء، فإنها لتلين حتى يكاد يعقدها العاقد، وتشتد حتى يخافها المعاند .. كثيرة الصمت، قليلة تزويق الكلام. تكره الفضول فى الحديث، فلا تنطق إلا بمقدار، وتحب الصدق حبا بغض إليها الكذب فى الجد والمزاح .

* * *

تلك هى صفات (سمبليس) وما كتبنا غير ما أملاه علينا لسان فضلها، وقد اشتهرت بذلك فى عالم الدين، حتى ضرب أحد الرؤساء بصدقها المثل فى كتاب بعث به إلى رفيق له فقال :

إنه ليجرى على لسان أكثرنا تقى، وأبعدنا عن المظنة شىء من الكذب، فيحمل منه ذلك على سبق اللسان بما لم يجر به الوجدان - ولا يدخل فى باب الإمكان أن تسقط من (سمبليس) سقطة من هذا النوع، فتكذب فى شىء كائنا ما كان، فإنها تعتقد أن الذى يمين فى الصغيرة، لا يلبث أن يستطرد به جواد المين فى الكبيرة، وتزعم أن الكذب من أسماء الشيطان، فهو عندها أحد اثنين : إما إبليس، وإما الكذب .

فلعل ذلك البياض الذى نراه بوجهها هو أثر ما أودعه الله من النور فى سريرتها، سريرة لو تمثلت لك أيها القارئ، لرأيت لوحا من البلور لا يعلق به الذر ولا يقف عليه الغبار، تلك هى الراهبة التى كانت تمرض فانتين وتبالغ فى محاسنتها وهى التى أوصاها مادلين بالعناية بها، وسألها عنها قبل الدخول فى هذه المرة ولما غادرها ودخل على فانتين وجدها ترتقب رؤيته ارتقاب المقرور شروق الشمس، فقالت حين لمحته وهى تغالب كبد الحمى ويغالبها: «أين كوزيت؟» . فقال وهو يبتسم : «إنها قادمة على

الأثـر» ثـم جلـس عنـدهـا يلاطـفها حتى استوفى عمر الساعة. وكانت لا تلوح بوجهه وهـو يحـادثهـا سيمـا الارتيـاح لما وقع فى نفسـه من كلام الطبيب الذى كـان ينذره بقرب حينها .

* * *

ولما قضى لبانته من النظر إليها انكفأ إلى حجرته، فتناول قلمه، وخط به فى ورقة بعض الأرقام، ثم خرج وأخذ سمته إلى دار رجل يكرى الخيل والعجلات فغشيه فى منزله وطلب إليه أن يكريه جوادا أصيلا، فقال الرجل : «وما تصنع به؟» قال : «أطوى عليه عشرين فرسخا» .

قال : «إنها لشقة طويلة فعلك تبتغيه مشدودا فى عجلة؟». قال : «نعم». قال : «وكم يكون ثواؤك بعد الوصول؟». قال : «ربما تجشمت السفر فى اليوم التالى». قال : «لتطوى فى الجيئة ما طويت فى الذهاب؟». قال : «نعم». قال : «إن عندى جوادا كهمك أيها السيد وهو الأبلق الصغير، وقد كان صعب الشكيمة لا يستقر فوق منكبيه راكب ولا يدانيه إنسان، فما زلت به حتى رضت جماحه وأسلست قياده فهو اليوم يسابق الأفكار إلى المقاصد، ولكنه يرغب عن السرج، وينزع إلى الجر فمن شاء أن ينتفع به فليرغب عن ظهره إلى جره» .

قال مادلين : «أتراه يحسن العدو ويطيل الشوط .

قال : «إنه لينهب المسافة التى تريد قطعها نهبا ويطويها خببا، ولا يجد لذلك تعبا. على شريطة أن تنفس عنه فى أثناء ذلك بعض التنفيس، وأن يكون معك من يشارفه عند أخذ علوفته ليرد عنه غارة أولئكم الخدام بالنزلات، وأن لا تحمل معك فى العجلة شيئا ثقيلا ودع رفق القائد الذى يقوده وعنايتك بالإشراف عليه. وأما أجره فى اليوم فلا ينقص عن ثلاثين فرنكا. وذلك سواء فى السفر والإقامة .

قال مادلين : «قبلنا شرائطك، فابعث به غدا عند تنفس الصباح» ثم ألقى إليه ثلاث قطع من الذهب. وقال : «هاك أجره ليومين» وخرج من عنده، ولكنه ما لبث أن عقب إليه

وسأله قائلا: كم تقدر ثمن العجلة والجواد إذا ساومك فيهما مساوم؟». قال : «أتنوى ابتياعهما؟». قال :«بل أريد أن أقف على الثمن خشية الطوارق فى الطريق». قال : «أربع وعشرون قطعة من الذهب». قال : «هاكها» ثم خرج ولم يعقب، ولبث صاحب الجواد فى مكانه يحز الودج أسفا على ما فاته من طلب المضاعفة فى الثمن، وجعل يقول : «ليتنى طلبت إليه أكثر من ذلك القدر، فإنى لأجحد منه ريح الاضطرار، ولكنها فرصة عرضت فسرحتها عنى بوادر العجلة» .

* * *

ذهب مادلين إلى مخدعه فلبث فيه بعض ساعة، ثم أخذ مضجعه ونام وشباب الظلماء فى عنفوان. وكان له صراف يقطن فى حجرة بأسفل مخدعه، فلما انتصف الليل أو كاد شعر هذا الصراف بحركة فوق رأسه قد قطعت عليه نومه، فاستيقظ وجعل يتسمع فسرى إليه صوت وقع لأقدام تقبل، وتدبر فى الحجرة التى فوقه، فتبينها فإذا هى أقدام سيدة، وما وقع له قبل الليلة أن يسمع فى حجرة مادلين حركة قبل الصباح، فعجب لوقوع ذلك فى مثل هذه الساعة من الليل، وقال لعلها لأرق نزل به، وزاد فى عجبه أن سمع صريرا بأدراج الدولاب، فاستوى فى سريره قاعدا وطرد من عينيه ما علق بهما من كسل النعاس ونظر من النافذة فلمح على الجدار الذى يقابله انعكاس أشعة فترسمها بالنظر، فإذا هى مرسلة من طاق الحجرة التى لسيده، فأدمن إليها النظر، فألفاها حمراء تضطرب على الجدار اضطرابا كأنما كان مصدر انبعاثها نارا تشب لا سراجا يضىء .

وكانت لا تلوح بها صورة ولا يتراءى فيها خيال، فعلم أن زجاج النافذة التى باتت تنبعث منها كان مرفوعا، ولما تحقق ذلك أهوى برأسه إلى الوسادة، وجعل يعالج النوم من جديد فاستغرق هزيعا من الليل، ثم تنبه فإذا هو يسمع وقع تلك الأقدام المطمئنة ويرى تلك الأشعة ولكنها قد عرتها الصفرة وعراها السكون، فأيقن فى هذه المرة أنها لم تكن منعكسة عن غير ضوء السراج .

وإليك أيها القارئ ما وقع منذ الليلة فى حجرة مادلين . وما لنا لا نقول فى حجرة (جان فالجان). وما غاب عنك أننا لا نعنى بهذين العلمين إلا مسمى واحدا .

كلمة فى سريرة الإنسان

نظرنا قبل اليوم نظرة فى مرآة تلك السريرة ثم صورنا للبصر ما لمحته عين البصيرة. وها نحن أولاء ننظر الثانية، وإن كان من وراء ذلك هزة للنفس ورجفة للفؤاد يقف أحدكم على شاطئ البحر المحيط، فتكبره عينه، وتعظمه نفسه فإذا انتقل بنظره إلى المساء أصغرت عينيه البحر وأكبرت نفسه المساء وإنه ليتضاءل فى عينه المشهدان، ويصغر فى نفسه الكونان إذا ما نظر بعين الوجدان فى مرآة سريرة الإنسان فإنك لا تجد مشهدا يحرك النفوس وتقف دونه مدارك الأفهام كذلك المشهد، فهو إذا أضاء ذهب سناؤه بالبصر وإذا أدجى أعيت ظلمته الفكر، وقل أن تستقر فيه عين البصيرة على شىء تلم بكنهه، أو تخترق حجاب سره لامتداد أمده وفرط غموضه فلو أنك حاولت وصفا لأدنى سرائر البشر، وعمدت فى ذلك إلى قرض الشعر والاستعانة بالخيال لأعوزك الوصف وأعجزك الوصول. اللهم إلا إذا نزعت إلى جمع ما قيل من القصائد والأناشيد منذ خط القلم إلى أوان العدم ، وأذبت الجميع فى بودقة الفكر، ثم استلت منها سبيكة شعرية يتناول حسنها ما وراء النفوس، ويجلو رونقها صدأ الخواطر .

فالسريرة هى ميدان الشهوات، ومهبط المخزيات، بل قارورة الغرور، وتنور الأحلام، وموطن المطامع، ومسرح الأباطيل، ألا ترى أنك لو ظفرت بأحدنا وقد لاحت عليه سيما التفكر والانشغال، ثم نظرت فى صورته كنت ممن يكشف لهم الغطاء عما يجول فى قراراة النفس، وخلجان الفؤاد، أما كنت ترى تحت ذلك السكون العميق حربا قائمة وخيالات مشتبكة ؟!

نعم إنه ليتمثل لعينك فى ضمير هذا الفؤاد ويتراءى لك بين دفتى ذلك الحيزوم ما سطره (هومير) وذكره ميلتون، وتوهمه (دانتى). ولقد طال بنا الوقوف أيها القارئ على ذلك المشهد العظيم، ونحن نتهيب طرقه ونكبر الدخول فيه، ولكنا سننشد منه، ونقدم على فتحه، وموعدنا الجزء الثانى إن شاء الله تعالى .

الجزء الثانى

الفصل الثالث

عاصفة تحت جمجمة
أو "فورة"

قدمنا بين يدى القارئ ما كان من أمر (جان فالجان منذ ابتز ذلك الغلام قطعته الفضية ، وقد رأى كيف حال [1] هذا الرجل إلى رجل آخر ، وكيف فعلت فى نفسه كلمات العابد أفاعيلها فاختطفته إلى المعبود ، وأخرجته من مسلاخ [2] الشرة [3] والضغينة ، وأسكنته فى إهاب من الفضيلة .

بدأ بالمبالغة فى الاختفاء والتنكر ، وثنى ببيع تلك الآنية الفضية ولم يبق منها على غير الشمعدانين [4] . ولعله أبقى عليهما ذكرة لذلك الصنيع .

وجعل ينسل فى سر [5] من الناس من قرية إلى قرية حتى مسح أرض فرنسا ، ودوخ بها كل مكان وألقى عصاه بقرية (منتراى سيرمير) وأدر الله له أخلاف [6] الرزق فأثرى ، ثم مكن لنفسه حتى جعلها بمنجاة من المطاردة .

ولبث ما شاء الله يرى أن السعادة فى يقظة الضمير ، فكان كلما بضع [7] الندم على ماضيه من فؤاده بضعة شعر فى نفسه بوفر تلك السعادة ، ولقد تكلفت حسنات الشطر الثانى من حياته بغسل حوبات [8] الشطر الأول.

---

(١) تحول .
(٢) جلد
(٣) الشر
(٤) فارسى معرب
(٥) أى خفاء
(٦) الثدى للمرأة والأطباء للكلبة والاخلاف للناقة
(٧) قطع
(٨) الحوبة الذنب .

وكان رأسه مضطرباً لفكرتين لا ثالثة لهما : أن يخفى اسمه وأن يقف حياته على الفرار من المخلوق والرجوع إلى الخالق . وقد امتزجت هاتان الفكرتان بعقله امتزاجًا حتى حالتا إلى شيء واحد ، أصبح له السلطان المطلق على إرادته ، فاستقرتا فى قرارة نفسه وتناولتا ما وراء وجدانه ، فهما اللتان دعتاه إلى الانزواء فلبى ، وإلى البر فمضى ، وإلى التقشف فأطاع .

وتمر به لمحات يقع فيها بينهما العراك فتدفعه الأولى إلى أمر وتثنيه الثانية عنه ، ولكنه ما كان يحجم لمحة عن إيثار ثانيتهما على أولاهما ، فهو يؤثر الفضيلة وإن جرت إلى هتك ستره ، على طمأنينة نفسه وثلوج صدره فى اختفاء أمره .

ألم تر إليه كيف غامر بنفسه يوم العجلة فأنقذ (فوشلفان) و(جافير) يلقى عليه نظرات تكاد تخرق شغاف قلبه ، وكيف لبس الحداد على العابد ، وإن طارت حوله فى ذلك الشبهات .

فقد قام بنفسه أن أول فرض عليه إنما يجب القيام به لغير شخصه . على أنه لم يشهد مشهداً لهذا العراك كان أشد هولاً وأعظم مراساً من ذلك الذى مر به حين دخل عليه (جافير) ولفظ أمامه ذلك الاسم الذى درج فى أثناء النسيان ، فاضطربت له نفسه من داخل الجسد استخذى عند سماعه وعجب لذلك الجد الذى لا يفارقه العثار ، وهجم عليه أمر فانحنى انحناء الدوحة تدانيها العاصفة أو الجندى يتهيأ للاقتحام . وهم وهو ينصت لـ (جافير) أن يطرح رداء التنكر ، ويطير إلى ذلك السجن الذى أودعوه (جان ماتيو) فيقتلعه منه ويحل محله ، ولكنه لم يلبث أن عاودته الأثرة ، فأكبر هذه النزعة النبيلة ، وتراجع أمام تلك البطولة .

ولو كان ممن تزكو (١) عنده العوارف لزكت عنده عارفة العابد ، ولغيرت منه تلك السنون التى طواها بين الزهد والتوبة ، ولغبر (٢) يمشى قدمًا بقدم مطمئنة وصدر مثلوج إلى تلك الهاوية المفتوحة أمامه فهناك عند قرارها قد ألقيت مفاتيح الجنة التى كان ينشدها .

---

(١) زكت العارفة أى أثمر الجميل.

(٢) مضى

نعم كان الأخلق به أن يكون ذلك الرجل ، ولكنه لم يكنه . وإليك ما كان يجول فى نواحى نفسه .

غمره عند الوهلة الأولى شعور المحافظة على النفس ، فخفض من جزعه وتصام عن نداء ضميره وأهاب [1] بحلمه حتى إذا ثاب إليه أضمر فى نفسه وهو ينظر إلى (جافير) أن يتلوم [2] بعض التلوم فى الحكم على مصيره .

ولبث سراة [3] يومه وعلى ظاهره من السكون طلاء وفى باطنه من الجزع صلاء [4] فلم يفكر فى ذات غيبه [5] ولا فى الأخذ بالحيطة مما عسى أن ينزل به من العوادى. ولا بدع فقد تخونه الحزم وقرعه (جافير) بقارعة أطارت صوابه وزلزلت أركان نفسه وكان مبلغ علمه بحالته أن أصبح تحت كلكل كارثة لا يدرى متى تفلته .

* * *

انكفأ إلى حجرة (فانتين) يعودها وجلس على مقربة من فراش آلامها وأطال الجلوس، فقد كان على نية سفر لا يعرف أمده . وعلى أنها نية مبهمة لم يضرب فيها رأيًا ولم يستشر عزمًا ، فقد مرت به الفكر أبابيل [6] وهو لفرط خياله ، لا يكاد يميز بين صورها .

وما أدرى أكانت به نفسه أم كان به ذلك السجين أم تلك المحتضرة أم وليدتها المنبوذة بذلك النزل ، فكان يقول فى نفسه ما ضرنى ألا أريم [7] مكانى فأرقب مواقع القضاء فى الحادث وأنا وادع لا تسمو إلىّ الخطوب ولا تلتفت الظنون ، وهذه عجلة (سكوفير) تحت يدى فمتى أحسست الشر ركبت عليها النجاة .

---

(١) صاح
(٢) يتأنى
(٣) طول
(٤) الصلاء النار
(٥) ذات الغيب المستقبل .
(٦) جماعات .
(٧) أبرح .

حضر بعد ذلك وقت طعامه فأصاب منه إصابة مقدرة . ثم دخل مخدعه وهو مذهوب به ، فخلا إلى نفسه وأنعم التفكير وجعل يقلب وجوه الرأى فتعاظمه الأمر وأخذت عليه أفواه السبل وسدت مسارح النجاة .

ساورته المخاوف وفاعته [1] الأوهام ، فقام إلى الباب فاستوثق منه وإلى المزلاج فأثبته حتى ظن أنه فى مأمن من الطارق والطارئ ، ثم أقام خلفه المتاريس طلباً للمزيد فى الأمن وأطفأ السراج لأنه لم يكن يسكن إلى النور ثم قال فى نفسه ألا أزال مرئياً (عن أى عين يا ترى كان يريد أن يتوارى) ؟ .

يا ويله ! إن ذلك الذى كان يجد فى الفرار منه ويقيم فى طريقه الحوائل ويستنجد بالظلام مازال معه فى حجرة واحدة .

ذلك هو ضميره وتلك هى عينه .

ولعله كان يعالج خدعة نفسه حين ظن أنه كان فى عزلة وأمن ، وأن الباب والمزلاج يحولان بينه وبين ما يخشى . فجمع أشتات نفسه حتى خال أنه صار جميع [2] الفؤاد ثم عصب رأسه بيديه واعتمد بمرفقيه على منضدة كانت أمامه وأنشأ يحدث نفسه :

– أين أنا ؟ وما عسى أن يكون ما أنه فيه ؟ ترى هل كذبتنى العين حين رأت (جافير) ؟ وهل خاننى السمع حين أفرغ فيه اسم ذلك الرجل (جان متيو) ؟ أتراه آمنًا فى سربى ، وأرانى اليوم فى قلق لا أدرى متى ينطوى أجله .

فانظر على أى سيال من الألم قد بات يتململ هذا البائس الذى ضاق محيط عقله عن جولات تلك الأفكار التى تدافعت فى رأسه كالأمواج حتى إنه ليدفعها عنه باليدين. وكان يحاول أن ينتزع من كل أولئك يقينا يجد له برداً على قلبه ، ولكنه لم ينتزع غير الحيرة والمضض .

---

(١) فعلت فعل الأفعلى .

(٢) غير متفرق الفؤاد .

وكاد يلتهب رأسه فقام إلى النافذة ففتحها ونظر إلى السماء ، فإذا بها ضريرة النجم [1] ساقطة النواحى [2] فعاد وارتمى على مقعده .

ومر به قط من الليل وهو على تلك الحال ، ثم أطافت برأسه صور مبهمة أخذت تتجمع وتتبين حتى لفتت إليها تأمله فلمحها بعين الحقيقة لمحة ألمت ببعض أطرافها فعاد إلى نفسه بعض الشيء ، وبدأ يشهد على نفسه أن الحالة التى نزل إليها إنما هى من صنع يده – حال حقيقة باللوم لا يلابسها المرىء [3] ولا يستقر عليها العيوف .

ومن نظر فى أمر هذا البائس ، وقر فى نفسه أنه على زهده وتقشفه لم يأت حتى الساعة شيئًا مذكوراً ، اللهم إلا ذلك الثقب الذى ثقبه ووأد فيه اسمه ، وود لو نسجت عليه الأيام طبقات من النسيان لا ينفذ إليها شعاع من الذكرى فكان إذا خطر له أن سيأتى يوم يذكر فيه هذا الاسم ذاكر ، نسف ذلك الخاطر نفسه فى نهاره ، ونزف أنفاسه فى ليله ، وأغرى به سهاداً تقض [4] عليه معه المضاجع ، وتطارحه الوساوس. ولطالما كان يقول لنفسه إن هذا اليوم إذا أوفى عليه ليذهبن بما يحيط به من راحة ونعيم ، حتى إنه ليشفق أن يذهب بتلك النفس الجديدة التى ربها [5] بالتقوى وتعهدها بالإحسان .

نعم لقد غمر هذا الفكر شعوره ، وشغل أرجاء نفسه ، فلو أن قائلاً قال له : أن هذا اليوم لا بد آت وأن تلك الكلمة (جان فالجان) لابد أن تثب من مكمنها ، وتتراءى أمامك فى هيكل نورانى يهتك ستار الظلمة الذى أسدلته على نفسه ، فإذا جاءك هذا اليوم فلا تبتئس به ، فلن يضيرك أن تسمع ذلك الاسم فإنه سيرفع منك ، ولا يهولنك أن ترى ذلك النور فإنه سيزيد فى الظلمة التى تنشدها ، ولا ذلك الستار الممزق فإنه سيكون أكتم لسرك ، ولا ذلك الزلزال المروع فإنه سيصبح أدعم لبنائك ، فاكشف عن

---

(١) يحجبها السحاب .

(٢) شديدة الظلمة .

(٣) ذو المروءة .

(٤) تمتلى عليه قضا وقضيضاً ، أى حصى .

(٥) ربها بمعنى رباها .

حياتك تبلغ مناك من كتمان أمرك ، وقف أمام طيف (جان فالجان) وقفة تخرج منها أنبل نفساً ، وأنبه ذكرا وأجمل أمرًا .

لو أن قائلاً قال له ذلك ، لنأى عنه بجانبه ، ولظن أنه يعالج المستحيل ، على أن الذى كان يظنه داخلاً فى باب الاستحالة قد دخل فى باب الإمكان ، وجرت به الأقدار فوقع أخذ حلمه يتكشف رويداً رويداً وأخذ هو يزداد علماً بحقيقة أمره .

خيل إليه أنه قد أفاق من خفقة – وما أدرى من أى خفقة أفاق – وأنه قد رأى نفسه ينزلق فى جوف الليل على منحدر قد وقف به على حفاف [1] هاوية ، وأنه قد حاول أن ينحرف عنها ، فأثبته الخوف وقيده الوهم ، وأنه قد رأى تحت راية ذلك الليل خلقًا [2] أراد أن يتبينه فتنكرت له معارفه حتى أنكره ، فألقى فى روعه أن الأقدار قد شبه لها ذلك الخلق فظنته (جان فالجان) فأخذته به وساقته ظلما إلى تلك الهاوية التى لم يكن لها بد من أحد رجلين : إما هو ، وإما ذلك المأخوذ به ، فعجز عن المقاومة وترك الأقدار تجرى على أذلالها [3] .

ولما تجلى له نور الحقيقة أنشأ يصارح نفسه ويقول إن مكانى فى السجن لا يزال بحمد الله خاليًا يطالعنى منذ ذهب بورقة ذلك الغلام ، وإنى لأشعر كأن قوة باطنة تسوقنى إليه فهو مدركى وإن أمعنت فى الهرب ، ولشد ما يرمضنى [4] أن يقيموا فيه بديلاً منى ، وإن هو إلا عاثر قد رمى به نحس طالعه فى أيديهم ، فأخذوه بى فأصبحت بفضل ذلك آمنًا فى سربى ، فأنا مقيم هناك فى لباس (جان ماتيو) وأنا مقيم هنا فى لباس (مادلين) ولكن أيسعنى فى مروءتى أن أترك هذا البائس يدفن فى السجن كما تدفن التوابيت دفنًا لا قيام معه ، ولكن تحت جنادل الخزى والعار ؟ . أم كيف يجمل بى أن أتدلى هنا فى النعم ، وهو يتدلى هناك فى النقم ؟ ! .

---

(١) أى حافة .
(٢) مخلوقًا .
(٣) تجرى فى أعنتها .
(٤) يقيمنى على الرمضاء .

وعلى أثر ذلك تحركت نفسه حركة يقعد عنها الوصف ، حركة لا تمر بنفس الحى فى مدى حياته غير مرات معدودات فقد اختلجت سريرته اختلاجًا بعث ما كان كامنًا فى فؤاده من الهواجس ، وقع ذلك على أثر مزيج قد جمع فى نفسه من الفرح واليأس والازدراء . تلك هى إحدى ضحكات السرائر .

قام بعد ذلك إلى المصباح فأضاءه من جديد وطرح عن منكبيه رداء الفزع ، فلما سكت عنه الروع ، قال لنفسه ما لى أرانى على غير استواء وأنا بمنجاة من المكروه ؟ . وكنت أفرق [1] من طريق واحد طالما قدرت أن تدهمنى منه الدواهى ، ولكنه قد سد بحمد الله فأصبح (جافير) لا يجد إلىّ سبيلاً وأصبحت فى مأمن من شر ذلك الرجل الذى ركبت فيه غريزة كلب الصيد ، فكم وقفته على أثرى حتى كاد يكشف عن أمرى – على أنها قد خانته هذه المرة فجرته على أثر غيرى ، فلينقلب على عقبيه وليشتغل به عنى ، وليدعنى أستروح روائح الأمن ، فقد طال عهدى بها . وليقبض على (جان فالجانه) الجديد وليبرح المدينة متى شاء فكل أولئك لم أكن عنه مسئولاً ، فحسبى ما كابدت من ألم وعانيت من جزع ، فلو أن رائيًا رآنى الساعة لما شك فى أنى قريب عهد بالإفاقة من سقم ، أو بالإفلات من براثن حادث .

وإذا تأنقت الأقدار فى مكروه ذلك الإنسان فتلك مشيئتها . وأنّى للمرء أن يدفع القدر عن غيره إذا هو أعجزه أن يدفعه عن نفسه ، وأنى لا أرى مبررًا لما كنت فيه من الجزع ، فإن الأمل الذى كنت أتنسمه طوال السنين ، والشىء الذى كان يملأ على أحلامى قد ظفرت به ، ذلك هو الأمن وهو بغيتى ، فمالى لا أشكر الله على تلك النعمة ، فلعله قد ارتاح [2] لى وتقبل منى ، وأراد أن أجرى فى طريقى ، فقد أخذت نفسى بصحبة الفضيلة ، ورددتها إلى التقى حتى قرت ، ورضتها على البر حتى سكنت ، فكيف أنسى يوم دخلت على ذلك العابد فنفضت إليه جملة ما مر بى ، فأفرغ فى أذنى كلمات وعيتها حتى الموت ، فلأمضين على هذا السنن فتلك مشيئة الله ، صحت عزيمته

---

(١) أخاف .

(٢) أى غفر لى .

على ذلك بعد أن سكن خلجان سريرته ، وبعد أن كاد يستل خيط نخاعه من طول ما ساءل نفسه وفكر .

* * *

لبث غير بعيد ثم قام يتمشى فى مخدعه وما شاع فى نفسه سرور ، ولا قر له قرار كما كان يتوقع أن يكون . وما هى إلا بعض الخطوات حتى عاوده ما كان فيه .

والفكر كالبحر . فمن استطاع أن يرد البحر عن العود إلى شاطئه استطاع أن يرد الفكر عن العود إلى مناطه . وعلة البحر فى ذلك يعرفها الملاح وهى المد والجزر ، وعلة الفكر يعرفها المذنب وهى الندم .. فسبحان من يثير النفس كما يثير البحر المحيط ! .

نعم عاد إلى ما كان فيه من حوار نفسه ، فكان هو المناجى . وكان هو المصغى . وكم حاول ألا يكونهما . ولكن قوة باطنة ساقته سوقًا ، وألحت عليه بوحيها : أن فكر فى ذلك الذى سيق إلى الموت قبل اليوم بألفى سنة ! وقبل أن نجرى بك شوطًا بعيدًا أيها القارئ ، يجمل بك أن تصبر قليلاً على الإسهاب فى أمر لم نر بدا من بسطه :

من المألوف أن يناجى المرء نفسه . وليس بين أهل الفكر من لم يطعم [1] تلك المناجاة - وإنها لسر من أجمل الأسرار وأخفاها ينتقل فيها الحديث من الفكر إلى السريرة ، ثم ترده السريرة إلى الفكر ، فإذا علمت هذا حلا لك أن تفهم الأسلوب الذى طال ترديده فى هذا الباب من قولنا : «ثم قال - ثم صاح - قال لنفسه - كلم نفسه - صاح فى باطنه» . وصيحة الباطن لا تقطع سكوت الظاهر ، فقد تقع ضجة فى الباطن يتناول الكلام فيها كل ما فى الجسم من عضو وجانحة غير الفم .

تلك حقيقة من حقائق النفس وإن لم يقع عليها الحس أن يدركها اللمس .

---

(١) يذق .

تساءل أين هو من الأمر ؟ وما عسى أن يكون ذلك العزم الذى اعتزمه ؟ فأقر فى نفسه أن كل ما أصر عليه إنما هو باطل وأن الاستسلام للقدر فى هذا الموطن لمن إحدى الكبر وكبر عليه أن يدع ذلك القدر فى وهمه ، وأولئك الناس فى ضلالتهم ، وهاله أن يجمد عن الحق وهم فى الباطل يتدفقون . ورسخ فى اعتقاده أن السكوت فى مثل هذه المواطن إنما هو اشتراك فى الإثم ، وأن الإحجام عن المفاداة ، خليق أن ينزل به إلى أحط منازل الآثام.

منذ سنين ثمان لم يذق ذلك المسكين طعم هذه المرارة ، فتزلزلت نيته التى نواها وجلس إلى نفسه يحاسبها وهو أقسى ما يكون ، وجعل يقول : "إن لكل حى غاية يعمل على إدراك مداها . وقد كانت لى غاية أرى أنى قد بلغتها ، فلم أخفق مرة فى التنكير وخدعة الشرطة ، ولكنها غاية خاوية من روح الفضيلة ، أمن أجلها يا ترى فعلت ما فعلت ؟ لقد كان خيراً لى أن أعمل على بلوغ المقصد الأسمى فأنجو بالروح لا بالجسد ، وأنزل منازل الأبرار . فلن أعق نفسى بعقوقى ذلك العابد . فمالى أفتح باب الماضى على مصراعيه وقد أمرنى العابد أن أوصده ؟ فسوأة لى . لقد أصبحت لصا تتعوذ منه أبالسة الشطار ، فإنهم ربما سلبوا المرء متاعه ولم يختلسوا نفسه ، فكم من سليب قد نجا بحشاشته .

" أما أنا فقد سرقت من ذلك البائس وجوده ، وابتززت حياته وسللت راحته واغتصبت حتى مكانه تحت الشمس وما كان القاتل بدونى فى قبح الصنيع ، على أنى لم أحسن القتلة ، فهو اليوم فى سجنه ميت حى .

" ذلك لعمرى أبشع ألوان الإجرام ، فمالى لا أفتديه بنفسى فأسترد ذلك الاسم وأعود كما كنت (جان فالجان) المجرم الأثيم .

فإذا طبت بذلك نفسا بعثت بين الخلق من جديد وخرجت من هذا الجحيم خروجاً لا يعقبه رجوع . فإذا فررت منه إلى السجن، فإنما أفر من جحيم الروح إلى جحيم الجسد ، وشتان ما بين العذابين ، ولئن لم أفعل لأكونن من الخاسرين ، وليس بمغن عنى ما قدمته بين يدى آخرتى من عمل دنياى ، إذا ما عدل بى طبعى إلى الخور فحال بينى وبين ما اعتزمته .

وهذا العابد لا أفتأ أراه كأنه حي وكأنه مني أدنى [1] ظلام ينهبني بنظره نهبًا . وكأنه يؤثر أن يراني في لباس (جان فالجان) وإن كان من نسج الإجرام على أن يراني في لباس (مادلين) وإن كان من نسج التقوى ، وإذا جاز على الناس تنكري فلن يجوز عليه .

فما نظروا إلا إلى الوجه وما نظر إلا إلى الضمير ، فقد استحال إلا الذهاب إلى (أراس) وإنقاذ ذلك المكذوب عليه ، ولئن أقدمت على ذلك لأقدمن على ما يحجم عنه الناس- تلك هي المفاداة وإن عزت على النفس ، وذلك هو النصر وإن كان أليمًا . فلنخط هذه الخطوة فقد شاء القدر ألا أكون نقيًا في نظر الله حتى أكون دنسًا في نظر الناس !".

رفع عقيرته بذلك وهو لا يشعر ، ثم قام إلى كتبه فنسقها وإلى وثائق ديون كانت له على بعض المعسرين من التجار ، فألقى بها في النار ثم كتب كتابًا وغلفه .

ولو أن أحدًا كان معه في الحجرة لاستطاع أن يقرأ هذا العنوان (مسيو لافيد بمصرفه شارع أرتو) وقام بعد ذلك إلى خزانة أسراره ، فأزعج منها درجًا التقط منه محفظة .

ولو رأيته على تلك الحال وهو يعالج هذا العمل وقد خرج به التأمل عن حد الشعور بما يحيط به لما خفي عليك ما كان يخفيه في قرارة نفسه ، ولرأيت أنه كان يحرك شفتيه وتارة يرفع رأسه ويقف بنظره على الحائط وقفة المستطلع كمن يحاول كشف سر أو استجلاء غامض .

ضم إليه الكتاب الذي كتبه ، والمحفظة التي التقطها وعاد إلى السير في مخدعه وفكره لم يبرح رأسه ولم ينحرف عن مجراه . فكان كلما تنقل ببصره رأى أمامه لوح المقدور وفيه سطر قد خط بأحرف من النور : اذهب فأمط عنك اللثام وانتسب .

---

(١) أقرب شيء .

وعلى الأثر تراءت له الفكرتان اللتان جعلهما ملاك حياته وقد سكنتا في هيكلين متباينين أخذا يدنوان منه تحت الليل (وما نسي القارئ أن أولاهما لم تكن غير التنكر وأن ثانيتهما لم تكن غير التوبة والرجوع إلى الخالق) فجعل يضاهي بينهما ويقيس ويقدر حتى خلص إلى الحكم بأن الأولى إنما ركبت من الأثرة (١) وحب العاجلة (٢) فهي إذن من وحي الشيطان ، وأن الثانية إنما صورت من الاحتساب وحب الآجلة فهي إذن من وحي السماء . ورأى هذه وهي تنهض من الظلمة وتلك وهي تنبعث من النور فرزق التمييز بين نزعة الشر ونزعة الخير .

ثم اشتبكتا أمامه في نزال فجعل يفكر في أمرهما ، وأنه لذلك إذ نظر إليهما بعين عقله ، فإذا بهما قد أخذتا تربوان وتعظمان حتى صارتا كتماثيل العماليق ، وفي هذه اللمحة أحس في باطنه وفي ذلك الملكوت النفسي الذي لا يعرف مداه نضالاً قد قام بين ملك من الملائكة وشيطان من الشياطين وسط كتائب من الظلمة والنور . وكان يؤتى(٣) إليه أنه في حراسة ذلك الملك فشد (٤) منه أن رآه من الظاهرين (٣) ومرّ كأن لم يكن ذلك الجازع ، وأيقن أن السريرة والقدر أوفيا على ساعة الإبرام في أمره.

فقال في نفسه : لقد أوضح العابد سبيلي في الطور الأول من حياتي الجديدة . وها هو ذا (جان ماتيو) يوضحه لي في طورها الأخير .

وعاودته حمى الفكر بعد أن هدأت هدأة فمرت برأسه ألف فكرة وكلها تصيح به أن امض في عزيمتك ولكنه لم ينج في أثنائها من خلجة شك مرت بنفسه ، فقال : أراني متعجلاً في الأمر ، وما كان (جان ماتيو) ممن يعتد بهم ، إن هو إلا لص من السارقين.

---

(١) حب الذات .
(٢) حب الدنيا .
(٣) يخيل إليه .
(٢) قواه .
(٤) الغالبين .

ثم عاد فقال لفسه : "إذا كان هذا الرجل من السارقين كما يزعمون ، فإنه عقابه لا يتعدى عمر الشهر فى السجن . فما له كتب عليه أن يطوى فيه حياته ؟ فلولا أنهم أخذوه بى وحل به شؤم اسمى الذى لبسه كارها ، لما حشروه فى زمرة المجرمين لانتزاعه تفاحتين أو ثلاثًا من شجرة لغيره ، وما كان نائب الملك ليصنع به ما صنع ، لولا أن علم أن له سوالف غير محمودة ، وأنه يحمل ذلك الاسم المقوت " .

ثم خطر له أن يذهب فيكشف عن نفسه لعلهم يمهرون هذه البطولة بالعفو عنه. دع تقديرهم لحسن سيرته وما خلف وراءه من الخيرات فى هذا البلد ، ولكن هذا الخاطر لم يلبث أن محته ابتسامة مرة قد خطفت على شفتيه ، فقد قال لنفسه على الأثر :

– إن قطعة الفضة التى انتزعتها من ذلك الغلام انتزاعًا ستلبسنى ثوب المجرم العائد ، وعقابى على ذلك لا يحتمل التأويل فهو سجن الأبد .

ثم نفض عنه غرور دنياه وقطع ما بينه وبين الأرض واتجه إلى السماء يستنزل المعونة والعزاء . وقال :"سبيلى أن أقوم بالواجب فلست أتوقع شرًا مما أنه فيه . فهبنى تركت الأقدار تجرى على إذلالها ، ولبثت فى القرية بين سيجان من العز والشهرة وحسن الأحدوثة التى أعلم دون غيرى أنها متبلة (١) بالجريمة ، فأى نفس زكية ترضى بأمثال تلك النعم إذا ما علقت بها اللعنة ؟ على أننى إذا طبت نفسًا بالاحتساب ، وقضيت العمر فى السجن مقيدًا مغلولاً فى لباس من العار لا يستمطر رحمة القلوب ، بلغت بذلك مرتبة الرضى ! .

" وهذا أمر قد فرغ منه القدر ، وما خلقت لأنقض فى الأرض ما أبرم فى السماء.. فأنا اليوم بين أمرين: إما فضيلة تحتها عار ، وأما عار تحته فضيلة " .

وتعاقبت عليه الأفكار وأطافت به الهواجس ، فما نهنهت من عزمه ولا كفت من غربه ، ولكنها كدت ذهنه وأفظعته بكراتها حتى وهى عن احتمالها ، فجعلت عروقه

---

(١) متبلة – بتشديد الباء – أى مخلوطة بالجريمة – من تبل الطعام – بتشديد الباء – جعل فيه التابل الذى يطيبه .

تطرق فى صفحتى وجهه كالمطارق ، وإنه لكذلك إذ آذنت ساعة البيعة (الكنيسة) بانتصاف الليل ، وأجابتها ساعة بإحدى دور المدينة ، فجعل يعد الاثنتى عشرة دقة للساعتين ، ويضاهى بين جرس [1] الجرسين فذكر على الأثر أنه رأى عند أحد باعة الفلزات [2] جرسًا عتيقًا معروضًا للبيع وعليه اسم (أنطوان ألبين) .

ثم أحس البرد فزاد فى نار المدفأة ، وغاب عنه أن يغلق النافذة ، ثم وقع فى ذهوله من جديد ، وحاول جهده أن يذكر ما كان يجول فى نفسه قبل انتصاف الليل فغمره النسيان ، ولكنه لم ينشب أن خرج منه إلى الذكر فقال : " لقد ذكرت أنى عقدت النية على الذهاب وإماطة اللثام " . وخطرت له ذكرى (فانتين) فلمح بين ظلمات هذه الهواجس وميض نور لم يكن يتوقع رؤيته ، فتغيرت حوله وجوه المناظر . وصاح : "ويل لى ! لقد أعمانى حب الأثرة فلم أفكر فى غيرة نفسى ، وأرانى قد قصرت همتى على أمرين إما التنكير وفيه نجاة الجسد ، وإما الظهور وفيه نجاة الروح . ولقد خاصمت نفسى إلى نفسى فكنت قاضيًا قد جمع بين العزة والهون ، وكنت مجرمًا قد ضم بين النبل والخسة . وهذا لعمر الله لون من ألوان الأثرة ولو ملت إلى الايثار لبدأت بغيرى.

"فهبنى ذهبت اليوم ، وكشفت عن نفسى فساقونى إلى السجن وخلوا سبيل (جان ماتيو) ، فماذا يحل بعدى بهذا البلد الذى أغاثه الله بى ، (فأقمت فيه المصانع ، وأيقظت الصناعة وشيدت دورًا للعاملين وأخرى للعاملات ، وكفلت الأيتام وحبست الأرزاق على الزمنى ، وكنت لهم بمنزلة الوقود من التنور واللحم من القدر ... فهم يستمدون منى حياتهم ، وأنا محور تجارتهم وموئل عفاتهم ، ومثابة [3] أرزاقهم وبى أخصب عيشهم واخضرت أعوادهم ، ولم يكونوا من قبل شيئًا مذكورًا ! .

" دع تلك البائسة المضعوفة التى أصحبت هامة [4] اليوم أو غد بعد أن ابتذلت خدرها ، وهوت من سماء ظهرها ، وأنا الذى أخرجها عن أفق العفة ، وكنت أذنا للسعاية بها فطرحتها من المصنع حين لا موئل ولا عائل ، فأكلت بثدييها وكنت لها من الظالمين .

---

(١) الجرس صوت يجرس .

(٢) الخردوات أو ما ينفيه الكير من خبث الحديد .

(٣) محل .

(٤) يقال فلان أصبح هامة اليوم أى حضر أجله.

وتلك الطفلة المنبوذة وقد عاهدت الأم على نجاتها فما أصنع بعهدى معها إذا نزحت اليوم ، فماتت الأم وأصبحت الطفلة تحت رحمة الاتفاق ، يقذف بها القدر فتلقفها الغير ، فلننظر ما ينجم من الضرر فى حالتى اللبث والذهاب " ! .

ثم وقف عند هذه النظرة فعراه ضرب من الحيرة أعقبته رعدة مرت كأن لم يكن ، فتمكن من نفسه وقال : ليذهب ذلك الرجل إلى السجن فقد سرق ، ومالى أحسن به الظن فأدفع عنه الإثم ، فلأمكثن هنا وأثمر هذا المال ، فإذا أحسنت عليه القيم ولد لى فى مدى عشر سنين ألفى ألف أنفقها فى وجوه البر ، وليس بى أن أعمل لنفسى ، فلست ممن يتربحون فى الجميل ، فإذا استبحر البلد وماج بأهله ولدت القرية مدينة وولدت الدسكرة (١) قرية وأطلع العراء ضيعة (٢) فتحيا الصناعة وتنمو المصانع وتكثر المناسج ، وتسعد الأسر ، فيموت البؤس وتموت بموته الآثام ، فلا قتل ولا سرقة ولا فسق ولا فجور ، وتنعم تلك البائسة بقرب طفلتها .

لقد كنت محمقًا حين قطعت بالسفر ، وما كانت آفتى فى ذلك إلا الأثرة ، لو أننى ذكرت غيرى لما هممت بركوب ذلك الخطل ، وإنها لضلة قد ثنى الله عنها عنانى .

أأستحيى نفسا أثيمة ، وأميت أنفسا زكية ، وأتوقع على هذا أجرًا ؟. بسل (٣) على أن تموت (فانتين) وهى على ظمأ إلى رؤية طفلتها ، وأن تهلك الطفلة ولا تعرف لها أمًا .

كل ذلك من أجل مجرم لا أراه إلا خليقًا بما حل به من العقاب ، ولا أحسب إلا أنه رب سوالف فى السوء ، فلا يضيره أن يقطع المرحلة الأخيرة من عمره سجينًا كان أو طليقًا .

---

(١) عزبة .

(٢) الأرض المزروعة أو الأفدنة .

(٤) حرام .

ولو أن لتلك الطفلة كافلا غيرى لما حزبنى الأمر ، فإذا أجرمت باللبث ههنا ، فعلى إجرامى ، وإن هى إلا غمزات من الندم أجد لها مسًا فى الفؤاد ، فلأصبرن على سعيرها ففيه نعيم لأناس ليس لهم دونى من ولى . وها أنذا وطنت النفس على عيش ظاهره الرحمة وباطنه العذاب . ذلك هو عين الاحتساب ..! " .

* * *

ثم طفق يمشى فى مخدعه وقد تبسطت فى هذه المرة نفسه ورضى عن عقباه وشحذ عزيمته على المضى فيما رسمه .

إنما تلتمس الحقائق فى دياجير أغوار الفكر ، فمثلها كحجر الماس لا يلتقط إلا من ظلمات المناجم بين سوادين من فحم وليل - خيل إليه أنه هبط إلى تلك الأغوار فسلك فى أشدها حلوكة وأبعدها مدى ، ثم جعل يتحسس بيديه فى تلك الدجية (١) حتى ظفر بحجرة من ذلك الماس أو بحقيقة من تلك الحقائق ، وإنه ليقبض عليها إذ تفجر منها نور كاد يعشى بصره ، فصاح : "ها أنذا قد وجدتها ، وها هو ذا فى يدى مفتاح طلسمها .

"فأنا (مادلين) وسأكونه ما حييت ، فلا يسرنى أن أكون (جان فالجان) ، ومالى أقول جان فالجان ، وأنا لا أعرف خلقًا قد ركب عليه هذا الاسم ، فإن كان حيًا كما يزعمون فليتول أمر نفسه ولا أحسب هذا الاسم إلا طائر شؤم له سبحات تحت الليل ، فإذا عن له رأس قد انتواه القدر وقف فوقه فاضطرب ثم انقض عليه فطاح به " .

ثم نظر فى مرآة له صغيرة وقال : "لقد رفهت عنى هذه العزيمة ، فصرت بعدها غيرى قبلها " .

ثم خطا خطوات ووقف يخاطب نفسه :

---

(١) مفرد دجى .

"لتصنع العواقب صنعها فقد قضى الأمر ، واستحال غير الإقدام ، على أنى لا أزال أرى أصرة من الولد تربطنى بهذا الاسم فمن الكيس قطعها ، وأشياء فى هذا المخدع ربما وقفتهم على أثرى ومهدت السبيل للشك فى أمرى .. وهن وإن كن صوامت فإنهن أفصح عند الشهادة لسانًا من الناطقين ، فمن خطل الرأى أن أبقى عليهن " .

ثم ضرب بيده إلى جيبه فأخرج كيسًا التقط منه مفتاحًا أولجه فى ثقب قفل لا يكاد يرى لدقته فلكم خدع مكانه عين الناظر لكمونه بين خطوط دكناء رسمت متناسبة الأوضاع على ورق كسى به الحائط . فانفرج الحائط عن مخبأ كانت تواريه مرآة مضللة نصبت بين زاوية الجدار وحجاب المدفأة لتصرف عين الناظر ، وكان فى ذلك المخبأ أهدام بالية ومعطف أزرق وسراويل [١] رث وجراب عتيق وعصا غليظة مقمعة بالحديد. ذلك هو متاعه الذى كان يحمله يوم مر بمدينة (دنى) سنة ١٨١٥ وكان يخفيه عن نظره هربًا من ذكرى السجن ويظهر الشمعدانين حبًا فى ذكرى العابد .

ثم رمى الباب بنظرة عجلى كأنه يخشى الغرة برغم الوثوق من الإيصاد ، وأهوى كاللمح على ذلك المتاع دون أن يسعده بنظرة منه فاحتضنه ، وألقى به فى النار ، ذلك المتاع الذى طالما قدسه ، ولم يبال الخطر فى الإبقاء عليه .

وما هى إلا لمحة حتى تسرق المكان بنور أحمر رقصت أشعته على الجدار الذى يسامته ، فعلم أن النار قد أتت على متاعه إلا عصاه فقد بقى فيها ذماء [٢] دل عليه شرر كانت لا تزال ترمى به إلى وسط الحجرة .

وسطع ريح الجراب وهو يحترق بما فيه من الخلقان ، وظهر على أثره فى الموقد شىء لماع لو دانيته لرأيت أنه لم يكن غير تلك القطعة الفضية - قطعة الغلام (سافويار) ووقع نظره على الشمعدانين وقد أضاءتهما النار فانعكس لهما على الموقد ما أدرى أى لون من ألوان الأشعة ، فصاح وهذا أيضًا لا معناة [٣] للإبقاء عليهما ، ثم

(١) سراويل مفرد والجمع سراويلات .

(٢) بقية .

(٣) يقال معنى الشىء ومعناته ومعنيه .

ألحقهما بمتاعه فلم يلبثا أن صهرا وحالا إلى سبيكة منكرة - ثم خطا إلى الموقد فانحنى عليه واصطلى قليلاً وتنفس وقال : "نعم الدفء " ! .

ولم يكد يحمد مغبة أمره حتى شعر كأن صوتًا فى داخله يصيح به: "جان فالجان" !" . فقف [1] شعر رأسه واستطير فؤاده وكان كمن يسمع صوت الويل ، ثم أخذ يتسمع وإذا به ناديه : "هنيئًا لك لقد أكملت صنعك ، أتلفت الشمعدانين - نجوت من ألم الذكرى - نسيت العابد - نسيت معه الماضى - سقت (جان ماتيو) إلى الهلاك- هنيئًا لك لقد نجوت - فكن شيخًا وقوراً ودع اسمك يحمل البلاء إلى غيرك فيمضى فداء لك - كن عريض الجاه خصب الفناء - عُل من شئت من الناس ، واكفل من شئت من الأيتام . ولا تنس وأنت مستقر فى الذروة من الجاه ومتدل فى الجزيل من النعم أن تذكر ذلك الذى يلبس فى السجن لباسك ويخطر فى قيودك وأغلالك ، فليهنئك ما قدمت يداك " .

فتفصد جبينه عرقًا ووقف ساهم الوجه سادر البصر فقد شدت أهدابه إلى بقايا الشمعدانين . كل ذلك والصوت لا ينقطع عن مناداته : "جان فالجان ! إنك لا تعدم أن ترى حولك قنابل [2] من الناس ترتفع أصواتهم بالدعاء لك والثناء عليك ، فلا تنس وأنت فى مظهر سلطانك ذلك الصوت الخفى الذى لا يحجبه عن سمع الله حجاب ، واتق دعوة تنهض من ظلمة السجن إلى جوانب العرش فتجاب فى طريقها دعواتهم وتقطع سبيل العروج إلى السماء فتمسى وما لك غير اللعنة من خلاق [1] ولبئس عقبى الدار" .

وأخذ ذلك الصوت الذى كان يحدثه كالهامس فى أذنه يعلو ويعظم ، حتى صار له دوى كاد يفتق طبلتى مسمعيه ، وبعد أن كان يشعر أنه صوت من أصوات الضمير قام بنفسه أن الذى يكلمه يكن غير حى من الأحياء تحتويه الحجرة فرمى بصره يطلبه فى

---

(١) قف - بتشديد الفاء - شعر رأسه أى وقف .

(٢) جماعات.

(٣) أى نصيب .

أركانها ، وصاح وهو لا يعى : "من المتكلم ؟ " . ثم ضحك ضحكة من به مس - وقال : "لشد ما وهمت فليس هنا غيرى " .

وما كانت الحجرة خالية كما كذب نفسه ، ولكن الذى كان فيها لم يكن تقع عليه العيون - ثم عاود المشى بخطى رتيبة (١) تبعث الأسى وتثير الشجن فكانت تقطع عليك سلك التفكير ، وتقطع على ذلك النائم تحت حجرته غراره (٢) فيثبت من فراشه مروعًا مذعورًا .

على أن هذا المشى كان يروح عنه ويثمله فى آن . وقد تدفع الملمات صاحبها إلى الحركة رجاء أن يصيب فى طريقه من يشد منه برأى أو ينفس عنه بنصح .

وأجازت به آنة نكر فيها نفسه ومكانه ثم نبهه فزع ملأ جوانب صدره ، فتراجع مخذولاً أمام كلتا العزيمتين اللتين اعتزمهما ، وبدا له قبح ما أضمر فأيقن أن لا خير فى الأولى ولا أجر فى الثانية . وقال : "ما أشأم هذا الاتفاق الذى رمى (بجان ماتيو) بين أيديهم فأخذوه بى وأنظرنى ههنا حتى مكنت لنفسى فملكت يومى وبلغت من الثروة ما بلغت " .

ثم التفتت نفسه التفاتة إلى حاضره وأخرى إلى ماضيه وقال : "أكشف عن نفسى" ... قالها ونفسه تكاد تسيل جزعًا - "سلام على عيش لبسته مضطرًا وخلعته كارها ، فلقد آن للنفس أن تودع ما فيه ، فتستبدل (٣) الإذلال بالإجلال والضيق بالسعة والنصب بالدعة ، وللعين أن تستبدل عبوس السجان ببسمات الشكر عند الإحسان ، وللأذن أن تستبدل رنات السلاسل بتغريد البلابل عند إقبال الربيع فى وشيه البديع ، وللرجل أن تستبدل الحجل فى القيود بالتنقل بين المروج والنجود (٤)

---

(١) الشيء الرتيب الذى يقع متشابهًا على وتيرة واحدة .

(٢) الغرار النوم القليل .

(٣) يقال استبدل الطربوش بالعمامة إذا أراد ترك العمامة فالباء تدخل دائمًا على المتروك قال الله تعالى "أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير" .

فى هذه الصفحة وحدها قد أضفنا كلمات من عندنا دعانا إليها حسن المقابلة فى المعانى واطراد القول.

(٤) جمع نجد أى المرتفع من الأرض .

للأنف أن يستبدل ريح صدأ الحديد بأريج الزهرات والورود ، وللجنب أن يستبدل خشونة المضاجع بلين فراش المخادع ، وواها من وحشة سجن الوحدة والتقلب فى ألوان الشدة ، وفى ذمة الله أيتها الدار فما كان أخصب أيامك وأقصر أعوامك ، وأنت أيها الخادم العجوز فما كان أيمن صباحك وأبرك صلاحك . وقد آن لى وأنا العاثر المجدود أن أستدبر عيشاً أخضر ، لأستقبل عيشاً أغبر ، وألبس رداء أحمر ، نسجته يد البلاء الأكبر ، وخاطه الشقاء لمن يسوقه القضاء . اللهم غفراً . أفى مثل هذه السن وقد نيفت على الخمسين أرد إلى السجن وأنا أعلم الناس بما فيه من عذاب وهوان؟ إلا أنى لو كنت فى عهد الشباب لاضطلعت بخطبه . أما وقد أخذت منى الأيام فلا طوق على مصابرة الشدائد .

"ينهرنى الحرس ، أخاطب [1] بالكاف ، تأخذنى سياط السجانين ، دع عصا كبيرهم : أمسى عارى القدمين فى حذاء من الحديد . أمد ساقى لمطرقة القين [2] الكشاف فى الصباح والمساء ليبلو قيودها ويمتحن أغلالها ، أصبح هدفاً لأعين الزوار، فكلما مر بى أحدهم قالوا : هذا هو جان فالجان الشهير الذى كان شيخاً (لمنتراى سيرمير) .

"فإذا جاء الليل عادوا بنا إلى السجن ونحن نسبح فى غدران من العرق ، وقد كدنا الموكلون بعذابنا ، فندخل اثنين اثنين بين أيد تعمل فى أقفيتنا وسياط تقدح فى ظهورنا فما أمرها من حياة . إنى أكاد أتهم القدر . أتراه تجرد من الروحانية وانغمس فى البشرية فحل فى هيكل شرير حضرت فى استنباط الأذى قريحته وأقفر من الرحمة فؤاده ؟ ! " .

ثم رجع إلى هواجسه الأولى ووقف عند تلك العقدة التى أعياه حلها : أيقيم هنا فيصبح شيطاناً أحلته الجنة أم يذهب إلى هناك فيصبح ملكاً أحله السعير ، فتأوه وقال: "ربى كيف الخلاص ؟ " .

---

(١) علامة الاحتقار .

(٢) الحداد .

ثم اكتنف العذاب نفسه وشاع فيه الألم وأخذ فكره يختلط عليه ، فمر به ما أدرى أى صنوف البله ولعله أثر من آثار مواقع اليأس فى النفوس . وذكر وهو فيما هو فيه كلمة (رومان فيل) ، فقال : "ترى متى سمعت هذه الكلمة " ..

سمعتها منذ عهد فى أغنية صغيرة تقع فى بيتين من الشعر وإنى لأحسب (رومان فيل) اسماً لغاب صغير بضاحية من ضواحى باريس يؤمه العشاق من الشباب فى شهر أبريل ، يجنون زهرات الزنبق " .

وسرى اضطراب باطنه إلى ظاهره فجعل يترنح فى مشيته كأنه وليد قد خرج من الحبو إلى المشى ، فترك يمشى وحده فهو لا يكاد يتماسك فجعل يكافح أشد الكفاح ليثوب إليه رشده ويخر من ذلك البله ، حتى إذا تمكن من نفسه أو كاد ، أراد أن يعزم العزمة الأخيرة ، إما الكشف عن نفسه وإما السكوت على حاله ، ولكنه لم يرزق التمييز.

وطاحت هواجسه بثمرات فكره وأخذت تصوراته المبهمة تضطرب أمامه ثم تحولت بالتعاقب إلى دخان تذهب به الرياح ، فأحس أنه أنى وقف أو وقفته الضرورة فإن بضعة منه هالكة لا محالة ، فعليه أن يشهد ، إما احتضار سعادته ، وإما احتضار فضيلته ، وعاوده التردد فعاد إلى موقفه الأول .

* * *

هكذا كانت تضطرب هذه الروح المعذبة تحت سيال من الكرب والبلاء .

قبل عهد هذا البائس بثماني عشرة مائة من السنين ، هناك عند تلك الزيتونة المباركة التى كانت تعبث بها هوج [١] رياح الأبد ، وتحت ذلك الفلك الحالى بالكواكب ، كان ذلك السر الغامض الذى أعجز العقول إدراك كنهه ، ذلك الذى حل فى صورة قد ركبت من الكمال والهدى ومن آلام هذا الورى ، يعاف هو أيضاً شرب الكأس المرهوبة التى طالما نحاها عنه بيده ، كلما خالها تفيض بكسف من ظلمات ، تسلسلت منها ظلال تجزع عند ورودها النفوس .

---

(١) جمع هوجاء وهى الرياح الشديدة .

الفصل الرابع

ألوان الألم فى النوم

أقبل السحر وهو لا يزال يمشى فى حجرته فاستشعر التعب ، فلقد مرت به خمس ساعات على التعاقب لم ينفس فيها عن نفسه فارتمى على مقعد ، وما هو إلا أن احتواه حتى غط فى النوم ، وسنحت له رؤيا شبيهة بتلك الرؤى التى تمثل المهموم فى نومه ما كان عليه فى يقظته ، مغالية فى تلوين وجوه الألم . ولقد نال منه هذا الحلم ما لم تنله اليقظة فلم يكد يفيق حتى خط بيده ما كان مركوزًا فى نفسه من وحى ذلك الكابوس .

وليس من الأمانة أن نمر به ولا نذكره فيصبح تاريخ الليلة وهو أبتر - ونحن مثبتوه هنا لم نخرم منه حرفًا .

الرؤيـــا

رأيت كأننى فى قفر لا نبت فيه ، وكأننى كنت بحيث لا ليل ولا نهار ، وكأن أخى كان يماشينى فى ذلك القفر ، ذلك الأخ الذى طويت معه عهد الحداثة ، ثم افترقنا وطال الأمد حتى نسيته .

سرنا وقد رمانا الطريق ببعض السابلة ، ثم خضنا فى حديث جر إلى ذكر جارة كانت لنا فى ذلك العهد - كانت تعمل أمام نافذة مفتوحة تطل على الطريق ، وكأننا ونحن نتحدث فى القفر نجد مس البرد المصبوب علينا من تلك النافذة .. وهفا بنا

فارس فى لون الرماد على فرس فى لون التراب عارى الجسد أصلع الرأس جميعه ، حتى إن الناظر إلى جمجمته ليكاد يعد فيها فروع أوداجه . وبيده مخصرة فى لدونة فرع الكرم ، وفى ثقل عود الحديد - هفا بنا ولم يسلم ..!

فقال لى أخى : "اعطف بنا على هذا الطريق الأجوف . وكان طريقًا سماؤه فى لون أرضه لا يرى السالك فيه أجمة ولا خضراء ، وإنى لأحدثه وأنا لاه عنه بما أنا فيه، إذا به قد راغ روغة واختفى . ثم رفعت لى قرية فيممتها فخرصت [1] عليها أنها قرية (رومانفيل) فركبت أول طريق لقينى فإذا به قفر ، عدلت عنه إلى ثان فلما بلت الزاوية التى تربطه بأخيه إذا أنا برجل قائم عند حائط ، فسألته عن اسم القرية التى أحلتنى فلم ينعم بالجواب . وفتح باب دار ولج فيه ذلك الرجل فتعقبته فإذا أنا برجل قائم وراء الباب فسألته لمن البيت فأعرض عنى ولم يجب ، وكان للدار بستان دلفت إليه أنا برجل قائم تحت شجرة فسألته لمن البستان فأعرض عنى ولم يجب . فهمت على وجهى فى تلك القرية التى أقفرت من الإنس سبلها وفتحت أبواب دورها فما رمانى الطريق بإنسى ولا أحسست حركة فى دار من تلك الدور - غير أنى كنت أرى عند كل جدار وخلف كل باب وتحت كل شجرة رجلاً قائمًا قد أخذ نفسه بالسكوت . فانحدرت إلى المزارع ، فلم أكد أنقل فيها بعض الخطى حتى رأيت وقد نظرت خلفى زمرة تتعقبنى ، وإذا بكل أولئك الذين رأيتهم قيامًا قد ترسموا أثرى ، ورأيت كأنهم يمشون الهوينى ، ولكنهم على تريثهم كانوا أوسع منى خطى وأخف حركة ، وما هى إلا لمحة حتى لحقوا بى وتكنفونى وكانوا جميعًا فى لوان التراب ، فسألنى أحدهم وأحسبه أول رجل لقيته عند هبوطى القرية : "أين تمضى ويلك - أولست قدمت من عهد بعيد ؟ " . وبينا أتهيأ للجواب إذا بهم قد اختفوا جميعًا .

* * *

ثم هب من نوعه وكأنه قطعة من الجليد وقد خمدت نار المدفأة وذابت الشمعة إلا قليلاً ، وكان الليل لا يزال ليلاً فقام إلى النافذة ونظر نظرة فى السماء ، فإذا بها لا تزال ضريرة النجم . وكانت النافذة تطل على فناء الدار والطريق .

(١) أى تظنيت ، خمنت ، حزرت .

وبينا هو ينظر إلى السماء إذا به قد سمع صوتًا جافيًا وضجة عنيفة على وجه الأرض . فخفض بصره فرأى نجمين أحمرين يشعان أشعة تترامى فى جوف ذلك الليل ، وكان لا يزال فى بقايا خياله – فقال : " دفعت الليلة إلى عجائب ، ترى أعافت النجوم سبحاتها فوقنا فهوت تسبح تحتنا ؟ " . ثم قامت ضجة ثانية كان من أثرها فى نفسه أن عاد إلى صوابه فنظر نظرة أخرى ، فإذا بالنجمين الأحمرين لم يكونا غير مصباحى عجلة قد شد إليها جواد أبيض ، فسأل نفسه : "لأمر ما بكرت هذه العجلة!".

وفوجئ بطرق على الباب – فأزعجته هذه الفجاءة وصاح بصوت خشن : "من الطارق؟" فكان الجواب : " تلك أنا يا سيدى الشيخ " فعرف صوت خادمه العجوز ، فقال : "وما تريدين؟ " . فقالت : "إنها الساعة الخامسة يا سيدى " . قال : "وما شأنى بذلك ؟ " قالت : "لقد حضرت العجلة " . قال : "أية عجلة ؟ " . قالت : "تلك التى تقدم سيدى بتهيئتها فى هذه الساعة وها هو ذا السائق يطلب لقاءك " . قال : "ويحك أى سائق ؟ " . قالت : "سائق السيد سكوفير " ، وما كادت تذكر هذا الاسم حتى احتوته رعدة، وكأن برقًا من الذكرى قد خطف أمام عينيه . ثم سكت سكوتًا طويلاً . لو رأته الخادم وهو على تلك الحال لتمشى قلبها فى صدرها من هول ما ترى . وعاوده البله فجعل يلهو وتعبث أنامله بتلك الشباك التى نسجتها الشمعة من دموعها . وخاطرت الخادم بتذكيره فقالت : "سيدى الشيخ ، كيف أجيب السائق ؟ " . فقال لها : "قولى له إنى سأوافيه الساعة " .

* * *

وكان البريد بين أراس ومنتراى سيرمير يحمل فى ذلك العهد على عجلات ذات ترسين مطوقين بجلد أسمر وفى كل عجلة مقعدان : مقعد للسائق ومقعد للمسافر. ولم تكن تلك العجلات التى انقرض اليوم نوعها على شىء من الرواء . وقد كان أيسر عيب بها أنها حدباء . فإذا لاحت للناظر عند مطرح البصر وهى تزحف تحت الأفق زحفًا ، حسب أنها من تلك الدواب التى دقت خصورها وثقلت أعجازها . وكان

البـريد الذى يـغـادر أراس فـى كــل ليلة لا يبرحـهـا حـتى يوافـيـهـا بريد منترای سيرمير.

وفی هذه الليلة نفسها كان البريد الهابط إلى منترای سيرمير من طريق هيدسان قد صدم عند منعطف الطريق عجلة صغيرة قد شد إليها جواد أبيض وفيها إنسان مدثر، فرجتها الصدمة رجة أشفق معها حامل البريد على ذلك الرجل فسأله الوقوف، ولكن الرجل قد انطلق فى طريقه وهو يركض جواده ملء فروجه (١) فقال حامل البريد : "ويل له، لقد استطرد به الشيطان " . ولم يكن الذى مرّ يعدو غير صاحبنا الذى بات على حال حقيقة بالرحمة .

فلو أنك سألته إلى أين تمضى ؟ ومالك هكذا تسرع ؟ لأجاب : لا أدرى .

إنه خرج تحت مشيئة الاتفاق . فإما إلى (أراس) وأما إلى غيرها . ومرت تهوى به العجلة فى جوف الليل وكأنها مدفوعة إلى هاوية ، وكان يشعر أنه قد بات نهبًا لقوتين متباينتين لا قبل له بهما : هذه تدفعه وتلك تجذبه ، ولا يعلم إلا الله وحده ما كان يجول فى مناحى نفسه . ومن ذا الذى سلم من أن يضل ولو مرة واحدة فى ظلمات مغاور الغيب ؟ فسار وما عزم عزمًا ولا وقف عند رأى رضيه ولا سكنت سريرته لأمر أبرمه . فكان فى أخرى هواجسه مثله فى أولاها ، مازال واقفًا حيث كان . قد عاوده ما كان يتمشى فى نفسه حين ركب العجلة ، فقال : مهما كانت العاقبة فمن العجز ألا آخذ بالحيطة ، وليس للمرء أن يقطع بوقوع أمر من الأمور ، ولكن له أن يطرحه تحت نظر فكره فيستبطنه بحثًا واستقراء ، ومن نصب نفسه للحكم على الأشياء وهو غير مكثب (٢) فـقـد أخطأ مـواقع الرأى وأطلع من الذر جبـالاً ، ولعلى إذا لقيت (جان ماتيو) وجدت الأمر أيسر مما فى نفسى ، ورأيته أهلا لما نزل به . أما (جافير) فما كان ليكبد (٣) لى وقد صرف الله عنى عنانه وصبه على (جان ماتيو) فصوب

---

(١) أى ملء ما بين أقدامه ، والمعنى أنه أسرع بجواده .

(٢) أى قريب .

(٣) أى يصعب على .

إليه الظنون والشبهات ، ونعوذ بالله من عنادها ، فإنها ما نزلت بصدر إلا تعصى على صاحبه انتزاعها . فلا خوف إذن من ذلك الداهية ، ولا أكذب نفسى فالساعة مرهوبة ، ولكن باب الرجاء لا يزال مفتوحاً ومصيرى لا يزال بحمد الله فى قبضة يدى أصرفه كيف أشاء .

واشتد به بعد ذلك القلق فكان يؤثر فى قرارة نفسه أن يعود على أن يذهب . وكان كلما انقبض صدره صب سوطه على ذلك الجواد الذى كان يحضر [1] إحضاراً يطوى فى الساعة فرسخين ونصف فرسخ . وجعل كلما اندفع فى طريقه نمت عنده شهوة الرجوع .

ولما تنفس الصبح أو كاد ، كان فى الفضاء وقد اختفت مدينة مونترای سيرمير فنظر إلى أفق قد ابيضت ذؤابته ، وبرزت صحيفة وجه فجر ولدته ليلة من ليالى الشتاء، أصباحها أشبه الأشياء بإمسائها . لا تكاد ترى تباشريه ، ولكن أخيلة [2] التلال والأشجار قد أضافت إلى ما كان فى نفس هذا البائس ما يعلم الله من ضروب الحزن والأسى ، وكان كلما مر بدار من تلك الدور المنعزلة على لقم [3] الطريق قال فى نفسه: ما لهذه الدار بد من ساكن ينام ملء جفونه .

وكان لخبب الجواد وجرس جلجله ووقع العجلة على البلاط ، إيقاع حسن ونغم متماثل يدخل الأنس على نفس الخلى ويزيد فى أسى نفس الشجى .

فبلغ قرية (هيدسان) وقد أضحى ، فوقف أمام نزل رجاء أن ينفس عن الجواد ويعلفه. وكان جواداً كما قال عنه صاحبه من أصل بولونى عظيم السليل [4] سحيراً [5] أدك [6] أهنع [7] مفتوح اللبان . دقيق عظم الساق . صلب الحافر . فهو وإن لم يكن أصيلاً كان صلباً [8] متيناً . فعل فعل كرام الخيل فطوى خمسة فراسخ فى مدى ساعتين ، وما نضح كفله بماء ، ولا رمت أعطافه بحميم .

---

(١) أى يجري جرياً سريعاً .
(٢) جمع خيال .
(٣) جوانب .
(٤) أى كبير الرأس
(٥) كبير البطن .
(٦) عريض الكفل .
(٧) قصير العنق .
(٨) أى قوى الأعصاب .

وكان لا يزال مشدوداً إلى العجلة حين حضر غلام النزل يحمل إليه العلف ، وحانت منه التفاتة إلى العجلة اليسرى ، فصاح بالرجل : "أوأنت على سفر بعيد ؟ " . قال : " مالك ولهذا ؟ " . قال : "هل قطعت شقة طويلة؟ " . قال : "خمسة فراسخ " . فأجاب الغلام وهو يدمن النظر إلى العجلة : "لئن كانت قد قطعت بك خمسة فراسخ ، لمن المحال أن تقطع بك ربع فرسخ آخر ، انظر إلى ما حل بها من العطب" فوثب الرجل ونظر حيث ينظر الغلام ، فقال الغلام وهو يحاوره : "أولى [١] لك ، فما كان أخلقها أن تطرحك وجوادك فى حفرة من حفر الطريق " . ثم أشار إلى مكان العطب . فإذا العجلة اليسرى قد اخترمها البريد حين صدمها فى منتراى سيرمير ، فقصف أصبعين من أصابعها ، وكاد محورها يفلت المحوى [٢] فقال الرجل : "أبغنى نجاراً له خصيصاء بهذا العمل " . فقال : "إنه على خطوتين منا" . وكان النجار على عتبة داره ، فجىء به فجعل ينظر إلى العجلة وقد انقبضت أسارير وجـهه كأنه مطبب ينظر إلى ساق مهشمة . فقال الرجل : " أتعالج إصلاحها فى الحال ؟ " . قال "نعم" . قال : "ومتى أسافر ؟ . قال : "غدا" . فأجاب الرجل : "غدا ؟" وقد ملكه الدهش . فقال النجار : "إن إصلاحها يستوفى عمر النهار كله . فهل أنت من أمرك على عجل ؟ " . قال : "ما أحوجنى الساعة إلى السفر " . قال : "وددت لو تهيأ لك ذلك " . قال : "أصلحها ولك حكمك [٣] " . قال : "ليتنى أستطيع ذلك فأفوز بوعدك " . قال " إنى مسوق إلى السفر فإذا أعياك إصلاحها فأبغنى غيرها " . ثم قال : "أهنا مركبة للكراء ؟ " قال : "عندى مركبة يقبضنى عن إكرائها ما أراه بعجلتك من العطب ويلوح لى أنك غير حريص على مال غيرك " . قال : "بعنيها" . قال : "أما البيع فلا" . قال : "إنى ندى الكف وإن اشتط البائع " . قال : "تحت يدى عجلة لأحد الفلاحين يستخدمها فى السادس [٤] والثلاثين

---

(١) نجوت وما كدت تنجو ، شرحها لنا المرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطى وهو من أمضغ العرب للشيح والقيصوم .

(٢) المحوى بتشديد الوار المسمار والقلاووظ.

(٣) أى ما تشاء من الأجر .

(٤) مثل يضرب عندهم للمستحيل كقولنا قيام الساعة ، يريد أنه لا يستخدمها مطلقاً .

من كل شهر ، فإن شئت اكتريتها على شريطة ألا يراك ربها وأنت منطلق بها ، ولكنها عجلة عاتية لا يستظل بها جواد واحد ، ومن لك الساعة برأسين من الجياد ؟ " . قال : "من مرابط خيل البريد " . قال الرجل . "وما وجهك ؟ " [1] . قال : "مدينة أراس " . قال : "أوحتم من الحتم أن تبلغها اليوم فى فجر هذه الليلة ؟ " . قال :(ألا يستوى عندك أن تبلغها فى فجر هذه الليلة ؟ . قال : "لا" . قال: "هل تحمل جوازًا للسفر ؟ " . قال : "نعم" . قال : إنك إذا تهيأ لك أن تحصل على جوادين من مربط خيل البريد فما أنت ببالغ أراس قبل الغد ، فإن خيول البريد فى هذه المراحل منثورة فى المزارع ، ونحن فى أبان الحرث وهم يجمعون له الخيل أنى أصابوها . فإذا لجأ سيدى إلى ذلك كان عليه أن يلبث نصف يوم عند كل مرحلة ، دع ما يعرض له من العقبات " . قال : "أسرج جوادى هذا من عجلتى وأمتطيه فأبغنى سرجًا ". قال . "وهل يصبر جوادك على صحبة السرج ؟ " . قال "لقد ذكرت منى ناسيًا . أنه لا يصبر على صحبته " . قال : "هل من سبيل إلى جواد نبيل يبلغ بى أراس من غير تنفيس [2] " . وقال : "إنك لن تظفر به ، وهبك وجدته فإن ربه ليضن به ولو ملأت يده ذهبًا . فشاع السرور فى نفسه ، وقال : "إن للعناية ليدا فيما أرى ، أوليست هى التى أتلفت العجلة ، وقطعت على السبيل ؟ وقد أنذرتنى فلم يلونى إنذارها عن القصد ، والتمست المخرج مما أنا فيه ، فما ثنانى برد ولا قعد بى نصب ، ولا أرهقتنى نفقة ، فأصبحت وقد عدانى اللوم ، فإذا استحال على المضى فى طريقى فتلك مشيئة القدر " . ثم تنفس ملء رئتيه تنفس الحر الطليق ، وخيل إليه أن السهم الذى ضل نصله فى فؤاده قد انتزعه منه نازع ، فوجد لذلك روحًا لم يجده منذ رأى وجه جافير .

وقال : "لقد علم الله أنى صنعت ما يكاد يخرج عن الطوق فأخطأنى التوفيق ، فلا أملك من أمرى بعد هذا كله إلا الرجوع على هاتين النعلين " .

ولو كان حديثه مع النجار فى خلوة لما وصل إلى أذن حى وللبث مكتومًا ، ولكنه كان على الطريق المعبد ، ومن شأن مثله أن يلفت المار الذى يستهويه حب الاستطلاع

---

(١) الوجه القصد ، الجهة ، السبيل .

(٢) أى فى مشوار واحد كما تقول العامة .

فيقف ناشراً أذنيه لتسقط الخبر ، فلا يكاد المحدث يمر فى حديثه حتى يرى حوله حلقة من الناس ، وما منهم إلا من هو فارغ لذلك . وكذلك وقع (لجان فالجان) فبينا هو يحاور النجار وإذا بطائفة من السابلة قد التفت حوله ، وكان بينهم غلام لا تكاد تأخذه العين ، قد تسلل من الجماعة وطفق يعدو حتى اختفى وما كاد يهم (جان فالجان) بالرجوع حتى عام الغلام يصطحب امرأة عجوزاً .

قالت العجوز : "إن غلامى هذا قد نقل إلى أنك فى حاجة إلى مركبة " . وما كادت ترمى بتلك الكلمة حتى ندى بالعرق جبينه ، وشعر كأن اليد التى سرحته منذ قريب توشك أن تقبض عليه من جديد. فلبث غير بعيد ثم أجاب : "نعم أيتها المرأة الصالحة ، فأنا فى حاجة إلى مركبة أكتريها ، ولكنهم يزعمون أنى أحاول المحال " . قالت "لقد وجدتها". قال : "أين؟ " . قالت : "عندى" . فاحتوته قشعريرة وقال فى نفسه : "كان الذى خفت أن يكون " .

وكانت مركبة عتيقة من الخيزران قد علاها الوحل وأكلها الصدأ وفعل فيها الجو فعله . ولم تكن بأحسن حالاً من مركبته المعطوبة . ولكنها لم تأب على ما فيها أن تقله إلى أراس ، فلم يجد عنها مزحلاً ، فاكتراها على حكم ربتها وشد إليها جواده وانطلق فى سبيله . وبينا كانت العجلة تجرى به ، كان يجرى فى نفسه حديث غريب : "لقد أحسست منذ هنيهة سروراً بعثته تلك الحوائل التى قامت بينى وبين المضى فى طريقى وأرى الساعة أنه سرور كاذب ، الويل لى . أيسرنى الإحجام عن مقصد أنا الذى وجه إليه نفسه مختاراً والقعود عن سفر أنا الذى حمل نفسه عليه مسوقًا بإرادته ؟ " .

ولم يكد يمضى فى طريقه حتى سمع صوتًا يهيب به أنه قف ، فأوقف العربة ارتجالاً وقد عرته هزة المحموم يناديه . "أنا الذى هيأ لك الحصول على العجلة " . قال : "وما تريد ؟ " . قال : "أجرى على ذلك" . قال وقد فارقته تلك الأريحية التى طالما تهزه إلى إسداء الجميل : "اعزب ولا كرامة " ثم ساط الجواد فانطلق يعدو ، وأراد أن يعوض ما أضاعه من الزمن فى هيدسان ، فحط على جواده بالسوط . فلقى عناء من الجر

وكان قد خرج به غب [١] سماء فكابد من الوحل وثقل المركبة ما كاد يأتى على قواه ، فلم يطو غير خمسة فراسخ فى مدى ساعات أربع حتى بلغ سانت بول . وهناك نفس عنه فى نزلها وقاده إلى الإسطبل ووقف يعلفه . وأقبلت ربة النزل فقال : "ألا يأكل سيدى ؟ " فقال : "ما أحوجنى إلى الطعام " . وكانت امرأة صبوحة الوجه فارهة الجسم ، وأقبلت خادم ، فهيأت له الخوان وهو يسارقها النظر وقد وجد لها فى نفسه محلاً فأهوى إلى الخبز فمضع منه لقمة واحدة وكف يده . وكان على المائدة التى بجواره سائق عجلة يأكل . فقال له : "ما لهذا الخبز مراً ؟ وكان ألمانيا فلم يفقه قوله ولم يجبه . وانكفأ بعد ذلك إلى الإصطبل يراقب الجواد ، فلما فرغ من علفه شده ، وانطلق به إلى مدينة (تنك) وكانت على خمسة فراسخ من أراس . فسار وقد غرق فى هواجسه وجعل يتأمل وجوه الشجر وسطوح الأكواخ ومناظر الخلاء التى كانت تلوح له كأنها قد وقعت فى غشية أو سبات .

وإن لوجوه الأرض لتسلية ترفه عن النفس وتصرفها عن التفكير ، ولكنه قد مر بألف وجه منها ومازال كاسف البال وفاته قولهم : من سافر فقد تجدد ، وما يدريك لعله كان يقارن فى نفسه بين تقلب الأجواء وذلك الوجود البشرى الذى لا يستقر فيه شىء على حال فكل ما فيه قد جبل على الفرار منا . ألم تر إلى الليل والنهار كيف يتعاقبان ، وإلى الشروق والغروب كيف يتناوبان . والمرء يرى ما يمر به فيسرع باسطاً يديه ليمسكه فيفلته ، وكل حادث ينتابنا هو لية فى طريقنا لا تلبث أن تسلمنا إلى الكبر ، وكلما احسسنا تلك الهزات الخفية وقف بنا النظر على باب الغد وما وراءه غير الغامض من الغيب ، دع جواد الحياة الذى يستطرد بنا زماناً ثم يقف على غرة من راكبه ، فيأتى من جوف الغيب من يرجله عنه ثم يسرحه .

وطلع الشفق على مدينة تنك فى آن ، وكان النهار قصيراً فانطلق حتى إذا مر برصاف يرصف الحجارة قال الرصاف وهو ينظر إلى جواده : "أرى جواداً مكدوداً" ثم نظر إلى الرجل وقال : "لعلك تريد أراس؟ ". قال : "نعم ، قال : "إنك لن تبلغها على هذا

---

(١) أى عقب مطر.

الجواد " . قال : "كم بينى وبينها ؟ " . قال : "سبعة فراسخ" . قال : "إن دليل البريد لا يقول بقولك " .

قال : "إنهم يصلحون الطريق على مقربة منا فلا يتسنى لك المضى فيه ، وما أخلقك بالعروج على طريق آخر ، فعليك أن تتياسر ثم تركب طريق جارنس ثم تعبر النهر هناك، فإذا بلغت كامبلان فتتيامن واركب المحجة [1] إلى أراس " . قال : "أخشى الضلال فى هذا الليل البهيم " . قال : "أولست من أهل هذا البلد ؟ " . قال : "إنى غريب " . قال : "عد إلى تنك واقض الليلة فى نزلها واستبدل بهذا الجواد الذى نز التعب قواه جواداً يقلك إلى أراس " . قال : "استحال غير السفر فى هذه الليلة " . قال : "استأجر جواداً ودليلاً " . فعمل بمناصحته وقفل إلى تنك وعاد يعدو بجواد جديد يصحبه غلام من النزل .

وغاب فى أحشاء ليل قد كسر على الأرض جناحيه ، وكان الطريق ، وعراً والعجلة تجلجل [2] فوق نكت الأرض وهو فوقها مقلقل الشخص يهيب بالغلام : "إيه إيه ولك ضعف الأجر " . فصاح الغلام : "لقد عطب العريش ، فكيف نمضى ونحن بين طريق وعر وليل خليق أن تصد محارمه [3] عن السرى ، فهل لك أن تعود إلى تنك وأنا الضمين أن تبلغ أراس عند منبلج الصباح "فقال : "أمعك حبل وسكين " . قال : "نعم" فأهوى إلى شجرة فاقتضب منها فرعاً أقامه مقام العريش وانطلق فى سبيله .

وكان الوادى فى ظلام دامس والضباب (دان مسف [4] فويق الأرض هيدبه) ينبعث من التلال ، كأنه كسف من الدخان وقد شاع فى سواد السحب بياض ، وهبت ريح البحر فى جوانب الأفق فكان لهبوبها أشبه الأصوات بصوت الأثاث عبث به عابث .

---

(١) الطريق .
(٢) أى تتحرك مضعضعة .
(٣) أى مخاوفه .
(٤) مأخوذة من قول الشاعر : يصف سحابا قريباً من الأرض : دان مسف فويق الأرض هيدبه * يكاد يدفعه من قام بالراح .

فتمخخ [1] البرد عظامه وكان طاويا منذ العشية ، فذكره القر والطوى تلك الليلة التى قضاها منذ سنين ثمان فى ضواحى مدينة (دينى) وقد ذكرها كأنه يذكر أمس الدابر . وسرى إلى سمعه جرس ساعة على بعد فقال للغلام : "ما هذه الساعة ؟" . فقال : "إنها الساعة السابعة وسنبلغ أراس فى الثامنة ، فليس بيننا وبينها غير فراسخ ثلاثة " .

ونزلت برأسه فكرة لم يسبق لها فى النزول ، فقال : "ويل لى ما أضيع ما جشمت نفسى فى يومى هذا من التعب أما كان الأخلق بى أن أعلم علم تلك القضية وموعد النظر فيها " ثم قدر فى نفسه تقديراً لذلك الموعد وقال : "إن الجلسات لا تعقد قبل الضحى ، والنظر فى هذه القضية لا يفتقر إلى الكثير من الزمن ، إن هو إلا سؤال وجواب فشهادة أو شهادتان . فكلمة للمدافع . فحكم لا يتعدى التغريم ، ولعلى أبلغ الجلسة قبل الفوات .

كل ذلك والغلام يسوط الجواد فعبر النهر وجاز مدينة موت سان إلواى وقد سطعت غياهب الظلام .

* * *

ولنعد بالقارئ إلى " فانتين" :

فى الوقت الذى تجرى فيه هذه الحوادث كانت فانتين رضية البال، وكانت قد طوت ليلة مذكورة ، كابدت فيها من الحمى ومزعجات الأحلام ما يهد الحيل [2] .

ولما أصبحت كانت لا تزال تهذى ، وعادها الطبيب فوجدها فى فورة من النفس فطلبت إليه أن ينذرها عند قدوم مادلين .

---

(١) تمخخ أخرج مخها .

(٢) الحيل والحول ، بفتح الحاء فيهما : القوة .

ولبثت فى تلك الضحوة كاسفة البال لا تكاد تفتح فاها . وجعلت تلهو بطى غطائها طيات مقدرة ، وتحرك شفتيها كأنها تذرع [1] بفكرها مسافة من المسافات ، وقد غارت عيناها وجمد بصرها ، وانطفأ ضياؤه أو كاد . وكانت تفتح بين الفينة والفينة عينيها عن مثل لمعة الكوكب ، ولا عجب فإذا دنت ساعة الشدة فإن مدداً من السماء يملأ نفوس أولئك الذين فقدوا مدد الأرض .

وكانت كلما سألتها الراهبة : كيف أنت ؟ قالت : "أحمد الله ولا أطلب إلا رؤية مادلين " ! .

منذ بضعة أشهر وفى ذلك الحين الذى ابتذلت فيه فانتين خدرها فتمزقت عفتها ، وغاض حياؤها ، كنت ترى فانتين وكأنها ظل لفانتين . أما اليوم وقد فنى جسمها فقد كنت ترى فانتين وكأنها طيف لفانتين (والظل للجسم والطيف للروح) ولقد كان لتشويه خلقها أثر فى خلقها فانظر إلى تلك المرئية التى لم تشهد غير خمسة وعشرين ربيعاً ، كيف هبط أكثر لحمها فتجعد جبينها ورهل خدها ، وشحب لونها ، وبرز منكباها ، وتجردت عظام نحرها ، وانبرت أعضاؤها ، وأصبح جلدها وكأنما طلاه بالطين طال . ونبت شعرها الأشقر ، وقد نصل لونه وجالت فيه طلائع المشيب ، فأف من المرض فإنه يرتجل الشيخوخة وإنه لأنجب مطايا الكبر .

وعند الظهر عادها الطبيب فسأل عن مادلين ولما علم بغيابه حرك رأسه حركة أعربت عن الأسف .

وكان مادلين يأتى فى عصر كل يوم وما تخلف مرة عن ذلك الموعد . والوفاء من شمائل الطيبة ، وقد كان الرجل طيباً .

وعاودتها عند العصر فورة النفس فسألت عن ساعة زمانها عشر مرات فى مدى عشرين دقيقة ، ثم استوت فجأة فى سريرها ، تلك التى كانت لا تنبعث لها جارحة من المرض والهزال . ثم شبكت ذراعين قد أنحلهما السقم ، وأرسلت من صدرها تنهداً

---

(١) تقيس بالذراع .

خيل معه إلى الراهبة أنها رفعت به عن صدرها ثقلاً ، ورمت الباب بنظرة من يرقب قدوم إنسان .

ولكن الباب لم يرمها بأحد فلبثت برهة وهى تنظر إليه . وكأنها معلقة الأنفاس والراهبة لا تجرؤ على سؤالها . ثم ألقت برأسها على الوسادة ومرت الساعة تلو الساعة ولم يزرها زائر .

وما رآها على تلك الحال راء إلا وعلم بما يجول فى فكرها ولكنها صابرت آلامها ، فلم تشك ولم تتوجع .

وسمعتها الراهبة قبيل الغروب وهى تقول بصوت خافت : "إننى هامة اليوم أو الغد ، فما كان أخلقه اليوم بزورة الوداع " . ثم طفقت تغنى – وكأن صوتها نفحة من نفحات النسيم – أغنية عتيقة تدعى بأغنية الأرجوحة ، كانت تنغم بها فانتين لإنعاس طفلتها فى عهدها الأول ، وقد كان صوتها يقطر حزنًا ، وإيقاعها مشجيًا لا يملك السامع معه الدموع من أن تسيل ، فبكت حتى تلك الراهبة التى درجت على الزهد والتقشف .

ولما أعتمت علت وجهها آيات الذهول وأرسلت الراهبة صبية تسأل عن مادلين فعادت على الأثر وأسرت لها أن مادلين قد سافر وحيداً فى فجر هذا اليوم ولا يدرى خلق بالوجه الذى يريده .

وقد رآه قوم على طريق أراس وزعم قوم أنه قد ركب طريق باريس وكان هو هو ، لم يلمحوا على ظاهره ما ينم على باطنه . وبينما هما يتساران على مقربة من سريرها وقد استدبرتاه وإذا بفانتين وكان نافضًا من الحمى تمازجه حركة المعافى فى بدنه قد حركها فى سريرها . فهبت رغم ذلك الهزال المروع هزال الموت وجثت على ركبتيها واعتمدت على الوسادة بمرفقيها وأرهفت للسمع أذنيها وفرجت برأسها ما بين سجفى كلتها [١] وصاحت بهما : "إنكما تخوضان فى حديث وإن لمادلين فيه لشأنا " . ونادتهما

(١) الناموسية .

بصوت تخالطه البحة والخشونة ، كان من أثره فى نفسيهما أن ظنتا أن المتكلم رجل من الرجال، فالتفتتا مذعورتين فقالت لهما : "ما لكما لا تنطقان؟ " . فقالت الصبية بصوت خافت : "إن البوابة تقول إنه لا يعود الليلة " . وقالت الراهبة على أثرها : "اهدئى أنت ونامى" . فأجابتهما بصوت فيه رنة من الجلال ونبرة من الأسى : "إنه لا يعود ، أراكما تتساران فى شىء تحاولان كتمانه عنى ، ولا بد لى من الوقوف عليه " فألقت الصبية فى أذنى الراهبة كلمات فاحمر وجه الراهبة وهالها أن تكذب ، ثم ترددت بعض الشىء ، وقالت فى نفسها إن أنا صدقتها فى مثل هذا الموطن فقد قتلتها ، وإن أنا كذبتها فقد قتلت كرامتى . ثم لبثت غير بعيد ، وقالت لفانتين بصوت المتمكن من نفسه: "إن مادلين قد سافر اليوم " .

فاستوت المريضة فى سريرها وسرت بنفسها عقبة من السرور ومرت بعينها خطفة من بارقة الأمل وصاحت : "إنه سافر ليرى كوزيت " ، ثم ضمت يديها واستقبلت السماء بوجهها وأخذت تصلى . ولما فرغت من صلاتها قالت للراهبة : "الآن حلا لى النوم إمضاء لأمرك فلا تنزلى أمرى على الجرأة عليك إذا رفعت صوتى فى الحديث ، فما فاتنى أن ذلك كان خروجًا عن أفق الأدب وإنما استخفنى السرور ! ثم أخذت مضجعها بعد أن لثمت صليبها ، وقالت لها الراهبة : "اهدئى ونامى " فضمت يديها الناديتين على يدى الراهبة التى هالها وفر العرق الناضح من جسم المريضة .

وأنشأت فانتين تقول : "سافر إلى باريس وما كان أغناه عن ذلك ومنت فورمى على يسار ذلك الطريق فلعله يتحرى مفاجأتى بذلك النبأ السار ، فقد قال لى بالأمس حين جر الحديث إلى ذكر كوزيت أننى سأراها قريبًا وأخذ توقيعى على كتاب إلى أصحاب النزل ولا أحسبهم إلا فاعلين وما كانوا ليحبسوا عنى كوزيت وقد وفوا أجورهم فحبسها عنى افتيات على أولى الأمر ، فلا تومئى إلىّ بالسكوت فأنا الساعة فى عافية لا عهد لى بمثلها وسعادة لا حد لها . أو لست خليقة بعد أعوام خمسة أن أرى وجه طفلتى ولا أحسبها وقد بلغت السابعة إلا صبية حسناء ولقد صبرت على بعدها طوال السنين ، وللصبر حد ولو أن لى عمر الأبد لهان ذلك البعاد .

"فما أطيب عنصر ذلك الرجل الذى غامر بنفسه فى ذلك البرد القارس لإنقاذ طفلتى ، ولعله يعود فى الغد من مونت فورمى ، وهى بلدة قد قطعت طريقها على قدمى

منذ عهد طويل فكان بعيد الشقة عليّ وإن كان يسيرا على العجلان ، فيا ترى كم بيننا وبينها ؟

فأجابت الراهبة التى لا علم لها بتلك الشقة : "إنه سيعود بإذن الله فى الغد " . فقالت: "سأرى بنيتى فى الغد . إن الأمل بلقائها قد ألبسنى ثوب العافية ، فلست مريضة كما تزعمون ، ولكنى مفتونة ، فلو أنى دعيت الساعة إلى الرقص لأبدعت فيه " .

وكانت فى هذه الأونة وردية اللون قد ابتسمت قسمات وجهها ، فكنت ترى ذلك الوجه وكأنه قد جمع من البسمات وما أشبه سرور الأمهات بسرور الأطفال .

ثم ألقت برأسها على الوسادة وجعلت تدور بعينيها فى أرجاء الحجرة وقد بدت عليها سيما الارتياح ، فأطبقت الراهبة الستائر على كلتها رجاء أن يأخذها النعاس . وعاد عند العتمة الطبيب فلم يحس حركة فى المكان فعزا ذلك إلى نوم المريضة فخافت[1] من مشيته ودنا من سريرها وأزاح الستار فرأى على ضوء الساهرة [2] وجها هادئًا وعينين لم يرتقهما النوم ، فابتدرته قائلة : "إنهم سينيمونها هنا بجانبى على سرير صغير " . فعجب الطبيب من أمرها وظنها تهذى فانتحى بالراهبة ناحية فنفضت إليه جملة الأمر .

ثم عاد إلى سرير المريضة فقالت : "إذا تيقظت بنيتى ألقيت عليها تحية الصباح، وإذا نامت صنع بى تنفسها الهادئ ما لا يصنعه الدواء ، فأتجه إلى العافية ". فقال لها الطبيب : "يدك" فمدت يدها وهى تبتسم وتقول : "ألا ترى أنى نجوت؟ " فدهش الطبيب حين جس نبضها ورأى الحياة تجرى فيه جريانًا . فقال : "إنه من صنع السرور الذى أدخله على نفسها الأمل بلقاء بنيتها " ثم أوصى بالسكوت وأمر بدواء يلطف من حدة الحمى إذا هى عاودتها فى ليلها ، وقال للراهبة عند انصرافه : "إذا أسعدها الطالع برجوع مادلين فى الغد فقد نجت " .

---

(١) أى مشى على أطراف أصابعه .

(٢) الساهرة وجمعها سواهر كلمة قد وضعناها مكان القراية عند العامة .

وكائن من سرور مسح من مرض ، وإنه لسر من الأسرار التى سيكتشفها العلم فى مقتبل الزمان .

* * *

ولما كانت العتمة ، وقف المسافر الذى تعقبناه على باب النزل (بأراس) وسرح الجواد الذى استأجره وقاد بنفسه الجواد الأبيض إلى الإصطبل ثم عاد إلى النزل وجلس فى إحدى قاعاته وارتفق [١] على منضدة وكان قد استوفى عمر يوم وليلة فى سفر كان يقدر له نصف يوم ، وما كان ذلك من صنعه ولكنه صنع القدر .

ولو أنك قرأت ما فى نفسه لتجلت لك فيها آيات الرضى . ودخلت عليه فى هذه الأثناء ربة النزل ، وقالت : "أيرغب سيدى فى العشاء والنوم ؟ » . فأومأ إليها برأسه إيماءة الرفض ودخل على أثرها غلام الإصطبل وقال : «إن جوادك مكدود» فابتدره قائلا : «أو ليس فى طوقه السفر غدا ؟» . قال : «إنه لا يستطيع الحركة قبل يومين» . قال : «أين مكتب البريد؟» فقيد إليه ، فأخرج جواد السفر وطلب العودة إلى مونتراى سيرمير فى نفس البريد الذى قدم معه وكان المقعد المجاور لمقعد السائق لا يزال خاليا ، فأجيب إلى طلبه ودفع النفقة وأنذر بالسفر قبيل السحر .

ثم غادر النزل وجعل يمشى فى المدينة ويتنقل فى طرقاتها على غير هدى وكبر عليه أن يسأل المادة ، فعبر النهر وخلص إلى زقاق ضيق فضل السبيل ومر به فلاح يحمل فانوسا [٢] فبدا له أن يسأله عن الطريق ثم نظر إلى الخلف والأمام كراهة أن يسمعه إنسان ، ولما أمن ذلك سأله : «أين دار الحكمة؟» وكان الرجل من ذوى الأسنان . فقال له : «يلوح لى أنك غريب فاتبعنى فإن طريقى عليها» . فانطلقا حتى إذا كانا على

---

(١) أعتمد بمرفقيه .

(٢) الفانوس فى الأصل النمام وقد استعمل للشمع لأنه ينم عليه .

كثب من الغرض أنشأ الفلاح يحدثه : «إن كنت رب قضية فقد جئت بعد الفوت ، على أني لا أزال أرى ضوءا بنوافذ قاعة الجلسة ، ولعلها لم ترفع ، فإن كنت شاهدا فقد جئت في الوقت» . قال : «إنما جئت لاستشارة محام» . فقال الفلاح : «هاك الباب فإذا دخلت فارق الدرج» .

فمضى الرجل على إرشاد صاحبه فإذا هو في قاعة فسيحة قد غصت بالناس ، وطائفة من المحامين هنا وثم يتهامسون ، وإن رؤيتهم وهم في ملابسهم السوداء لما تنقبض له النفس ، فقل أن تخرج كلمة من أفواههم يستروح منها السامع روائح الرفق أو يجد ريح البر ، فلا يكاد يسمع إلا نعيبا يؤذن بحلول العقاب .

فإذا مررت بهم حسبت أنك أمام خلية دونها خلايا النحل - خلية تطن فيها العقول طنينا حتى ليؤتى لك وقد أخذتك الوحشة أنك في معبد مظلم تعمره الأرواح . وكانت القاعة على ترامي أطرافها لا يضيئها إلا سراج واحد فمشى الرجل فيها وقد شد منه ذلك الظلام الذي عجز عن تبديده السراج ، فلم يستح أن يسأل أول محام لقيه : «فيم القوم؟» . قال : «قضى الأمر» . فارتاع وقال : « قضى الأمر !» .

نطقها بمرارة لفتت إليه المحامي . فقال : «ألعلَّك قرابة [1] له» . قال : «لا شأن لي ولا قرابة ، فهل حكم بالإدانة ؟» . قال : «استحال غير ذلك» . قال : «أتراه سجن الأبد؟» . قال : «نعم» . قال بصوت لا يكاد يسمع : «لقد عرفت إذن شخصيته» . قال : «أية شخصية ؟ لقد كان الأمر جليا . امرأة قتلت ولدها فحق عليها العقاب !» . قال : « أعن امرأة تتكلم؟» . قال : «نعم» . قال : «ما لهم وقد فرغوا من أمرها لايزالون في مقاعدهم؟» . قال : «إنهم ينظرون منذ ساعتين في شأن آخر» . قال : «وما عسى أن يكون ؟». قال : «مجرم عائد من أرباب السوالف وأضياف السجون لا يحضرني اسمه قد أخذوه بسرقة جديدة ، ولعلهم لا يتلومون في الحكم عليه ، فسحنته سحنة الفاتك ، ولو كنت قاضيا لكفتني النظرة إليه مئونة التحقيق في أمره» . قال : « ألا يتسنى لي الدخول؟» . قال : «إن القاعة مكتظة بالناس وقد رفعت الجلسة فإذا عادوا إلى النظر

---

(١) أي قريب .

فربما تهيّأ لك الدخول فى غمار الناس» . قال : «ومن أين أخلص إليها ؟» . قال : «من ذلك الباب الكبير» .

ثم غادره المحامى وهو على غير استواء ، وكأن إبرًا من الثلج ونصالا من النار قد اعتورت فؤاده وخزا وطعنا ولم يدر أكان مأتاها الألم أم السرور . وجعل يقترب من الناس وهم قنابل [(1)] قنابل يتحدثون فسمعهم يقولون : «إن هذا الرجل قد سرق تفاحا ، فهو وإن لم تثبت عليه السرقة فقد ثبت أنه من المجرمين العائدين وقد انقضى استجوابه وشهدت الشهود ، ولم يبق إلا دفع المحامى ورد النائب وربما استوفى ذلك من الليل نصف عمره ولا نظنه يفلت من العقاب . فالمدعى فتى ذكى الفؤاد أديب ينظم الشعر ويعرف كيف يوفى الاتهام حقه» . فدنا من الباب فوجد عنده حاجبا فسأله : «متى يفتح؟» فقال :«لا يفتح» . قال : «كيف والجلسة على وشك الانعقاد بعد رفعها» . قال :«قد عقدت الجلسة والقاعة قد ضاقت بمن فيها» . قال : « ألا أجد فيها مكانا أصف فيه قدمى ؟» قال : «لا» ، ثم عطف قائلا : «إن خلف الرئيس مكانا أو مكانين لا يؤذن بحلولهما لغير الخاصة» . ثم ولاّه ظهره فنكس الرجل رأسه ومشى مشية الحائر وهبط بعض الدرج وهو من نفسه فى حرب عوان ثم أخرج من جيبه بيضاء [(2)] خط فيها : «مادلين شيخ مونتراى سيرمير» ثم صعد الدرج وشق الصفوف وأتى الحاجب وقال له بصوت الآمر : «احمل هذه إلى الرئيس» فأخذها الحاجب وألقى عليها نظرة عجلى ومضى طائعا .

* * *

منذ سنين سبع ومادلين نابه الذكر قد اقترن اسمه بالثناء ، وملأت شهرته جوانب الأفق فجازت حدود بلده إلى ما جاوره من البلدان فتعالم [(3)] الناس فضله وأخصب به الزمان والمكان فنمت فى عهده صناعة الخرز الأسود وكانت له يد على الصناعات ، فمد المصانع بالمال حتى حسد بلده عليه .

---

(١) جماعات جماعات .

(٢) أى ورقة بيضاء .

(٣) أى علم .

وكان رئيس الجلسة فى أراس ممن يعظمون مادلين ويبجلونه ، فلم يكد يحمل الحاجب إليه رقعته حتى أذن له ، فعاد الحاجب فسلم وانحنى حتى كاد يمس الأرض بجبهته وحتى تبين مادلين إعظامه فى حماليق عينيه ، وقال له : «ليدخل سيدى غير مأمور» ومشى أمامه مشية العبد القن .

ذلك الذى كان يوليه ظهره غير مكترث له ثم مد له يده برقعة الرئيس ، فتناولها واقترب من المصباح وقرأ على ضوئه : « إن رئيس المحكمة بأراس يهدى تحية يمازجها الإجلال إلى الشيخ مادلين» .

ثم تبع الحاجب قلم يلبث أن رأى نفسه وحيدا فى قاعة المداولة وكانت قاعة لا سر النظر يضيئها شمعتان قد نصبتا على منضدة أقيمت على بساط أخضر ، وذكر قول الحاجب عند انصرافه : «إنك ياسيدى فى قاعة المجلس ، فإذا أدرت ذلك الزر النحاسى الذى تراه بالباب وجدت نفسك فى قاعة الجلسة خلف كرسى» ، ففعلت فى نفسه تلك الكلمات فعلها واختلطت بما كان يدور فى رأسه من الذكريات المبهمة التى بعثها فيه ما صادقه فى ذلك الممشى وما مر به فى تلك الدرج . وأوفت الساعة المرهوبة فحاول أن يجمع أشتات نفسه فلم يغن شيئا ، وتضعضع فى ساعة هو أحوج مايكون فيها إلى التماسك تلقاء تلك الحقيقة الأليمة ، وكم قطع فى مثلها سلك التفكير وملكت على المرء المذاهب ، فقد كان فى الموطن الذى يجلس فيه القضاة فيدينون ويبرئون . وجعل ينظر نظر الأبلة إلى تلك القاعة الساكنة المروعة التى يقضى بها على أرواح العباد . وكان به وهو ينظر إليها أن اسمه سوف يدوى فى جوانبها وأن المقدور عليه سوف يحلق فى سمائها .

وجعل يتنقل ببصره بين جدرانها وبين نفسه ويقول : «ترى ما هذه القاعة وترى من أنا ؟ » وكان قد طوى يوما وليلة وفعلت فيه رجات المركبة فعلها ، ولكنه لم يستشعر ألما ولم يحس جوعا ، ودنا من إطار أسود معلق على الجدار فيه رسالة عتيقة لا يعلوها زجاج ، خطها جان نيكولا (باش عمدة باريس) وأحد الوزراء ، رصد فيها أسماء

النواب والوزراء الذين اقتضبوا من دورهم اقتضابا وسيقوا إلى السجن ، ولو أن أمرًا تفرس فيه لأدرك للوهلة الأولى أن الرسالة قد أخذت من نفسه محلا ، على أنه قد قرأها ثلاثًا ولم يملك الفهم ، ولا عجب فقد كان يفكر فى فانتين وكوزيت .

وانفتل وهو فى تلك الغمرة فأخذ بصره قبضة الباب الذى يفصله عن قاعة الجلسة . فأدمن إليه نظرا هادئا ثم بان فيه الخوف ، ثم أطل من محاجره الفرع ثم تلاه الجزع فندى بالعرق جبينه ، وأتى على أثر ذلك بحركة يخطئها الوصف . حركة يمازجها السلطان كأنها تناديه : «ما الذى يحملك على كل هذا؟» ثم انفتل ثانيا فوقع نظره على الباب الذى دخل منه فاندفع إليه ففتحه ، ونجا من تلك القاعة إلى ممشى طويل جم المنعطفات كثير الليات به طائفة من النوافذ تقطعه درج للهبوط ، تضيئه سرج ضئيلة النور كأنها السواهر .

فتنفس الصعداء وأصغى ، فإذا هو فى سكون الرموس فانطلق يعدو كمن يطارده مطارد ، حتى إذا غاب فى أحشاء تلك المنعرجات وقف يتسمع للمرة الثانية فلم يرعه مروع ، فجعل ينفس عن نفسه كرب العدو ، فأسند ظهره إلى الحائط فوجد مس البرد من حجارته ، فاعتدل مقفقفا .

ولما وجد نفسه قائما وحيدا فى جوف هذا الظلام نهبا للبرد والهواجس جعل يفكر . على أنه قد فكر فحمة [1] الليل وسراة النهار ، فلم يسمع غير صوت واحد يناديه : «واأسفاه!» . ومرت به فترة وهو على تلك الحال ، ثم أمال رأسه وأرسل ذراعيه وتأوه آهة الرجل الحزين ، ورجع أدراجه . وجعل يمشى مشية المتثاقل كأن لاحقا لحق به فى فراره فصده عن قصده ورده إلى حيث كان ، فدخل القاعة التى برحها وأخذ نظره قبضة الباب الذى يفصله عن قاعة الجلسة ، وكانت من النحاس المصقول ، فبدت له كأنها كوكب من كواكب النحس فجعل ينظر إليها نظره الشاة إلى عين النمر ، وأخذ يدانيها ثم اندفع وهو لا يدرى إلى الباب وأهوى بيده إلى القبضة فأدار زرها فإذا

---

(١) أى طول الليل والنهار .

بالباب وقد انغلق عنه ، وإذا به فى قاعة الجلسة فخطا خطوة وأقفل خلفه الباب ووقف ينعم النظر فيما يرى .

وكانت قاعة فسيحة تربو ظلمتها على نورها ، يملأ جوانبها الضجيج وتارة يغمرها السكون قد طرحت فيها قضية جان تحوطها خطورة تشوبها المسكنة ، ويتمشى فى أثنائها انقباض فى الصدور .

وفى الجانب الذى وقف فيه جلس قضاة لا تنم معارف وجوههم على شىء من الاكتراث ، عليهم أردية بالية ، وهم بين قارض لضفره ومغمض لعينيه .

وفى الجانب الآخر لفيف من الناس فى أخلاق (١) الثياب وقد نثر بينهم محامون فى شتى الأزياء ومختلف الأوضاع وعلى ضواحيهم (٢) أحراس تهب من أردانهم ريح القسوة ويعبق أرج الشرف . وكانوا تحت سقف قد كسته الأقذار وفوق أخشاب قد بلغ منها القدم ، أمامهم مناضد تكسوها أجواخ صفراء كانت فى ميعة صباها خضراء ، وحولهم أبواب قد طلاها تداول الأيدى بطلاء من القار ، تضىء لهم سرج من سرج الحانات قد علقت فى مسامير مرشوقة فى الحائط تبعث من الدخان فوق ما ترسل من الأضواء .

وقد نصب على كل منضدة شمعدان من النحاس أقيمت فيه شمعة .

وقد كان الظلام المخيم فوق ذلك المشهد المهيب يولد فى نفس الناظر شعورين من وقار وإكبار ، وشعوراً بعظمة المخلوق ، ومظهره القانون ، وشعورا بعظمة الخالق ، ومجلاه العدل .

* * *

---

(١) الثياب البالية .

(٢) أى بالقرب من أكتافهم ومناكبهم ، أحراس جمع حرس .

وقف مادلين ولم تأخذه عين فقد كانت العيون مصوبة إلى هدف واحد ، مقعد من الخشب بجانب باب صغير فى طول الحائط على يسار الرئيس قد جلس فيه رجل بين حارسين وشموع تزهر .

وكان هو الرجل .. !

رآه مادلين ولم يجشم عينيه مئونة البحث كأنه كان معه على ميعاد . وقد خيل إليه أنه يرى فيه نفسه ولكن فى سن عالية ، وما كان الشبه بينهما قاصرا على السحنة ، ولكنه كان فى الموقف والمنظر وذلك الشعر القاف وذلك النظر الشزر الذى لا يفارقه القلق ، وتلك الأهدام البالية التى كان يجول فى أمثالها يوم دخل مدينة دنى يحمل فى نفسه ضبا من الضغن [1] ويخفى فيها ذلك الكنز الذى اقتناه فى أعوام سجنه .

ذلك الكنز الذى جمعه على بلاط السجن من وحى الشر ، لا من يتيمات الدر . فارتعد وقال : » «اللهم غفرا ، أكذا تكون العقبى ؟» وكان ذلك الرجل قد بلغ الستين أو جازها يلوح عليه ضرب من البله على حواشيه جفوة واسيتحاش .

ولما فتح مادلين الباب صر صريرا نبه القضاة ففسحوا له مكانا ، ولفت الرئيس فحياه ، وحياه على أثره المدعى العام فلم يكد يلمح تلك التحايا لأنه وقع فى ذهول قد افترس طائر حلمه .

قضاة وكتاب ، وشرط ، وجمع مشرئب الأعناق على ظماء إلى الاستطلاع . إنه شهد هذا المشهد قبل اليوم بسبع وعشرين سنة ، وها هو ذا يشهده اليوم .

وما كان ما يراه من عمل الذاكرة أو صنع الخيال ، ولكنه من صنع الحقيقة . قضاة وشرط وجمع من الأحياء قد ركبوا من لحم وعظم فهم يتحركون . وضح ذلك لعينيه وبرزت له صور الماضى فى أبشع ألوانها وأروع مظاهرها ، وأشكل عليه الأمر فأغمض عينيه وصاح فى أغوار نفسه أن هذا لن يكون .

---

(١) أى يحقد حقداً شديداً .

ولعبت به الأقدار ، وأرته من تهاويلها ما زاد فى خيال عقله حتى كاد يخالط فيه . فرأى كأن هناك رجلا قد شق منه ، وقد تواطأ الناس على أن ذلك الرجل لم يكن غير (جان فالجان) .

ثم رأى ويا هول ما رأى .

رأى شبه مسرح قد قام فيه شبحه بتمثيل أبشع أطوار حياته .

وقد أخذت لذلك التمثيل عدته ، فكان يرى نفس المشهد فى نفس ساعة الليل التى حكم فيها ، وكان القضاة هم قضاته وكأن الأحراس هم الأحراس ، والحضور هم الحضور إلا أنهم رفعوا فوق رأس الرئيس صورة المسيح ، ولم تكن تزين قاعات الجلسات فى عهد محاكمته ، فحوكم لشقوته فى يوم لم تشهده عين المسيح .

وسقط على كرسى كان خلفه سقوط الحجر ، فزعا من أن تقع عليه العيون . وأغيث بشبه عمود من الأوراق المكدسة فوق منضدة القضاء ، فاستتر به فبلغ أمنيته وجلس يرى من حيث لا يرى ثم جعل يتمكن من نفسه شيئا فشيئا حتى وضحت له الأمور على حقائقها ، وخرج من الذهول إلى الرشد .

وكان همه أن يرى جافير فرمى بصره بين الشهود فحالت منضدة الكاتب بينه وبين ما يريد ، وأعانها ذلك الظلام الذى لم ترقق من حواشيه تلك السرج .

وساعة دخل كان المحامى قد فرغ من دفعه وشحذ الأسماع إلى الإصغاء وقد مرت على مخاصمة المتهم ثلاث ساعات . والحضور يرون أمامهم رجلا ينوء شيئا فشيئا بثقل ذلك الشبه الغريب الذى أوشك أن يحل فى لباسه . ولقد كان الرجل مجهولا ، كان أحد أولئك البائسين الذين تنتشر على وجوههم طبقات من البله أو من تصنع البله ، فهو إما أن يكون من أشد الناس بلها أو من أوفاهم قسطا فى الذكاء .

كان أفقيا قد أخذوه بفرع من التفاح الناضج اقتضبه من شجرة فى بستان «بيرون» .

فيا ترى من هو هذا الرجل ؟ .

جرى التحقيق وشهدت الشهود وتألقت فجات من النور فى ظلمات ذلك الأفق ، أفق التحقيق .

وقال الاتهام إننا لم نقع على سارق هين الأمر ، يختلس الثمر ، أو أحد أبناء السبيل ، ولكننا قد ظفرنا بمجرم فار وقبضنا على شاهر عيار من قطاع السبيل وفاتك من شر الفتاك ، ذلك «جان فالجان» الذى جدت الشرطة فى تعقبه منذ عهد طويل .

ذلك الذى استوفى عمر العقاب فى سجن تولون ، وقطع يوم سرح منه السبيل على غلام من سكان سافواى اسمه «بيتى فيرجى» وقد دخلت جريمته تلك تحت طائلة المادة ٣٨٣ من قانون العقوبات ، وإنا لنرجئ أخذه بها حتى يثبت لنا شخصه ... وقد ركب هذا الفاتك جريمة جديدة فهو إذاً ممن تعودوا الإجرام . فخذوه اليوم بجريمته الجديدة .

وكانت عوامل الدهش تنتاب المتهم أمام هذه التهمة وذلك الإجماع من الشهود .

وتبدر منه بوادر من الحركات والإشارات تأويلها النكران . فهو وإن خانه النطق ، أو تعصّى عليه الكلام فقد قام فى جسمه من فرعه إلى عقبه خطيب ينادى : إنى مأخوذ بجريمة غيرى ، وأفتى فى ذلك شبه غير ميمون .

وقد وقف وقفة الأبله بين صفوف من الذكاء كأنها جنود قد اصطفت للنزال ، وقد قبضت عليه يد لا تفلته وأنشأ القضاة ينسجون له مستقبلا من خيوط الوعيد .

وغبرت تمشى إليه التهمة على جسر من ذلك الشبه المشئوم ، وكان قلق الجمهور عليه أشد من قلقه على نفسه فلبثوا يتوقعون الحكم بالإدانة ويطالعون له الموت من ثنايا ذلك الحكم .

فياترى من كان ذلك الرجل ومن أية طينة قد ركبت تلك البلاهة ؟ أتنزل البلاهة بالناس إلى هذا الحد ، أم كان ذلك من صنع المكر والخداع ، أتراه قد جاز حدود الذكاء أم نزل إلى أحط مراتب البله ؟

تلك أسئلة قد شطرت الحضور شطرين ، وسرت عدوى ذلك إلى المحكمين ، فقد كان من أمره ما يزعج وما يشغل البال ، وما كان العجب من سوء حاله ، ولكنه كان من غموضه .

جود المحامى فى الدفاع وتأنق ما شاء فى تخير اللفظ وكان يخطب بلغة الأقاليم ، وهى لغة قد ألفتها المحاماة زمنا طويلا تزعم أنها اللغة البليغة ، وجرى المحامون عليها أجيالا فى باريز وفى ضواحيها من المدائن . وقد آلت اليوم إلى لغة دراسية ولع بها الخطباء من أرباب المناصب كرجال النيابة وأشباههم . راقهم منها لفظ يرن فى الأذن رنينا يمازجه الجد وأسلوب يمشى إلى السمع مشية تصحبها الجلالة .

فكانوا إذا ذكروا الزوج قالوا «البعل» ، والزوجة قالوا : «الخليلة» ، والملك قالوا : «رب التاج والصولجان» . وإذا ذكروا باريز قالوا : «أم الفنون ومهد المدنية» . فالمدعى العام فى لغتهم «خطيب الاتهام المصقع» ، والمرافعة «الصيحات التى تسمعها المحكمة» ، وعصر لويز الرابع عشر «عصر الكبير» ، والأسرة المالكة « دماء ملوكنا الكريمة» ، والقائد «الجندى العظيم» ، وخطأ الصحف السيارة «الكذب الذى تنفث سمه فى أنهارها» .

بدأ المحامى دفعه بتفسير سرقة التفاح وصعب عليه أن يمر فيه بذلك الأسلوب الرائع ، ولا عجب فقد وقع ذلك لـ (بوسيه) نفسه ، فقد أرتج عليه وهو يؤبن ميتا عظيما ففزع إلى الاحتماء بوصف دجاجة سنحت له وخرج من مأزقه ذلك بين التهليل والإعجاب خروج الظافر .

أثبت المحامى أنه لم يقم دليل محسوس على سرقة التفاح لأن المتهم لم تأخذه عين وهو يظهر [1] الحائط ويعالج كسر الفرع ، ولكنه فوجئ وهو يلتقط ذلك الغصين (وقال الغصين بتصغير غصن ، تهوينا للأمر) واعترف بأنه وجده مطروحا على الأرض فالتقطه ، ولم تأتونا بما غصن ذلك ، ولعل أحد السابلة قد مر بذلك البستان ، فتسور الحائط واقتضب ذلك الفرع ثم أحس خطرا فألقى به على الأرض ، ونجا بحشاشة نفسه .

لقد وقعت السرقة ولكن المتهم لم يكن بصاحبها . إنكم قد أخذتموه بسابقة أمره لأنه ممن تعودوا الإجرام ، (وفاته أن ذلك الأمر الذى سلم به فى عرض دفاعه لم يبلغ

---

(١) يتسور .

فى التحقيق مبلغ اليقين ، فجاء ذلك التسليم ويلا على المتهم) ثم مضى فى دفعه ، وقال : «إنه كان مقيما فى (فافرول) يرتزق من تشذيب الشجر وحقيقة اسمه (شان ماتييه) وأحسبهم قد حرفوه إلى (جان ماتييه) .

ثم مر بشهادة الشهود مرا ولم يدفعها ، وكان يتكئ فى أقواله على إنكار المتهم حتى انتهى إلى قوله : «فلو سلمنا أنه هو «جان فالجان» ، فهل يقوم هذا دليلا على أنه سارق التفاح ؟ إن هى إلا قرينة من القرائن ، وما أبين ما بينها وبين الدليل القاطع .. لقد أساء المتهم إلى نفسه بذلك الإنكار المطرد ، فأنكر كل شىء – أنكر جرائمه وشخصيته وكل ما صوب إليه فى ماضيه وحاضره ، ولو أنه اعترف بماضيه لاكتسب بذلك عطف القلوب .

نصح إليه المحامى أن يقلع عن ذلك الإنكار ، فأبى وأصر وظن أنه يخرج من تبعة كل شىء إذا هو أنكر كل شىء ولا عجب فقد كان بليد الذهن ، ومر به من صنوف البلاء فى السجن وبعد السجن ما يبلد الذهن السليم ، على أن طريقته التى جرى عليها فى الدفع عن نفسه لم تكن مبررة للحكم عليه .

ورد المدعى العام على المحامى ردا رق مبناه وخشن معناه ، شأن أمثاله من المدعين ، فأثنى على صدقه وأطرى منهجه وعرف كيف ينتفع بذلك الصدق ، وأخذ المتهم بنزول (١) محاميه عن التمسك بإنكار شخصيته ، وسجل عليه ذلك النزول ، فأضاف إلى الاتهام حجة قد دعمت من حججه ، وتدرج فى قوله بلباقة حتى وقف على منبع الإجرام وأنحى باللوم على تجرد المدرسة الروائية من روح الشرف . وكانت إذ ذاك فى فجر ظهورها وقد دعاها النقاد فى الصحف بالمدرسة الجهنمية ، وعزى – وهو على شىء من الحق – جريمة (جان ماتييه) أو (جان فالجان) إلى تأثير ذلك الأدب الخلاب الذى را ع العقول .

وانتقل بعد أن قضى لبانته ونضبت مواد القول إلى «جان فالجان» نفسه ، فأفاض فى وصفه إفاضة كانت أشبه شىء بما جاء فى قصة «تيرامين»

---

(١) يقال نزل عن حقه ولا يقال تنازل عن حقه ، فإن التنازل لا يكون إلا فى ميدان القتال أو بين اثنين.

ولم يـكن لذلك القـول مكان فى تلك المأسـاة ، ولكنه أسـلوب طالما لجـأت إلـيه البلاغة القضائية .

ومـا زال يقـرع الأسمـاع بتلك القـوارع حتى أدخل الرعب على نفـوس القضـاة والحضـور ، ومر المدعى فى رده بتلك الكلمـات الخلابة التى استـثـارت فى صـبـاح المخاصمة حماس الصحيفة الوحيدة التى كانت تظهر فى سماء تلك المقاطعة .

وكان مما قال فى «جان فالجان» : «رجل شـأنه ذاك طريد جوال . لا مرتزق له . تعود الإجرام ، ولم تفلح السجون فى تقويم إعوجـاجه وتنقية نفسـه . فلقد جنى يوم خرج منها على الغلام «بيتى فرجى» .

وقبض عليه بعد ذلك متلبسا بالسرقة على قيد خطوات من الحائط الذى ظهره ، وفى يده مـا سرق ، فـأنكر التلبس والتسور والسرقة ، وأنكر حتى شـخصيته وفى يدنا مائة دليل ودليل على ذلك ولانريد سردها - دع أربعة من الشـهود على رأسـهم جافير كبـير الشـرطة ولا تسـألوا عن نزاهتـه ، وثلاثة من أخدانه فى الإجرام ، فكيف يدفع إجماعهم على معرفة شخصه ، إن هو إلا جامد الشعور ، غليظ الكبد .

وقد كان المدعى يخطب والمتهم ملق بسمعه وقد فغر الدهش فاه ونال منه العجب مما يسمع - وكان يحرك رأسه يمنة ويسرة كلما اشتدت لهجة الاتهام فى تلك المواطن التى تعجز فيها البلاغة عن إمساك سيلها ، فيترامى بموجات من سب وتحقير ، كانت تلف المتهم لف العاصفة . وكان فى حركات رأسه تلك ، ضـرب من احتجاج فصيح فى صمته بليغ فى حزنه .

وقد لفت المدعى القضاة إلى ذلك الموقف موقف البله الذى أخذ المتهم نفسه بتمثيله ليخدع القضاء ويستنزل الرحمة ، فلم تجز حيلته علينا وكشفت لنا عما كان يخبئه فى غور قلبه من خبث لا أمد له ، وختم قوله بطلب الجزاء العادل . ثم وقف المحامى وهنأ المدعى ، وأطرى خطبتـه التى جـازت حد الإعـجـاب ثم ألقى بكليـمات حضـرته وأخذ يتضعضع حتى فقد كل تكأة له ، وحتى شعر كأن الأرض تميد تحته ميدانا .

وحانت ساعة انتهاء المخاصمة فأومأ الرئيس إلى المتهم بالوقوف ، وسأله السؤال المألوب ، أعندك ما تقول ؟ فوقف وهو يلاعب قلنسوته بيديه وكأنه لم يسمع . فـأعيد

السؤال وأظنه سمع فى هذه المرة ، فقد رؤى فهمه فى عينيه وكان كمن استيقظ من سبات فجعل ينفض عنه الكسل ويدور بنظره يحدق فى الحضور حتى وقفت عينه على المدعى العام ، فانفجر بالكلام انفجار البركان ، وقد كان الكلام فى فيه يكاد يقتتل اقتتالا ، يستبق الخروج بعضه البعض :

– كنت عاملا فى صناعة النحاس فى باريس لدى السيد «بالو» وكان العمل شاقا . يعمل العامل طرفى النهار فى الخشب ، ولا يتاح له أن يعمل مرة فى مصنع مقفل لايأذن للهواء . فإذا كان الشتاء ووجد العامل منا مس البرد وتخوف على أعضائه اليبس ، نزع إلى تحريكها فترة من الزمن التماسا للدفء ، فيحفظ [1] هذا أصحاب المصنع علينا ويقولون إنه وقت ضائع .. وما ظنك بعامل يصهر الحديد وهو على أرض من الثلج ؟ إن هذا إلا فناء عاجل . فترى العامل وقد أخلق كما يخلق الثوب ، ولبس فى صباه لباس الهرم .

ولا يكاد يدرك الأربعين حتى تدركه السن فتنزف قواه ويرغب عنه ويمسى سخرية لشرار العمال ، فينبزونه بأقبح الألقاب . فكانوا يدعوننى وقد طويت الثالثة والخمسين بالشيخ الأبله والعجوز العاجز .

وكانت وظيفتى فى يومى ثلاثين صلديا . وما حطَّ من أجرى فى دعواهم غير السن ، وكانت لى ابنة تكدح هى الأخرى فى طلب العيش فتعالج غسل ثياب الناس . فكان جهدنا يفىء علينا بعصارة تمسك الحياة . تبذل يومها فى الكد ما تتقى المطر بسقف يحجبها أو ثوب يسترها ، جاثمة فى مهاب الأنواء . وكان عليها أن تغسل ولو جمد الماء .. فإن من الناس من لا يجد لباسا غير جلده حين يخرج من ثوبه لغسله ، فلا يزال قائما على يديها يتنجزها فإذا أنس منها تريثا أو وجد تعللا ، عدل بالثوب إلى سواها . فما فتئت المسكينة تطوى ساعاتها مضطربة فى المغاسل بين الحار والبارد – دع ما كانت تعانى من مضارة زوجها لها ، حتى أتى على نفسها الشقاء .

---

(١) يغضب .

ثم أمسك عن الكلام وقد كان يهدر بصوت جهير أبح أجش ، وكنت تطالع فى جفوة لفظه وثورة قوله ، سلامة الضمير ونقاء الجنان .

وقد انتابه فواق [1] كان يحبس أنفاسه ، فجعل يستعين على تأدية ما فى نفسه بحركات كنت تخاله معها حطابا يشق جذعا من الجذوع . وما كاد ينتهى حتى أغرب الجمهور فى الضحك ، فلبث ينظر إليهم وهو يجهل مثار ذلك - وما نشب أن فعل شرواهم [2] وشاركهم فى ضحكهم ، فكان مشهدا مؤثرا تعلوه الكآبة . فصاح الرئيس وكان يقظا رحيما ، فذكر المحكمين أن السيد (بالو) الذى فرغ المتهم إلى شهادته لا يعلم له مقر منذ أفلس واختفى . ثم التفت إلى المتهم وقال له : «أعرنى سمعك واعلم أنك فى موطن أنت فيه أحوج ما تكون إلى التفكير ، فقد انصبت عليك الشبهات ، وقامت حولك دلائل لا تلبث أن تجرك إلى سوء المصير . فأجب إجابة صريحة عن أمرين : هل ظهرت حائط البستان واقتضبت فرع التفاح ؟ هل أنت جان فالجان ؟» .

فحرك رأسه حركة تعرب عن فهم ما ألقى عليه ، واتجه إلى الرئيس وقال :

«أما عن الأمر الأول» ثم سكت وألقى بنظرة على قلنسوته ، وأخرى على السقف ، فحمى المدعى العام وقال له : «ويل لك ! ما لك لاتجيب على ما يلقى عليك ؟ إن اضطرابك ليدينك فلست بجان ماتييه كما تحاول أن تكون ، وإنما أنت ذلك المجرم الفار جان فالجان . فقد ذهبت إلى (أفرون) وولدت فى (فافرول) وكنت بها مشذبا للشجر ، وظهرت حائط بستان ، واقتضبت منه فرعا من التفاح ، وللمحكمة تقرير مصيرك» .

وكان المتهم قد أهوى على مقعده تخاذلا ، والمدعى يخطب حتى إذا انتهى من خطابه استوى قائما وصاح به :

«ما أخبثك أيها الرجل ! وهذا كل ما أريد أن أقوله لك ، وقد كان يعوزنى القول .

---

(١) الزغطة .

(٢) أى مثلهم .

«لست من السوقة ولا أنا بذلك الرجل الذى يصيب ما يتبلغ به فى كل يوم .. إننى أتيت من (إلى) فخرجت أضرب فى البلاد غب سماء [1] وقد كسا الغيث وجوه الأرض ببساط من الرمل الأصفر ، هاجه إلحاح السيل من بطون المناقع [2] وطمر به الزرع حتى ما تقع العين على غير أعواد دقيقة من الحشائش على عطفى الطريق . وكنت التقطت من الأرض فرعا مهشوما به تفاح - التقطته وما كنت أدرى أننى ألتقط الشقاء . وقد لبثت فى السجن ثلاثة أشهر ، وأنا أنقل من مكان إلى مكان ، وهذا مبلغ ما عندى من القول .

إنهم يرمونني بالتهم ويطلبون منى دفعها ، ويدفعنى الحارس على طيبة فيه إلى الكلام ، يغرينى بذلك هما ، وأنا لا أدرى كيف أفصح عما فى نفسى ، إننى لم أصب من العلم ولم يثقفنى مثقف ، فأنا فقير الإدراك ، ولكنهم قد أغمضوا العيون عن ذلك فأخطأوا حقيقة أمرى .

أف لكم ! لقد ذهب بكم المكر إلى حد انقطع بمعرفة المكان الذى ولدت فيه . على أنى لا أزال أجهل مولدى وليس لكل من يهبط إلى هذه الدنيا بيت يولد فيه ، ولو تهيأ ذلك للان العيش ، وطابت الحياة ، وأكبر ظنى أن والدىَّ قد كانا من أولئك الذين يعيشون فى الطرقات والمسالك .

وجل ما أذكره أننى كنت أدعى وأنا حدث (بالصغير) واليوم أدعى (بالشيخ) ولا أعرف لى اسما غير هذين ، فأولوا قولى ما بدا لكم أن تؤولوا .

ولا أكذب الله فقد كنت فى (الأفرون) وكنت فى (فارول) وليس من الحتم أن من كان فيهما يكون من أهل السجون . لقد أعنتمونى بترهاتكم ، فعلام يتعقبنى الناس كما يتعقب الموتور واتره؟! .

فاتجه المدعى العام إلى الرئيس وقال :

---

(١) أى عقب مطر .

(٢) المستنقعات.

«لقد أحكم المتهم تمثيل ما أخذ نفسه به من التبلُّه ، يحاول إيهامنا أنه أبله ، ولكنه يعالج المحال بذلك الإنكار ، وأظن أن المحكمة لا ترى بأسا فى مواجهته بالشهود مرة أخرى ، وسؤالهم على مسمع منه» .

فقال الرئيس : «إنى أذكر المدعى العام أن جافير وهو كبير الشرطة قد دعاه عمل من أعماله فى المقاطعة المجاورة فأذنا له بعد الشهادة ، وكان ذلك بين سمع المدعى وبصره والمحامى عن المتهم شاهد غير غائب ، وما ارتفع منهما صوت بالاعتراض» .

فقال المدعى : «لم يغب عنى ذلك ولكنى أذكر المحكمين أن جافير قد شهد قبل ذهابه شهادة لا يزال أثرها فى النفوس وجافير رجل قد تعالم الناس صدقه ونزاهته وإنى لملق عليكم بما قال :

«لست فى حاجة إلى إقامة البراهين المحسوسة أو الإدلاء بالحجج الملمومة ، فإنى أعرف هذا الرجل حق العرفان ، فما هو (بجان ماتييه) كما يزعم وإنما هو (جان فالجان) ذلك الفتاك العيار ، والمجرم الأثيم – سرح من السجن بعد أن انطوى أجل عقابه ، فخرج منه والعدل فى أسف على خروجه .

«لقد قطع فى السجن تسعة عشر عاما عالج فى مداها الهروب مرارا . وسطا بعد ذلك على غلام صغير ثم ظهر حائط بستان ، وأكبر ظنى أنه سرق آنية ذلك العابد الكريم ليلة أواه فى مدينة «دنى» وأذكر أننى رأيته فى سجن تولون أيام كنت أقوم بعمل الشرطة هناك . فإنا به أعرف من أمه التى ولدته» .

وفعلت تلك الشهادة فى نفوس الحضور فعلها ، وألح المدعى على أثرها بطلب الشهود فألقى الرئيس كلمة على أحد الحجاب فانطلق يعدو . وما هو إلا أن غاب حتى فتح باب قاعة الشهود ورمى الحضور برجل بين رجلين . وإذا الحاجب ومعه حرسى من الأحراس يقودان (بريفيه) أحد الشهود الثلاثة وكان من عتاة الأشرار وقد كره الحاجب أن يصحبه وحيدا فاستظهر [1] عليه بأحد الأحراس . فدخلوا وقلوب الحضور تخفق خفقة قلب واحد .

---
(١) أى استعان .

وكان (بريفيه) مجرما عريقا قد جاز الستين تلوح عليه سيما الأنذال وترد عليك منه سحنة المتهالكين على ذات [1] اليد . وهما خلتان قد تكون بينهما رحم ، وقد غير منه ما كابده في السجن من الأذى حتى قال الموكلون به إنه يريغ [2] أن يكون رجلا نافعا ، وأثنى المتصدقون على خلال تعبده ولكن يجب أن نذكر أن ماظهر من الانقلاب في طباع هذا المجرم إنما وقع في عهد العودة ، عودة البربون .

فقال له الرئيس "بريفيه ، إنك رجل قد ركبت من المنديات ما سجله عليك القضاء ، فأصبحت غير أهل للحلف غير أنك وإن جردتك من ذلك يد العدل ، فقد أبت رحمة الله أن تقفر نفسك من الشرف والإنصاف ، فحبتها مزقة منهما ، فأنا أستحلفك بما بقى في نفسك من ذلك الحباء إن كان له كما أرجو بقية ، وأريدك على أن تتبصر قبل الجواب في هذه الساعة الحاسمة . فكلمة منك تطيح بحياة هذا الرجل وأخرى منك تنير لنا منهج العدل ولا يضيرك أن تخرج من موقفك هذا إذا بدا لك أنك تكون على الحق » .

ثم صاح بالمتهم أن قف وقال لبريفيه : «انظر إليه واجمع أشتات ذكرياتك وانطق برحى نفسك إذا كنت لا تزال مصراً على أن هذا الرجل لم يكن غير (جان فالجان) رفيقك في سجن تولون» .

فأجاب (بريفيه) وقد ألقى نظرة على الجمهور : « إنى أول من عرفه فهو (جان فالجان) رفيقى في سجن تولون .

«دخل فيه سنة ١٧٩٦ وخرج سنة ١٨١٥ . وقد سرحت بعده بعام واحد ، وإنى أراه يتباله منذ اليوم . ولعل ذلك من فعل السن ، ولقد كان في السجن ساهى الطرف كثير الإطراق » .

فأومأ الرئيس إليه بالجلوس ولبث المتهم واقفا .

وجيء بالشاهد الثانى (شنيل ديفيه) وكان لا يزال في لباس المجرمين ، وقد أشخص من السجن للشهادة .

وكان قصيرا خفيف الحركة ، ضئيلا ، كثير تجاعيد الجبهة ، أصفر اللون ، حاد الوجه إذا رأيته رأيت شبه محموم ، نحيل الأعضاء ، مضعوف الجسم قد ركبت في رأسه عينان تقرأ فيهما آيات القوة ، وكان رفاقه في السجن يلقبونه بـ (أنكر الله) .

---

(١) المادة .

(٢) أى يحاول.

فألقى عليه الرئيس تلك الكلمات التي ألقاها على سابقه حين ذكره بما كان من ماضيه الذي سلبه حق الحلف رفع رأسه وحدق في وجوه الحضور .

فقال له الرئيس : "ألا تزال مصرا على معرفة هذا الرجل؟" فقهقه الشاهد وقال : "كيف لا أعرف رجلاً سلكت معه في سلسلة واحدة بضع سنين؟" .

وجيء بالشاهد الثالث "كوش باي" وكان مجرما قد حكم عليه بسجن الأبد وهو فلاح من (لورد) كان يدعى القطعان في رءوس الجبال، ثم حال إلى قاطع سبيل، وكان في معارف وجهه ما ينطق بأنه يفوق المتهم بلها، وهو من أولئك الذين بنيت طبيعتهم بناءة الضواري فنبذهم المجتمع وقذف بهم في بحور السجون . فحرك منه الرئيس بكلمات قاسية، وألقى عليه قولا ثقيلاً، ثم سأله السؤال المعهود . فأجاب المتهم : "هذا هو جان فالجان وكنا ندعوه لفرط منّته[1] بجان لجريك" .

ففعلت تلك الشهادة فعلها في الحضور وزاد في أثرها ذلك الوضوح الذي ألبسها لباس اليقين .

فضاقت القاعة بأهلها وسرت فيها همسات الأسف على المتهم، ثم جعلت تشتد وتمتد كلما ألقيت شهادة من تلك الشهادات .

وكل هذا والمتهم ملق بسمعه وهو ساهم الوجه سادر النظر، وكان مبلغ احتجاجه على ما يسمع أن كان يحرك عند انتهاء الشهادة رأسه، ويقول على مسمع الحرس : "شيء حسن" . فقال له الرئيس : "ما قولك؟" قال : "شيء حسن!" .

فعلا الضجيج في القاعة وضج حتى المحكمون وقالوا : "هلك واللّه الرجل!" .

فصاح الرئيس بالحاجب أن ادع الناس إلى السكينة . وعلى أثر ذلك سرت حركة بقرب الرئيس وارتفع صوت ينادي : "انظروا هنا أيها الشهود" .

---

(١) المنة القوة .

فملك السامعين الروع وهالهم ذلك الصوت الجهير الذى كان ينبعث من ذلك الحلق الحزين .

فالتفتوا إلى مصدره فإذا بهم يرون رجلاً قد خرج من صفوف الخاصة الجالسين خلف القضاة ووثب إلى وسط القاعة . وما هو إلا أن تراءى حتى صاح الرئيس والمدعى العام وصاح اصياحهما عشرون صوتًا "السيد مادلين!" .

وما كان إلا هو وقد أضاء وجهه المصباح المنصوب على منضدة الكاتب، فوقف وقلنسوته فى يده . وهو فى لباس لم يتطرق إليه العبث .

وكان أصفر اللون قد بسرت به هزة وحال لون شعره فقد دخل مدينة آراس وشعر رأسه أرمد[1] فلم يكد يطوى بها ساعة حتى صاح به المشيب، فشاب الرجل فى مدى ساعة واحدة .

فاشرأبت الأعناق وتطلعت النفوس وشحذ الشعور ومرت بأهل القاعة فترة من الحيرة، وحق لهم أن يحاروا، فقد سمعوا صرخة نفس ثائرة، ورأوا أمامهم رجلا هادئ الطبع ساكن الجأش، فلم يقع فى نفوسهم أن هذا الواقف المتمكن من نفسه هو صاحب تلك الصرخة المروعة .

ولم يكن أجل حيرتهم طويلاً فقد اتجه الرجل إلى الشهود وناداهم بأسمائهم وصاح بهم : "أتنكرون هذا الوجه؟" .

فعل ذلك قبل أن ينبس الرئيس بكلمة، أو يتمكن الرئيس من الحركة .

فبهت الذين شهدوا وأنكروه بإيماءة من الرءوس . ثم التفت الرجل إلى المحكمين، وقال : "سرحوا هذا المتهم وخذونى فأنا جان فالجان" .

---

(١) أى بلون الرماد .

فعلقت الأنفاس وأخذت القوم رجفات الدهش ثم علاهم خشوع البلى، وكأنهم موجلوا بقارعة سماوية فملكهم الفزع الأكبر، وكذلك تفعل جلائل الخطوب وعظائم الأمور .

وانتشرت على وجه الرئيس طبقة من العطف والحزن معًا، فرمى المدعى بنظرة عجلى وهمس فى آذان الجالسين معه للقضاء، ثم رفع رأسه يخاطب الجمهور : "أبغونى طبيبًا" وقال المدعى : "هذا السيد مادلين قد نزل به ما نزل وإنا لنجد[1] له وجدا شديداً، ونعلم أنه نبيل القدر زكى المشاعر، فإذا رأى الرئيس أن يأمر بحمله إلى داره" .

فابتدر مادلين الكلام وقاطع المدعى بصوت يمازجه السلطان، ونطق بكلمات نثبتها هنا ولا نخرم منها حرفًا، فقد وعاها أحد من شهدوا الحادث ودونها على أثر انطوائه، وقد مر بها أربعون عامًا وهى لا تزال فى آذان من بقى حيًا من أولئك الشاهدين :

"أشكر لك أيها المدعى، فما أنا بمجنون كما تزعمون . إنكم على وشك أن تضلوا، سرحوا هذا المتهم وخذونى فأنا المجرم الذى تنشدون .

"وليس هنا سواى من ينظر بغير غطاء، فهاكم الحقيقة خالصة غير مشوبة .

"إنى وقفت هذا الموقف لذات الله العلى، وهو حسبى فخذونى . فقد طبت بذلك نفسًا .

"إنى أردت الحسنى فتنكرت حتى أثريت، وأصبحت شيخًا لمنتراى سيرمير، وألقيت بنفسى بين الأخيار، فلم يفسح لى الحظ بينهم مكانًا، فجئت وفى النفس أشياء لا يسعنى سردها، فلا أثقل عليكم ببسط ما صنعت فى أيام توبتى فإن الغد ببسطه كفيل .

---

(١) أى نحزن .

"إنى سرقت مولاى العابد وسطوت على ذلك الغلام الصغير، فحق لهم أن يصموا جان فالجان بأنه فاتك أثيم، وما كان له الخطأ[1] كله وإن كان من الخاطئين - وليس لحقير مثلى أن يعترض على العناية أو ينصب نفسه لمناصحة الناس ، ولا أكذب الله، فإن العار الذى عالجت نضحه عن نفسى كان أمراً إداً .

"ولا يفوتنكم فى هذا الموطن أن السجن قد كان لى شر أستاذ، فهو يخبث النفس، ويمزق شمل الفضيلة، ولقد صدق من قال : "إن السجون تخلق الأشرار" .

"فلقد كنت قبلاً فلاحاً فدماً[2] فأطلع منى السجن شريراً، وكنت عوداً من الحطب، فصيرنى شعلة، ثم ردت إلى الرحمة ما سلبتنيه القسوة، فنجوت بنفسى، ولكن بعد الفوت . فإذا دق عن أفهامكم ما ألقيه الساعة عليكم، فهناك فى رماد المدفأة تجدون القطعة الفضية التى سلبتها من ذلك الغلام .

"وإليك أيها المدعى أسوق الكلام، إنى ليعرض لى أنك غير مصدقى، وأقرأ ذلك فى حركات رأسك، فأناشدك الله ألا تأخذ هذا المتهم . الويل لى ! أليس هنا من يعرفنى؟ إنى ليحزننى غياب جافير ولو كان حاضراً لوضح الحق" .

***

ليس فى طوق كاتب أن يصور ما كان فى كلمات هذا الرجل من نبرات الكآبة ورنات الأسى التى كانت تصحبها عبقة من الحسنى . ثم انفتل إلى الشهود الثلاثة، وقال : "بريفيه ألا تزال تنكرنى؟" .

---

(١) الذنب .

(٢) الفدم الساذج .

فاعترت بريفيه الرعدة وجعل يصعد فيه بصره ويصوبه، ومر الرجل فى كلامه فقال : "يا شانيلديوه، ألست كنت تدعى فى السجن بـ (أنكر الله)؟ ولى فيك آية ... حرق بكتفك اليمنى، حاولت أن تمحو به الثلاثة الأحرف التى وسمت بها، فلم يغن عنك شيئًا، وثبتت الأحرف فى مكانها . أرأيتك ؟ ألم أقل حقًا؟" ... قال : "بلى!" .

ثم تحول ذلك المسكين إلى القضاة والحضور وعلى فمه بسمة ما ذكرها رائيها إلا وجد لها غمزًا على قلبه، بسمة قد جمعت بين حلاوة الظفر ومرارة القنوط .

فذهب بأهل القاعة وحالوا إلى عيون تنظر، وأفئدة تخفق . فلم تعد ترى فيها قضاة ولا مدعين ، ولا تلمح أشراطًا ولا مدافعين، وقد أنسى كل غرضه : نسى الرئيس أنه جاء للرياسة، والمدعى أنه قام للاتهام، والمحامى أنه مثل للدفع، والحرس أنهم أقيموا للحراسة، فلم ينبس خلق بكلمة، ولم يفزع ذو سلطان إلى سلطانه .

ولا عجب فإن للمشاهد السامية خواص تملك على رائيها المشاعر وتحيل شهودها إلى نظارة[1] يخرج بهم فرط ما هم فيه عن حد الشعور، فلا يكادون يتساءلون حتى فى أنفسهم عن مأتى ذلك اللألاء الذى يذهب سناه بأبصارهم، فهم فى داخلهم مأخوذهم برائع ما يشاهدون فى خارجهم .

وضح الصبح وتكشفت ظلمة الشك عن جان فالجان فأنار ظهوره السبيل، وكشف عن ذلك الحادث، وأدرك ذلك الحفل الحاشد ما كان من حقيقة الأمر – أدركه بأسرع من خطفة البارق أو نبضة الكهرباء .

رجل يفتدى بنفسه رجلاً آخر – للّه ما أنبل هذه النفس ثم قال الرجل : "إننى لا أريد أن أطيل عليكم أمد ما أنتم فيه فقد عزمت على الذهاب لأنهم يأبون أن يأخذونى، وعندى ما يدعونى إلى الرجوع، والمدعى العام يعرف من أنا، ويعرف أين يجدنى متى حلا له ذلك" .

---

(١) المتفرجون .

قال ذلك وغبر يمشى إلى الباب بقدم مطمئنة، فما رفع صوت ولا امتدت ذراع لسد سبيله - مشى وقد حل فيه خفى من العناية ما حل فى إنسان إلا تراجعت أمامه الصفوف واصطف الوقوف .

فلما بلغ الباب وجده مفتوحًا، فالتفت إلى المدعى وقال : "أنا رهن أمرك" . وعطف قائلاً :

"أيها الحضور ألا ترون أنى جدير بالرحمة، ولعلى كلما فكرت فى أنى كنت على وشك القيام بهذا الصنيع وجدتنى حقيقًا بالغبطة" .

ثم خرج فصفق[1] الباب كما فتح - ولا يعدم صاحب العمل الجليل أن يجد له فى المجتمع نصيرًا .

وعاد القوم بعد فترة إلى أنفسهم، فأمر المحكمون بتسريح "جان ماتيو" فخرج وهو يقول فى نفسه : "ما أشد جنون هذا الناس ! فأنا لا أكاد أفقه شيئًا من جميع ما مّر بى فى هذا الحادث ..." .

عود إلى فانتين :

تنفس الصبح فقامت فانتين، وكانت قد سهرت الليل كله، ولزمتها الحمى فحمة ذلك الليل، وكانت تلم من خلال آلامها صورًا من وجوه السعادة بقرب طفلتها - فانتهزت الراهبة نهزة نومها وكانت قد ساهرتها وخرجت تهيئ لها جرعة من الكينا . وبينا هى عاكفة على عقاقيرها وقواريرها وقد ألقى الشفق على الأرض ضبابا يقصر فيه قاب العين، وإذا بها قد التفتت التفاتة أوشكت معها أن تصيح .

(١) صفق الباب أى رده .

رأت مادلين وهو منها أدنى شيء، فصاحت : "أسيدى الشيخ أرى؟" .

فقال : "نعم، وكيف حال المريضة" قالت : "ليس بها الساعة من بأس وقد كنا نتوقع لها بالأمس شراً"، ثم أعلمته علمها وقالت : "ولولا أن فكرة رفهت عنها لما طلع عليها هذا الصباح، فقد ملت غيابك على الذهاب لتفقد طفلتها" .

ولم تجرأ الراهبة على سؤاله أين كان ؟ ولكنها لم يغب عنها أن ملامحه لم تكن تنطق بأنه قادم من ذلك الوجه .

فقال لها : "أحسنت فى تركها على زعمها"، فقالت : "وما عسى أن تقول لها إذا رأتك وحيداً؟" قال : "إن الله يلهمنا الجواب" .

وكان الصبح قد وضح نوره، فرأت الراهبة فى مادلين ما راعها – رأت شعره الأرمد، قد حال كله إلى شعر أبيض . فصاحت به : "أى خطب نزل بك فشيَّبك؟!" .

ثم وافته بمرآة صغيرة كان الأطباء يستخدمونها فى التحقق من الموت، يضعونها على فم المريض فتتكدرها أنفاسه إن كان لا يزال حيا . فأخذها مادلين ونظر فيها نظرة، وقال : "حسن ..!" .

فجمدت الراهبة فى مكانها وعطف مادلين قائلاً : "أليس من الميسور أن أراها الساعة ؟" فقالت : "إنك لم تأت بطفلتها فخير لها ألا تعلم بقدومك، ومتى جئت بها علمت من نفسها بأن غيابك إنما كان لذلك، فتنجو المريضة من آلامها وننجو نحن من نسج الكذب" .

فلبث غير بعيد ثم قال بلهجة الجاد الساكن : "أريد أن أراها الساعة فربما كنت عجلاً"، فلم تفطن الراهبة لما كان فى كلمة "ربما" من المعنى الغامض الغريب فغضت من بصرها وقالت محتشمة : "ليدخل سيدى وليعلم أنها نائمة" .

فتقدم إلى[1] الخادم بإصلاح باب لم يكن مطمئنًا فى مكانه، كراهة أن تتأذى المريضة بصريره . ثم دخل مخدعها وهو يخافت من مشيته ودنا من سريرها وفرج عنها الستائر فإذا هى نائمة . وكان نفسها يشخص من صدرها شخوصًا يبعث الأسى . وتلك آية ذلك المرض العضال التى طالما فجعت نفوس الأمهات السواهر على أولادهن الذين أبرم فيهم حكم الموت .

وكان هذا التنفس الشاق يكدر ذلك الصفاء العجيب المنبسط على وجهها – ذلك الصفاء الذى كان يبدل فى نومها من مرأى ذلك الوجه – وكان اصفرارها قد بلغ حد البياض وأمست خدودها قرمزية ، وكانت أهدابها الطويلة (وهى البقية التى بقيت من جمال البكارة والشباب) لا تزال تختلج فوق ذلك الطرف الساجى . وقد اهتز جسمها من فرعها إلى قدمها، كأن أجنحة خفية قد ركبت فيه وأوشكت أن تنشر للطيران . تى ليخيل للناظر إليها أنه يحس ترويحها وإن لم تقع عليها عينه .

فلا يقوم بنفسه أنه يرى مريضة قد يئس منها – فهى إلى من يصوع[2] للطيران أقرب منها إلى من يتهيأ للنزول إلى القبر .

ألم تر إلى الغصن كيف يضطرب كلما امتدت يد لقطف زهــــره – ألا يلــوح لك أن ذلك الغصن كأنه يجود بنفسه وكأنه يختلسها فى آن ، فهــو يعطــى ويمــنع فى وقت معًا ؟

كذلك الجسم البشرى فقد تنتابه تلك الهزات حتى تحين الساعة التى تمتد فيها يد الموت الخفية لاقتطاف[3] الروح .

---

(١) تقدم إلى أى أمر .

(٢) صوع أى تهيأ للطيران .

(٣) اقتطف مثل قطف وقد أنكرها بعضهم حتى وجدناها فى شعر الأعشى فى الجاهلية وفى شعر جرير فى الإسلام فهى عربية بدوية، قال الأعشى : لما أمالوا إلى النشاب أيديهم ملنا ببيض فظل الهمام يقتطف .

وقف مادلين بجانب سريرها وهو كأنه بعض الأنصاب وجعل يتنقل ببصره بين المريضة والصليب كما كان يفعل منذ شهرين ، ليلة زارها للمرة الأولى . وكان المنظر واحداً فى جميع وجوهه إلا أن شعره فى هذه المرة كان قد عمه الشيب .

دخل وحده ولم تصحبه الراهبة ووقف بجانب سريرها كما ذكرنا وأصبعه على فمه كأنه يأمر أحداً بالسكوت . ففتحت المريضة عينيها وسألته سؤال العطيف وهى تبتسم : "أين كوزيت؟" .

قالت ذلك وما أخذها دهش ولا استخفها فرح، فقد كانت هى الفرح بعينه، وعجيب أن يفر الفرح .

ألقت هذا السؤال : "أين كوزيت" وليس فى نفسها ظل للشك ولا فى خاطرها جولة للقلق، فألجم اليقين المتجلى فى ذلك السؤال، لسان مادلين فلم يحر جوابا .

ثم مرت فى حديثها : "لقد كنت عالمة بوجودك رغم سلطان النوم، وكانت عيناى تتعقبانك أنى سرت – رأيت كأنك كنت ملقا فى سماء من المجد يطيف بك نور سماوى . على أنى أعاودك السؤال : "أين كوزيت؟" لِمَ لَمْ تنمها بجانبى حتى إذا ما فتحت عينى فتحتها على تلك الطلعة البهية؟" .

فأجابها بكلام لا يرتاح له العقل ثم لم يلبث أن نسيه على أثر إلقائه . وأغاثه حضور الطبيب الذى ابتدرها عند دخوله بقوله : "اهدئى فإن ابنتك هنا" . فبرقت عيناها بريقًا أضاء وجهها وضمت يديها ضمة تمثل فيها أجلى معانى التضرع إلى اللّٰه وأحلاها . ثم صاحت : "إلىّ بها" وكانت تظن أنها لا تزال طفلة تحمل – وهم من أوهام الأمهات مبعثه العطف والحنان .

قال الطبيب : "لم يحن الوقت فإنك لا تزالين فى بقايا علتك، فلا آمن عليك صدمة اللقاء . فمتى أبللت جئناك بها" . فقاطعته بحماسة : "لقد شفيت وأعيد عليك القول إنى شفيت، فيا اللّٰه ما أحمق هذا الطبيب فإنه يريد أن يحول بينى وبين ابنتى!" .

فقال الطبيب : "أرأيت كيف غلب عليك الغضب؟ وما دام هذا شأنك، فلا سبيل إلى رؤيتها أو تملكى صوابك" .

فطأطأت رأسها وقالت وفى صوتها رنة من الأسف : "إنها حمقة أرجو أن تغتفرها لى، ولا تنزل أمرى على الجرأة عليك، فتأخذنى بما سبق به لسانى . فلقد خرج بى ما أنا فيه عن حد الرشد . فإن كنت تخشى علىّ مغبة اللقاء فأنا صادعة بأمرك، صابرة مع الرضى، مرتقبة ذلك الوقت الذى يؤذن لى فيه برؤيتها ... على أن رؤية ابنتى لن تحدث فى نفسى ما تتوقع أنت حدوثه، وغايتى أن أحدثها الساعة بعض الحديث . لقد رأيت الليلة صوراً بيضاء ولمحت أناسا يبتسمون لى – وها أنا ذا أستشعر العافية وأمد الله فقد مسح ما بى من الألم . ولكنى سألبث مكانى كأنى مريضة إمضاء لأمرك وإرضاء لهؤلياء الأخوات المقيمات هنا، حتى إذا آنسوا منى السكينة وتيقنوا من إبلالى جاءونى بابنتى" .

جلس مادلين على كرسى بجانب السرير فحولت وجهها إليه وهى تغالب كيد الآلام ويغالبها لتظهر بمظهر السكينة وتدعو القوم إلى تذليل المصاعب التى يقيمونها فى طريقها لرؤية طفلتها . ولكنها على تجلدها لم تقو على الإمساك عن سؤال مادلين، فألقت عليه ألف سؤال وسؤال :

"لعلها سفرة ميمونة" .

"للّه ما أنبل نفسك فقد أنقذت طفلتى" .

"خبرنى بربك أكانت جلدة على المسير" .

"أتراها تنكرنى عند اللقاء، فقد طال عهدها بى" .

"إن الأطفال كالأطيار لا يكادون يذكرون فى يومهم ما رأوه بالأمس" .

"ترى كيف كان لباسها وغذاؤها فى ذلك النزل" .

"لقد كانت تؤلمنى ذكرى ذلك فى أيام بؤسى، أما اليوم فقد أصبت بفضل حدبك[1] عليها قريرة العين رخية البال" .

"ألا يتسنى لى أن أراها الساعة" .

"ألا ترى أنها جميلة" .

"ألا تأذن لى برؤيتها ؟ وإن لم تفعل فمن ذا الذى يأذن لى سواك" .

فأخذ مادلين يدها بين يديه وقال لها : "إن كوزيت مثال للصحة والجمال وسترينها بعد قليل فأهدئى واسترى ذراعيك بغطائك عسى أن تخف وطأة السعال" .

وكان سعالها يزحم دفاعه فى حلقها كل كلمة من كلماتها فلم تبد فانتين شيئًا من التململ خشية أن تزلزل كل آهة من آهاتها تلك الثقة التى تحاول بثها فى نفوسهم ، فجعلت تفوه بأقوال لا تنم على الألم .

كل ذلك ومادلين ممسك بيدها ، ونفسه تكاد تسيل جزعًا .

خرج الطبيب وبقيت الراهبة فى مكانها وقد خيم عليهم السكوت، فمزقته فانتين بصيحة : "إنى أسمعها ... إنى أسمعها" . ثم بسطت ذراعها تأمرهم بالإصغاء، وعلقت أنفاسها وجعلت تتسمع .

كان فى الفناء ولد يلعب – ولد البوابة أو ولد من شئت من العاملات .

تلك إحدى المصادفات التى ما زال الإنسان يجدها فى ثنايا الحوادث المحزنة، كأنما هى جزء مما تهيئه يد الغيب من عدد التمثيل على مسارح تلك الحوادث .

وكان هذا الولد صبية تذهب وتجىء وتجرى دفعا لغائلة البرد وتلمسا للدفء، وهى تضحك وتارة تغنى – وكذلك كان .

---

(١) الحدب الحنان .

وأى شىء من الأشياء قد خلا من أن تشويه شائبة من لعب الأطفال .

تلك هى الصبية التى سمعتها فانتين وظنتها "كوزيت" وصاحت : "تلك هى بنيتى وذلك هو صوتها" !

وانقلبت الصبية من حيث أتت وغاب صوتها، فلبثت فانتين فترة وهى ملقية بسمعها، ثم فارق وجها الإشراق، وقالت بصوت سمعه مادلين : "قاتل اللّه الطبيب فقد حال بينى وبينك" .

وبعد قليل عاودها أملها البسام، فأنشأت تحدث نفسها ورأسها مطروح على الوسادة :

"سنصبح من السعداء، ويكون لنا بستان جميل، تمرح فيه كوزيت وتجرى على الأعشاب تطارد الفراش فإذا شبت وبلغت سن التناول ...[1] ولكن متى تبلغ هذه السن؟" ثم جعلت تعد على أصابعها، وتقول : "إنها اليوم فى السابعة من عمرها، وبعد خمس سنين يكون لها قناع أبيض، وتبدو فى هندام الفتاة !

للّه ما أحمقنى فإنى أفكر فى الشىء قبل أوانه" ثم أخذت تضحك ... وكان مادلين يصغى إلى تلك الكلمات وكأنه يصغى إلى هبات النسيم، وقد غض بصره وغاص فكره فى تأملات لا قرار لها .

وانقطعت فانتين بغتة عن الكلام فنبه ذلك مادلين فرفع رأسه فإذا بها فى صورة مروعة . وكانت لا تتكلم ولا تتنفس، وقد قامت فى سريرها نصف قومة وبرزت كتفها النحيلة من قميصها وأصفار وجهها، ووقفت بنظرها على مشهد مروع فى الجانب الآخر من المخدع، واتسعت من الرعب حدقتاها .

---

(١) التناول المقدس أول حفل دينى تشهده الفتاة المسيحية لتنصيرها .

فصاح مادلين : "ويلك ، ما بك؟" فلم تجب ولم تحول بصرها ، ولكنها مست ذراعه بإحدى يديها وأشارت إليه بالثانية أن ينظر وراءه فالتفت، فإذا به يرى جافير .

***

وإليك ما مر من الحوادث قبل ذلك :

خرج مادلين من قاعة الجلسة وقد انطوى النصف الأول من الليل، وانقلب إلى النزل فى الساعة التى تهيأ فيها البريد للسفر، فأخذ مقعده فيه وبلغ منتراى سيرمير قبل الصباح . وما هى إلا أن احتوته حتى أودع صندوق البريد كتابًا إلى لافيد الصراف ثم انطلق يعود فانتين .

ولما غادر قاعة الجلسة فى أراس وعاد الحضور إلى أنفسهم، وقف المدعى العام وجعل يتوجع لمادلين على ما أصابه من ذلك المس، وأصر على طلبه، وقال إن هذا الحادث الغريب الذى ستكشف الأيام عن سره لم يزلزل من عقيدته ولم يغير وجه التهمة المصوبة إلى (جان ماتييه) . ولكن أقواله لم تنزل من نفوس السامعين منزلتها . وسقطت الحجة من يده فتلقفها المحامى واطرد له القول فقال :

– لقد انقلب الأمر رأسا على عقب، وأصبح المحكمون لا يرون أمامهم إلا رجلا بريئًا .

وأخذ الرئيس جانب المحامى، وانحاز له المحكمون فسرحوا (جان ماتييه) .

ولم يكن للمدعى بد من أحد الرجلين : فطلب القبض على مادلين حين أفلته (جان ماتييه) ثم كتب على المكان(١) أمر القبض، وخلا بالرئيس لتوقيعه، فتردد الرئيس بعض

---

(١) أى فى الحال .

الشىء، وكان على طيبة نفسه وحدة ذهنه يتعصب للملكية وقد كان مادلين ذكر أمامه يوما كلمة (الإمبراطور) ولم يذكر بجانبها كلمة (بونابرت) فغاظه ذلك وحقدها عليه . وذكر له لشقوته تلك السالفة، فهان عليه توقيع الأمر .

وأبرد المدعى به بريدًا خصيصًا إلى جافير بمنتراى سيرمير وتقدم إليه بالإسراع، وكان البريد فرسًا فذهب يعدو مرسل العنان .

وكان جافير قد غادر قاعة الجلسة حين فرغ من شهادته كما قدمنا، وعاد إلى منتراى سيرمير واتفق أن هب من نومه ساعة وصل البريد . وكان البريد شرطيًا من حذاق الشرطة فأنهى إليه الأمر، ووقفه بكلمتين على جملة ما مر من الحوادث . فقام جافير إلى إمضاء هذا الأمر ساعة استولى عليه . ولو أن أحدا رآه وهو يلج باب الدار التى فيها فانتين ومادلين وكان ممن يجهلون نبأ هذا الرجل، لما قام بنفسه أن أمرًا خطيرًا قد حركّه، ولما تبين من وجهه غير لمحته المألوفة[1] فلقد كان هادئ السعى ساكن النفس بادى الجد وهو يرقى الدرج .

ولكن لو رآه فى هذه الساعة أحد ملابسيه الواقفين على غريب طباعه، لذعر من رؤيته . فقد كان زر بنيقته[2] منحرفًا إلى جهة الأذن اليسرى بدلا من أن يكون منحرفًا إلى القفا .

وكانت تلك آية على هياج غريب فى نفسه . فقد كان الرجل نظاميًا فى واجبه ولباسه الرسمى . فهو لا يترخص مع المجرم كائنا من كان، ولا فى أحكام لباسه الرسمى وتفقد أزراره من جميع ضواحيه . فانزعاج الزر من مكانه حادث لا تأذن له بالوقوع إلا فورة فى النفس، كانت أشبه الأشياء بالزلزال فى الأرض .

---

(١) لمحة الوجه وجمعها ملامح ولا يقال ملمح الوجه ولن ملمح النظر أى ممل سقوطه .

(٢) ياقة القميص .

وكان قد اصطحب أربعــة من الجنـد وكبـيرا لهـم، وأمر سـائرهـم بالتربـص في الفناء .

ولما سأل البوابة عن مادلين لم تتردد في أن تدل عليه، فقد ألفت أن يسألها عنه الجنود وهم شاكو السلاح . ولما بلغ مخدع فانتين أدار المفتاح ودفع الباب دفعًا لينا كأنه ممرضة تحرص على راحة مريضها أو مسترق للسمع . ثم دخل ولو أحسنا القول لقلنا لم يدخل ... فقد وقف في حرم الباب، وقلنسوته على رأسه وأزرار لباسه الرسمي مطمئنة في عراها، وقد علق في أثنائها يده اليسرى، وكان رأس عصاه مطلا من خلف مرفقه . فلبث كذلك دقيقة أو بعض دقيقة ولم يشعر به أحد، واتفق أن رفعت فانتين عينيها فلمحته وأنذرت به مادلين .

وفي اللحظة التي التقى فيها النظران، حال جافير وهو جامد في مكانه إلى صورة مفزعة !

وما من شعور بشري في نفس هذا الرجل هو أقدر على التمثل في صورة الفزع من شعور الفرح، وقد طغى عليه فقد قلب سحنته إلى سحناء مارد يريد أن ينقض على طريدته . وكان يقينه من القبض على جان فالجان بعد لأي، قد فضح ما كان كامنا في نفسه وبسط على ظاهره ما كان يضطرب في زوايا باطنه . وأصبحت الغضاضة التي كان يجدها في نفسه حين أخطأ ترسم الأثر، ولم يصب الشاكلة في أمر "جان ماتييه" وقد محاها زهو دخل في نفسه حين علم أن فراسته لم تخطئ وأن شعوره لم يخنه في تعقب جان فالجان . وتجلت في جبهته الكزة[1] دمامة منظره عند ظفره، فكان ذلك أبين ما يقرأ من آيات الشناعة في سحنة بلغت مناها .

وفي هذه الآونة كان جافير، وقد رفعه الفلك وناجاه الملك، لا يشعر بحقيقة موقفه حق الشعور، لكنه لم يخل من شعور مبهم بنجحه وضرورة الحاجة إليه .

---

(١) الكزة بتشديد الزاي الضيقة .

فقد كان يمثل فى ذات نفسه تلك القوات العلوية من العدل والحقيقة والنور، وهى تعمل متساندة على سحق قوة الشر .

فكان كأنه يحس أن حواليه مدى لا حد له من السلطان والعقل ونفاذ الرأى والإيمان بإكبار حرمة القانون والقضاء المبرم والقصاص الاجتماعى، وكل ما فى ذلك الفلك من قوة .

ولا عجب فقد كان يحمى النظام ويستنزل صواعق القانون، وينتقم للمجتمع وينفذ المشيئة، ويمضى القدر وينهض فى المجد نهوضًا . ولم يخل نصره وإن كان مبينا من بقية للتحدى والكفاح .

وقف فى أوج السماء مشرق الوجه مزهوا وقفة جبار من طواويس الملائكة تجلت فيه بهيمية[١] دونها بهيمية البشر .

وما أخذته عين وهو يزاول أعماله المخيفة، إلا أخذها من خلال ظلالها بريق سيف الاجتماع وهو يلمع فى قبضته .

وكان يشعر بسعادة فى استنكار ما يرى، وقد وطئ بأخمصيه هام الجرائم، وقيد بعقبيه العصيان والفساد والشرور، وكان يتفجج نوراً وهو يستأصل من الفساد والشر ... وقد تجلت فى تلك النفس الطاهرة العنصر، البشعة المنظر، عظمة لا يختلف فيها اثنان . ولم يعلق بهذا الرجل المخيف دنس، ولا طارت حوله دنية .

فإجلال تلك الصفات طبيعة من طبائع النفس البشرية .

إن لكل شيء آفة، وآفة الفضيلة العدول بها عن القصد للمتعصب فى دينه وهو فى عنفوان فورته فرح شريف النزعة وإن لم يعرف الرحمة، يلازمه ما أدرى أى لألاء ، لألاء فيه جلال ولكن تمازجه الفجيعة .

(١) لم نقل بهمية وقلنا بهيمية إتباعا لأئمة الكتاب فى الفلسفة والأخلاق والأدب كابن جنى وابن مسكويه والجاحظ فقد نفرت أذواقهم منها كما نفرت من طبعية فقالوا بهيمية حتى إن سيبويه رأس النحاة قد قال إن فيهما لغية وأرجو أن تصبح لغة بإذن الله .

وكان جافير وقد بلغ مناه على حال يرثى لها - وكذلك الجاهل إذا فاز - فما كان لعين أن تستريح إلى ذلك الوجه الذى يجلى فيه كل ما يمكن أن يكون فى طيب من خبيث .

***

لم تكن فانتين قد لمحت جافير منذ اليوم الذى انتزعها فيه مادلين من يديه انتزاعا، ولم يقوَ عقلها المضعوف على إدراك شىء. غير أنها لم تخل من الشك فى أمره لغشيانه مخدعها. وكان أكبر ظنها أنه إنما يريدها. فخانها العزم ولم يستطع نظرها القرار على ذلك الوجه المنكر، وأحست الحين، فسترت وجهها بيديها وصاحت بمادلين صيحة اليأس : "نجنى منه" . فأجابها بصوت يقطر سكينة ورقة : "اهدئى أنت فإنه إنما جاء يريدنى" ثم التفت إلى جافير، وقال له : "إنى لأعلم ما تريد" !

وصاح به جافير : "إذن فهيا"

نطقها بوحشية زحمت فى حلقه مخارج الأحرف وطمست على معالمها، فخرجت وهى بالزئير أشبه منها بالكلام. ولم يجر جافير على الطريقة المألوفة فلم يفض معه فى حديث، ولم يعمد إلى إبراز أمر الاستدعاء. فقد كان يعد جان فالجان محاربا خفيا يفلت كل من يطارده !

قامت بينهما حرب تحت أروقة الظلام، فلبث خمس سنين يجالده ويصارعه، فلم يقو على صرعه، ولم يكن أمر القبض بدء ذلك العراك، ولكنه كان الختام - فما زاد على أن قال له : "إذن فهيا"!

قالها ولم يخط خطوة ولكنه ألقى على جان فالجان نظرة كالمحجن[1] - تلك النظرة التى اعتاد أن يجذب بها إليه جذب العنف أولئك المنكودين من البائسين - تلك النظرة

(١) المحجن آلة يجذب بها لا شىء كالخاطوف وغيره .

التى نفذت إلى نخاع فانتين قبل اليوم بشهرين كاملين وعند تلك الصيحة فتحت فانتين عينيها، فرأت مادلين بحيث كان، فشد ذلك منها بعض الشىء، ثم أجالت تلك المسكينة نظرا حائرا، فلم ترَ فى المخدع غير مادلين وغير الراهبة، فقام بنفسها أنه لا يريد بتلك الصيحة سواها رأت فى تلك اللحظة شيئًا غريبا لم تكن لتراه حتى فى عنفوان هذيانها، رأت عينا[1] من الشرطة يلبب[2] شريفا من سروات الناس، والعين شامخ الأنف والشريف منكس الرأس. فخيل إليها أن الدنيا قد شمرت للزوال .

وكان جافير قد أخذ فى الحقيقة بتلابيب جان فالجان فصرخت فانتين : "سيدى الشيخ". فضحك جافير حتى بدت نواجذه، وقال : "ليس هنا من ينادى بسيدى الشيخ". فلم يعالج جان فالجان أو يزحزح عن خناقه يد جافير، ولكنه قال له : "جافير"، فقاطعه جافير قائلاً "قل سيدى المفتش"، فقال له : "سيدى إن لى معك كلاما" .

فقال له : "ارفع به صوتك، فكذلك أكلم". قال : "إنه رجاء". قال له : "اجهر بصوتك كما أمرتك" .

قال : "إنه رجاء يحسن أن لا يسمعه سواك" .

ثم داناه وألقى فى أذنه : "أرجئنى ثلاثا أبحث فيها عن بنية هذه المسكينة وأدفع لأصحاب النزل نفقة إيوائها ولك أن تصحبنى إذا شئت" .

فقال جافير : "أراك تمزح وما عهدتك قبل اليوم محقا" وسقطت تلك الكلمات إلى أذن فانتين، فاضطربت فى سريرها وصاحت : " ويلاه أليست بنيتى هنا كما يزعمون؟". ثم صاحت : "أيتها الأخت أين بنيتى، وأنت أيها السيد مادلين؟" . فضرب جافير برجله وصاح بها : "إياك أن تنبسى أيتها الشقية . أرانى اليوم فى بلد ينادى فيه المجرم بألقاب التسويد وتكرم فيه البغى كأنها من فضليات الحرائر" .

---

(١) جاسوس .

(٢) يأخذ بتلابيبه أو بخناقه أى يجمع ثيابه عند صدره ونحره ويجره منها جرا .

ثم نظر إلى فانتين، ويده تزيد فى تضييق الخناق على جان فالجان، وقال لها : "ألم أقل أن ليس هنا شيخ ولا سيد، وإنما هنا لص مجرم وفاتك أثيم يدعى جان فالجان؟" .

فاستوت فانتين فى سريرها وتنقلت بنظرها من جان فالجان، إلى الراهبة، إلى جافير، ثم فتحت فاها تريغ الكلام فلم يرم حلقها بغير الشخير، ثم اصطكت أسنانها وانبسط ذراعاها كأنها غريق يبحث عن شىء حوله، ثم هوت على الوسادة، فصدم رأسها سناد الوساد – وأسلمت على أثر تلك الصدمة الروح .

فوضع جان فالجان يده على يد جافير، وهى ممسكة بطوقه، وبسط قبضتها، وكأنها يد طفل ثم قال له : "لك الويل، لقد قتلتها" .

فصاح به جافير : "دع عنك هذا فما جئنا لنسمع ذلك المنطق، فإن لم تنطلق معى فليس إلا القيد، وإلا دعوة الجند" .

وكان فى إحدى زوايا المخدع سرير عتيق من الحديد تستريح إليه الراهبات فى السهر، فاندفع إليه جان فالجان وانتزع فى أقل من رجع البصر سناد الوساد رغم رسوخه فى مكانه، وأى شىء يتعصى على تلك الساعد ؟ ثم اتخذ منه جنة وسلاحًا ولوح به فى وجه جافير، فتراجع مذعورًا إلى الباب . ثم مشى به مشية المطمئن إلى سرير فانتين ولما بلغه التفت إلى جافير، وقال له : "أنصح لك ألا تدانينى"

فأوجس جافير خيفة، وبدا له أن يذهب لدعوة الجند لكنه خشى أن يجد جان فالجان نهزة للفرار فأسند ظهره إلى عضادة الباب، ونظره مصوب إلى غريمه . فارتفق جان فالجان على قمة السناد، وجعل يتأمل فانتين وهى هامدة ولبث غارقًا فى تأملاته . وما كان ليفكر فى شىء من أشياء هذه الحياة، غير أنك كنت تقرأ فى معارف وجهه أبلغ آيات الرحمة . ثم انحنى فوقها وجعل يسارها – ترى أى كلام كان يلقيه عليها ؟ وما عسى أن يقول ذلك الرجل الممتحن لتلك المرأة الميتة .

لم يقع ما قال فى أذن الحى فهل وقع فى أذن الميت . وما يدريك لعل فى الأوهام المؤثرة شيئًا من الحقائق السامية .

روت الراهبة سمبليس، تلك التى شهدت وحدها ذلك المشهد ولا مغمز فيما تروى – أنها قد رأت رأى العين أثناء تلك المسارة بسمة قد خطفت على فم الميتة وبريقا قد لمع فى تلك الأحداق، التى غمرتها دهشة أهل القبور . ثم أخذ فى يديه رأس طفلها وأغمض بعد ذلك عينيها، وقد علا وجهها إشراق سماوى – الموت انتقال من عالم الظلمة إلى عالم النور .

ولما فرغ من شأنها ركع أمام سريرها وتناول يدها فقبلها ثم التفت إلى جافير وقال له : "دونك ما تريد" ! ..

***

سيق مادلين إلى سجن المدينة وفشا نبأ اعتقاله فى أنحائها، فأقام الناس وأقعدهم ومشى بعضهم إلى بعض يتساءلون . وانحازوا عنه حين علموا أنه مجرم عتيق ولم ينشبوا أن نسوا حتى عوارفه، وقطعوا بإجرامه قبل أن يقع إليهم تفصيل ذلك الحادث بأراس . فمضى النهار وما تكاد تسمع فى مناحى المدينة إلا هذا اللغط :

ألا تدرى ؟ – أنه مجرم سرح بعد العقاب – من هو ؟ – شيخ البلد – ويحك ما تقول ؟ السيد مادلين ؟ – نعم – لا تقل هذا – إنه لم يكن يدعى مادلين – إن له اسما آخر، للّه ما أشنعه، لقد كان يدعى ما أدرى (بيجان) ! (جووان) !

– وهل اعتقل ؟

– نعم .

– أفى السجن ؟

- فى سجن المدينة ويتوقع نقله وأشخاصه إلى دار المحكمة ليسأل عن سرقة قد ركبها على الطريق المعبد فى عهده الأول .

- إنى لا أسكن إلى هذا النبأ، فقد كان الرجل طيبا كاملاً، وكان من الزاهدين، ألم تر كيف تأبى على وسام الشرف يوم أنعم به عليه ؟ ألم تقع عليه عينك وهو يوالى إسداء الحسنات؟ . فما سأله سائل إلا أعطاه، ولا مر بمعدم إلا نفحه ولا بمحزون إلا واساه .

- لقد كنت ألمح من وراء تلك الأعمال ماضيا غير محمود وقالت عجوز من المشتركين[1] فى "علم السلام[2]" : "لم يثر هذا النبأ فى نفسى حزنًا على ذلك الرجل - إن فى هذا لبلاغًا لأولئك "البونابارتيين"[3] .

وهكذا قد انمحى بين عشية وضحاها شبح مادلين من الأذهان ولم يبق على عهده فى المدينة كلها إلا ثلاثة أو أربعة منهم بوابته القديمة .

وكانت قد دخلت عند دخول الليل غرفتها وقبعت فيها كاسفة البال تفكر فيما نزل بذلك الرجل الكريم .

وقد أقفل المصنع على أثر ذلك الحادث وأقفر طريقه ولم يبق فى الدار غير الراهبة (بربيتى) وأختها (سامبليس) كانت تتناوبان السهر على تلك الميتة .

وعند الساعة التى اعتاد فيها مادلين العودة إلى داره قامت البوابة وأخرجت من درج لها مفتاح باب مخدعه وعلقته فى مسمار مرشوق بالحائط، ونصبت الشمعدان فى مكانه المعهود، كما كانت تفعل فى كل مساء، ثم أخذت فى التفكير .

---

(١) قلنا من المشتركين ولم نقل من المشتركات اتباعًا للأفصح قال اللّه تعالى "وكانت من القانتين" .

(٢) "علم السلام" جريدة يومية كانت تظهر فى ذلك العهد .

(٣) نسبة إلى نابليون بونابرت .

فعلت كل ذلك بدافع العادة لا بدافع الإرادة . ومر بها ساعتان وهى على تلك الحال، ثم عادت إلى نفسها ولم تنشب أن صاحت :

"إلهى من ذا الذى علق هنا هذا المفتاح؟" .

ووقع فى نفس هذه اللحظة أن فتح زجاج النافذة . وامتدت يد من فرجته، فالتقطت المفتاح وأنارت الشمعدان . فرفعت عينيها وهى مفتوحة الفم وقد وقفت فى حلقها صيحة ... إنها تعرف تلك اليد، ولا تنكر الذراع، ولم يكن كم ذلك الرداء عنها بالغريب .

إنه السيد مادلين – فمر بها بضع ثوان وهى معقودة اللسان – كما حكت عن نفسها وهى تروى ذلك الحادث – ثم انحلت عقدته فصاحت : "سيدى الشيخ ! لقد ظننتك ..." ثم أمسكت عن الكلام كراهة أن يبدر منها ما يكون فيه تحقير لذلك الرجل الذى كان لا يزال عظيماً فى نفسها .

فأسرع مادلين وأتم لها جملتها فقال : "فى السجن ... نعم كنت فيه فكسرت إحدى عوارض النافذة وهبطت من على سطح هناك، وها أنذا كما ترين أعود مخدعى، فاذهبى أنت إلى الراهبة "سامبليس" وقولى لها إنى فى حاجة إليها !" فانطلقت العجوز تعدو، ولم يوصها بشيء، فقد كان يعلم أنها عليه أحرص منه على نفسه .

ولا يعلم خلق كيف خلص هذا الرجل إلى ذلك الفناء، وهو لم يعمل فى الباب الكبير مفتاحاً .

لقد كان يكون معه المفتاح (القلابة[1]) الذى يستخدم لفتح أبواب الجوانب . لكن من الحتم أن يفتش السجين عند دخوله فى السجن وينزع منه ما يحمل من أداة . فهل عمى الموكلون بسجنه عن ذلك المفتاح – لقد لبث هذا الأمر غامضاً .

---

(١) القلابة كلمة عامية يعبرون بها عن المفتاح الصغير الذى يفتح جميع الأبواب واخترت هذه الكلمة لانطباقها على المعنى المراد . فكلمة قلابة تفيد أنها تقلب ألسنة جميع الأقفال .

صعد في الدرج إلى مخدعه ثم ترك الشمعدان على الدرجة العليا، وفتح المخدع بلا تحرج فصر الباب صريراً، ولكنه لم يباله، وولج في الظلام .

وجعل يتقرى بيديه ويتلمس النافذة حتى أصابها فأغلقها وأحكم إغلاقها . ثم عاد فحمل الشمعدان وأنار المخدع .

وكان من الحزم أن يأخذ بتلك الحيطة فقد كانت النافذة مطلة على الطريق . ثم ألقى نظرة عجلى على ما في ذلك المخدع من متاع فكان على غاية من النظام، ولم يبق فيه ما يدل على أثر تلك الليلة غير قطعة الغلام وقد اسودت من النار وغير بقايا عصاه .

فأخذ وريقة بيضاء فيها هذه الكلمات :

– هاكم بقية عصاى وقطعة الغلام الفضية التي ذكرتها أمام المحكمة .

ثم لفهما في تلك الوريقة ووضعها بحيث تأخذها عين الداخل .

ولف بقايا الشمعدانين في خرقة وجعل يحزمها وهو أهدأ ما يكون نفسا . وكان يمضغ كسرة من الخبز الأسود ولعله حملها معه حين فر من السجن . وقد وجد منها فتاة على بلاط المخدع، وجده المحققون حين حضروا لمعاينة داره بعد اختفائه .

طرق عليه الباب فأذن للطارق، فدخلت الراهبة "سامبليس" وهي صفراء اللون محمرة الحدق .

ولا يسلم المرء وإن كان جلدا صبوراً من أن يتسرب إليه الوهن أمام بأس الأقضية والمقادير .

وكانت حوادث ذلك اليوم المشهود قد ردت الراهبة إلى طبعها من الضعف والخور فجزعت وبكت، وكذلك تبكي النساء .

فمد لها جان فالجان يده بورقة، وقال لها : "أيتها الأخت أرجو أن تحملى هذه الورقة إلى القس" وكانت الورقة مطوية، فألقت عليها الراهبة نظرة، فقال لها : "لك أن تقرئى ما فيها" .

فقرأت : "أرجو سيدى القس أن يقوم على ما خلفته هنا من المال، وأن ينفق على دفن المرأة التى قضت فى هذا اليوم، وأن يرصد ما تبقى للفقراء والمساكين .

حاولت الراهبة أن تنطق فخانها النطق ثم تمكنت بعد الجهد من أن تقول :

"ألا يريد سيدى الشيخ أن يتزود من تلك البائسة بنظرة الوداع ؟" .

فأجاب مادلين : "إنهم على أثرى وربما أدركونى هناك فعكروا عليها صفو نومها الأبدى !" .

وما هو إلا أن قالها حتى سمعوا ضجة ووقع أقدام على الدرج . وسرى إليهم صوت البوابة وهى تقول :

"أقسم بالله إن أحداً لم يدخل، وإننى لم أرم مكانى من الباب بياض النهار وسواد الليل" وسمعوا صوت رجل يقول : "وما هذا النور بالمخدع؟"، فعرفوا منها صوت جافير .

وكان باب المخدع يوارى عند فتحه الزاوية اليمنى من ذلك المكان فأطفأ جان فالجان شمعته واختبأ فى تلك الزاوية .

وسقطت الراهبة على ركبتيها بجوار المنضدة ، وفتح الباب وظهر جافير على العتبة، وجعلت الراهبة تصلى وكانت قد نصبت شمعتها على المدفأة، فلمح جافير على ضوئها الضئيل تلك المصلية، فسمر فى مكانه .

وجافير كما تعهد، بما بنى عليه طبعه وبما كسبه من البيئة التى يعيش فيها والمضطرب الذى يتقلب فيه، كان على جانب عظيم من إكبار السلطة فى شتى

مظاهرها . فهو يعظم سلطان الدين كما يعظم سلطان القوانين، وينزل الراهب منزلة المعصوم من الخطأ، والراهبة منزلة المعصومة من الخطيئة .

تلك أرواح مسورة فى هذه الدنيا بسور له باب واحد، لا يفتح إلا لتخرج منه كلمة حق .

ولما لمح جافير الراهبة، هم عند الوهلة الأولى بالانصراف ثم ذكر واجب مهنته فوقف وتجاسر على سؤالها وهو يعلم أنها امرأة صدق، ومكانها من نفسه مكانها : "أيتها الأخت، هل أنت وحدك فى هذا المخدع؟ " .

فرفعت عينها، وقالت : "نعم" . فقال جافير : "أعذرينى على هذا الإلحاح ... ألم ترى رجلاً فى هذه الليلة، فإنى أتعقب مجرماً يدعى جان فالجان قد فر من السجن" . قالت : "لا !" .

فانحنى جافير وسلم، وعاد من حيث أتى وهو بها أوثق ما يكون .

كذبت الراهبة ثم كذبت : كذبت مرتين على التعاقب .

إيه أيتها العذراء الطاهرة . إنك لم تكونى من أبناء دنيانا ... وقد مر بك سنون وأنت تلابسين الطواهر من أخواتك العذارى. والأطهار من إخوتك الملائك، ولسوف تسألين عما جرى على لسانك من الكذب، ولكن فى دار النعيم .

وبعد هذا الحادث بساعة أو شيعها[1] رؤى رجل يهرول بين الشجر، وقد ركب طريق باريس ولم يكن غير جان فالجان .

وقد ارتدى رداء عامل ولم ندر من أين أتى به، ولعله رداء العامل الذى مات فى المصنع منذ أيام .

---

(١) قريباً منها .

وقد آن لنا أن نشيع فانتين بكلمة :

"إن لنا أما واحدة .

"هي الأرض .

"وقد رجعوا فانتين إلى أمها ..." .

وقال القس :

"ليس من البر أن أنفق من مال هذا المجرم على دفن تلك البغي، ولكن البر أن أرصده للنفقة على الفقراء والمساكين" .

ثم تجوز[1] في دفن تلك البائسة وألقى بها في مقابر الصدقة، فاختلطت عظامها بذلك الرفات : رفات من سبقها ومن يلحقها من الأموات .

وغابت في غياهب تلك الحفرة التي لم تكن لأحد وهي لكل أحد .

وذهبت روحها إلى مقرها ومستودعها . وسبحان من يعلم وحده أين ذلك المستقر .

وهكذا أنيمت فانتين في ظلمة تلك الحفرة، وانطوت في رماد تلك الأمشاج، فكان لحدها أشبه شيء بسريرها .

---

(١) تساهل .

سؤال ... و ... جواب

وضعه شاعر النيل : **حافظ إبراهيم**
تقديم وإعداد : **عبد التواب يوسف**

المحتويات

حكاية فى البداية

عبد التواب يوسف

ذات يوم ، وجدت ابنى عصام يفتش فى كتبى .. وسألته فى هدوء .. وكان عمره نحو تسع سنوات .

- عمّ تبحث ؟

- عن كتاب ..

- أعرف

- سمعت أن لك كتابا يحمل عنوان «دليل الآباء الأذكياء إلى تربية الأبناء» ..

ضحكت ضحكة خفيفة ، وقلت له :

- هذا الكتاب للكبار .. للآباء ..

قلدنى باسما : أعرف

- ما حاجتك به ؟

سكت قليلا قبل أن يقول ضاحكا :

- أريد أن أعرف إذا ما كنت قد أحسنت تربيتى ..

وهنا ضحكت بصوت عال - لقد حاولت ، وأرجو أن أكون قد نجحت وأنا فى هذا الكتاب أقدم خبراتى وما قرأت فى هذا المجال .

- أعرف أنك تقرأ كثيرا ، ماذا قرأت فى التربية ؟

تذكرت كتابا ، كانت أمى تحتفظ به ، وقد وضعته فى مغلف جلدى أنيق بين ثيابها ، وما كانت تسمح لنا بأن تمتد أيدينا إليه ، ونحن صغار ، وكان الأمر يدهشنا ، فهى أمية ، لا تحسن القـــراءة أو الكتـــابة ، وعنـــدما كبرنا حدثتنا عن هـــذا الكتاب ، قـائـــلة إن أبى أتى به إليهـــا ، وكان يقرأ عليها منه .. وإنه كتاب فى «التربية» ، لأنه يريد لأبنائه أن يشبوا على درجة عالية من الخلق والأدب والعلم ..

وأضافت أمى :

- ولم يكن هذا هو الكتاب الوحيد عندنا ، بل كان أبوك يحتفظ بكتاب آخر ، قرأه وهو طفل ، وأظنه سمح لكم بقراءته ..

قلت لابنى :

- نحن عائلة ، أبًا عن جد ، نحاول أن نربى أبناءنا بشكل علمى متطور .. والكتاب الذى تحدثت عنه جدتك ، وقالت إن أبى ورثه عن جده كتاب قديم ، عريق ، مازلت أحتفظ به ..

سأل : من مؤلفه ؟

- كتبه شاعر النيل حافظ إبراهيم .. وقد حافظت عليه ، كما حافظت أمى على كتابها ..

قـال : أريد أن أراه .. أم أنه من الصعب عليك أن تخرجه من وسط هذه الآلاف من الكتب ؟

لم أبادر بالرد عليه ، وإنما ذهبت إلى ركن من المكتبة والتقطت الكتاب ، وقلت له :

- هذا الكتاب ، قرأه جد جدك ، من أجل أن يتدرب على تربية ابنه ، ولم يكن الناس فيما مضى يقرأون كتبا من هذا النوع ، وإنما كانوا يربون أولادهم كما رباهم آباؤهم .. ورويدا ، رويدا أدركوا أن التربية علم واسع وخبرة كبيرة يجب أن يتعلموها ، ومن أجل هذا بدأت تظهر كتب ، وتوجد كليات ومعاهد فى الجامعات تحمل اسم «التربية» ، وأصبحت لها مناهجها وأساتذتها وعلماؤها وكتبها ومراجعها ، لأن كل أب كان يريد لابنه أن يكون أحسن منه وأفضل .. وقد تدرس التربية يومًا لتعمل فى مجالها معلما وأستاذا وأبا ناجحا لابنك ، وكثيرون يقرأون عنها من أجل تربية أنفسهم أو أبنائهم ..

قلب ابنى الكتاب بين يديه ، وقال ..

- من الصعب على جيلى أن يقرأ هذا الكم الكبير من النصائح المرهقة المزعجة ..

سألته : لماذا لا تجرب ؟ حاول .. وحافظ عليه .. ضحك وقال : هذا كتاب قراءته تعلم الصبر على المكاره . ضحكت .. لقد وجد فيه بعض الخير من زاوية أخرى !

أعاد إلىّ عصام الكتاب بعد أيام وهو يقول ..

إنه طريف .. لا بأس به ..

- هل استطعت قراءته ؟

- نعم ..

- ما الذى أعجبك فيه ؟

- مجرد أن جد جدى قرأه .. وأرجو ألا يكون قد ضاق بهذا الحشد من النصائح ..

وبعد سنوات طويلة خطر في بالى أن كثيرين مثل ابنى فى تلك السن يحبون أن يطالعوا شيئا تاريخيا ، طريفا ، كتبه من أجل الأبناء شاعر كبير هو حافظ إبراهيم . . هو لم يكتب شعرا للأطفال مثل شوقى ، وكانا صديقين ، وأحبا الأطفال . . شوقى كتب لهم قصائد عديدة ظهرت فى الديوان الذى أصدرناه ونشرناه أكثر من مرة ، وحافظ حاول من خلال النثر أن يعين الأطفال ويساعدهم على أن يحبوا حياة سليمة سعيدة ، وقال فى مقدمة كتابه :

اهتم وزير المعارف المصرية أحمد حشمت باشا بأمر التربية والتعليم اهتمامًا دعاه إلى النظر فى كل ما وُضـع من الكتب العربية فى هذا السبيل . ولما لم يجد فيما يتداولُ الناس منها كتبًا خصيصة بالتربية عمد إلى انتخاب طائفة من الكتب الغربية التى وضعها جماعة من علماء الفرنسيس لأبناء أمتهم .

ثم تقدّم إلىّ بتعريبها للناشئين من الأحداث فى مدارس الحكومة . فصدعت بأمره وعرّبتها وتوخيتُ فى تعريبها أسهل التراكيب وأبسط الأساليب وقرّبتها ما استطعت إلى أفهام الناشئين ولم أنزل بها إلى منزلة الساقط المرذول ولم أرتق إلى ذروة البلاغة ولكن جعلت لى سبيلاً قصداً بين الغايتين .

ربما ابتسمتم لكلمة «الفرنسيس» . إنها الكلمة التى كانوا يطلقونها أيامها عن الفرنسيين ، وقد أنجبت بلادهم كثيرين ممن كتبوا فى التربية ، ومن بينهم كاتبهم الأشهر «جان جاك روسو» .

ولابد أنكم ستسألون :

– متى كان أحمد باشا حشمت وزيرا للمعارف ، أى التربية والتعليم ؟

لقد كان ذلك في عهد الخديوى عباس حلمى الثانى ، الذى حكم مصر ما بين عامى ١٨٩٢ و ١٩١٤ وخلعه الإنجليز ، ومات عام ١٩١٧ ..

هل عرفتم أننا أمام كتاب قديم ، يقترب عمره من مائة عام إذا لم يكن قد تجاوزها ؟

أرجو أن تستمتعوا به كما استمتع جد جدكم !